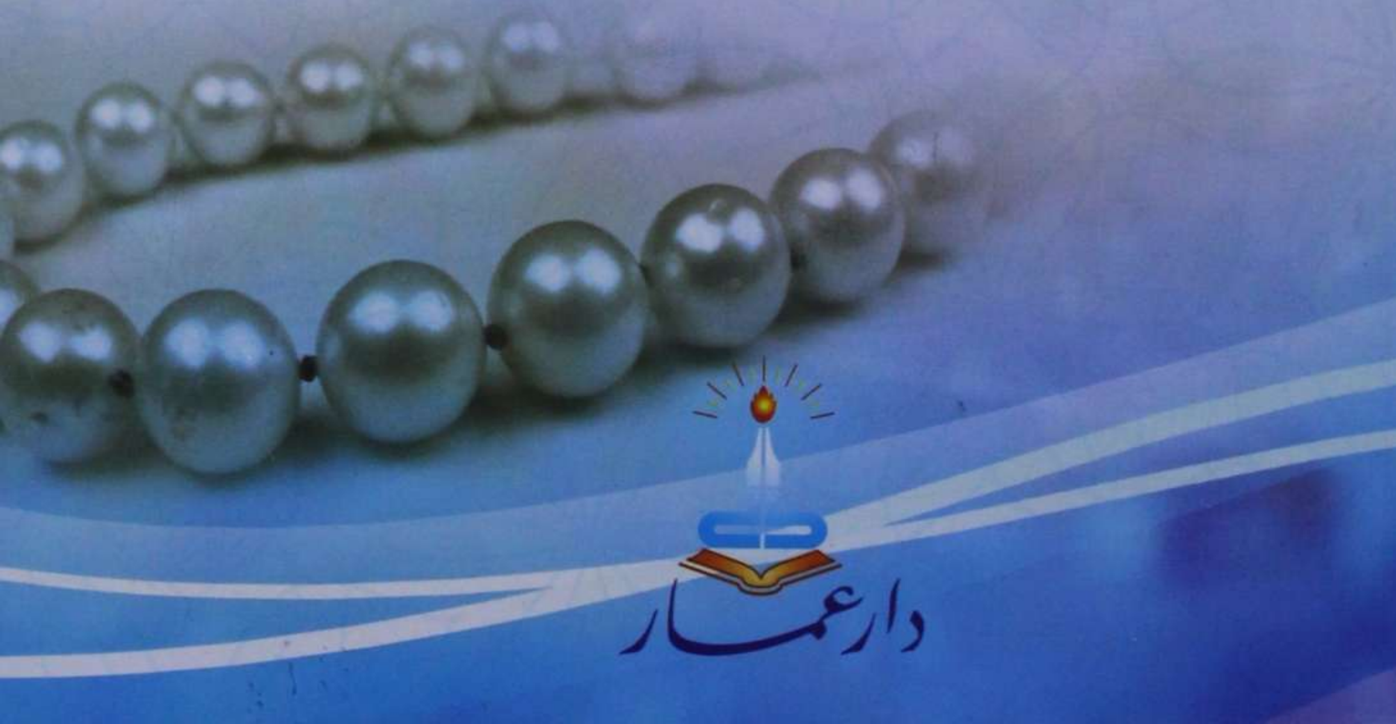
عقد الجمان

في تقويم تدبر القرآن

أُسُسٌ وَضَوَابطُ مَتِينَةٌ، تساعد في تَدبر القُرآن تَدبُراً يوقظُ العقلَ! وَيُحْيي القَلبَ! وَيُنوِّرُ الذّهنَ! ويَنْفخُ في المَرء رُوْحَ العَمَل! أسسٌ وضَوابطُ تُثَبِّتُ الدَارسَ على الجَادّة، ولا تَتركهُ يَتيهُ في التُّرهَات! ولا تَدعُهُ يَهيْمُ في كلّ وَادٍ!

الدكتور

محمد عناية الله أسد سبحاني



دار عمار

عقد الجمان

في تقويم تدبر القرآن

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٦/٤/١٩٢٨)

٢٢٠

سبحاني، محمد عناية الله أسد
عقد الجمان في تقويم تدبر القرآن/ محمد عناية الله اسد سبحاني.-
عمان: دار عمار للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

(   ) ص.
ر.إ. : ٢٠١٦/٤/١٩٢٨
الواصفات: /القرآن الكريم // العلوم القرآنية/



دار عمار للنشر والتوزيع
عمّان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

عقد الجمان

في تقويم تدبر القرآن

أُسُسٌ وَضَوَابطُ مَتينَةٌ، تساعد في تَدَبر القُرآن تَدَبُراً يوقظُ العَقلَ! وَيُحيي القَلبَ! ويُنوّرُ الذّهنَ! ويَنْفخُ في المَرء رُوْحَ العَمَل! أسسٌ وضَوابطُ تُثَبتُ الدَارسَ على الجَادّة، ولا تَترُكهُ يَتيهُ في التُّرهّات! ولا تَدَعُهُ يَهيْمُ في كلّ وَادٍ!

الدكتور

محمد عناية الله أسد سبحاني

دار عمار

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقدمة

الحمد لله الذي منّ علينا بكتابه العليّ الحكيم، ومنّ علينا برسوله النبيّ الكريم، ومنّ علينا إذ هدانا إلى صراطه القويم المستقيم، فلك الحمد ياربنا ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ماشئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك. وبعد:

فإن ربنا سبحانه وتعالى إذ أكرمنا بكتابه، أمرنا أن نتدبر آياته، حيث قال تعالى:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (سورة ص:٢٩)

وزجر قوماً على أنهم لايتدبرون القرآن، فقال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (سورة محمد:٢٤)

فتدبر القرآن فريضة على المؤمنين كلهم، بل فريضة على بني آدم أجمعين، حيث يجب عليهم جميعاً أن يؤمنوا بكتاب ربهم، ويحرصوا عليه، ويتدبروه، ويستضيؤوا بنوره، باعتبار أنه هو ربهم، وهو الذي خلقهم ورزقهم، وآتاهم من كل ماسألوه، وهو الذي يستحق منهم أن يطيعوه ويعبدوه، ويتبعوا ما أمرهم به، ويجتنبوا مانهاهم عنه.

عليهم جميعاً أن يؤمنوا بكتاب ربهم، ويتذوقوه كما يأكلون من رزقه، وكما يشربون من مائه، وكما يتنفسون في هوائه، وكما يسكنون على أرضه، وتحت سمائه.

ولكن الناس ظلموا أنفسهم، إذ فُتنوا بنعمه الظاهرة العاجلة، وحرصوا عليها، وتقاتلوا عليها، وزهدوا في أكبر نعمه، ورغبوا عنها ! ألا وهو كتابه العظيم، وقرآنه الكريم.

وذلك من سفاهة رأيهم، وقلة وعيهم ! حيث زهدوا في أكبر نعمه، ورغبوا فيما دونه !

وكان المؤمنون أولى بأن يدركوا هذه النكتة، ويحرصوا على هذه النعمة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، ولم يكونوا عند الواجب، ووقفوا من كتاب الله موقفاً لايختلف كثيرا من موقف الآخرين !

وقفوا منه موقفاً لايليق بهم، ولايشرّفهم، حيث لم يقدروه حق قدره، ولم يفعلوا ما أمروا به من تدبر آياته وسوره.

وإذ لم يتدبروا آياته، لم يظفروا بعلومه ومعارفه، ولم يتوصلوا إلى خزائن أسراره وحِكَمه، ولم يجدوا فيه ما يحدوهم إلى أن يعيشوا به، ويجعلوه منهج حياتهم، وروح جهودهم ونشاطاتهم، ويروه سرّ قوتهم وسرّ كرامتهم وسرّ سعادتهم، فمالوا إلى غيره من الأنظمة الفارغة، والمناهج الخلّابة، التي كان مثلها كمثل برقٍ خلّب ليس فيه مطر ! أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء !

فأصبح المسلمون مع قرآنهم العظيم كرجل فقير تحت جداره كنز ثمين، وهو غافل عنه، فهو يتكفف الناس، ولايعرف أنه يملك ما يغنيه عن الناس، بل ربما يجعله أغنى الناس !

لا نقول إن المسلمين اتخذوا هذا القرآن مهجورا، وإن كنا لا نأمن أن يقول الرسول ذلك يوم القيامة !

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ (سورة الفرقان: ٣٠)

فهم غافلون عن عظمته وجلالة قدره غفلة يندى لها الجبين، وليست تلك الغفلة إلا لأنهم لم يشمّوه شماً، ولم يعايشوه معايشة ذاتية، ولم يدّبّروا آياته، ولم يقيموا عليها إقامة كافية.

وليس حديثنا خاصاً بعامة الناس، الذين لايملكون رصيداً من العلم ! فتلك

بليّة ابتلي بها الجميع ! ابتُلي بها الخاصة والعامة ! ابتُلي بها العلماء وغير العلماء!

فالعلماء أيضاً غافلون عن تدبر القرآن بشكل رهيب، فكلما لزمهم أن يعرفوا شيئاً من معاني آياته لم يتدبروها، وإنما لجؤوا إلى كتب التفسير، واكتفوا بما فيها، من غير أن يتأكدوا من صحته ومتانته، بالرجوع إلى لفظ الآيات وأسلوبها، وجوّها وسياقها، وبعرضها على أشباهها ونظائرها، وبترداد النظر في أهدافها ومقاصدها !

ولن يعرف أحد عظمة القرآن، ولن يستضيئ بنوره، ولن يتوصل إلى كنوز معارفه، إذا لم يتدبر آياته تدبراً مباشراً من غير أن يكون بينه وبينه أيّ واسطة !

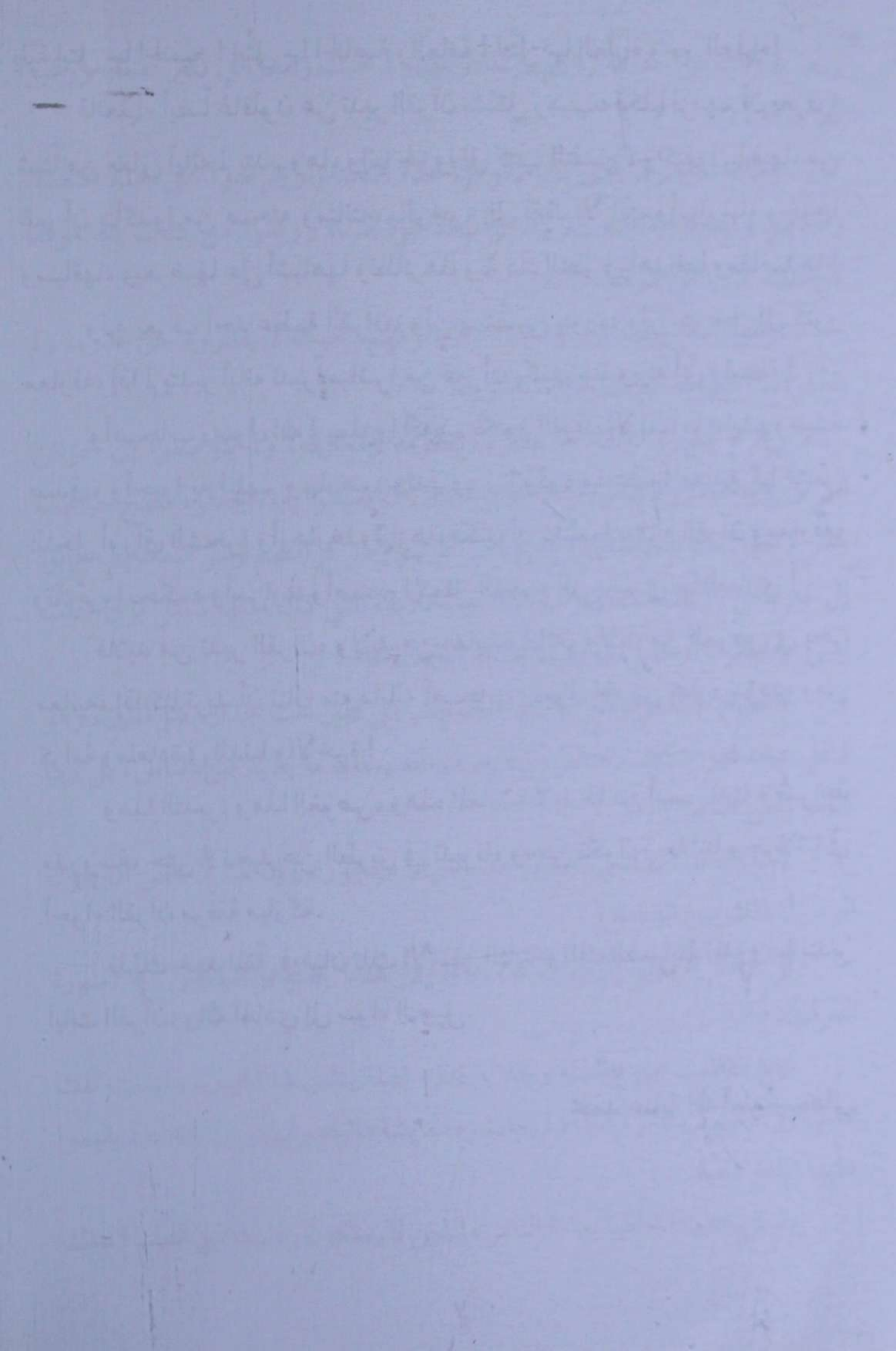
وأصحاب رسول الله لم يملؤوا أكفّهم بكنوز القرآن إلا بعد ما عايشوه عيشة صدق، وأحيوا به ليلهم ونهارهم، وتدبّروه وتذوّقوه وامتصّوا معانيه كما تمتصّ النحل أوراق الشجرة وأزهارها وثمارها، فكان أن تشبّعوا بعلوم القرآن ومعارفه، وتفجّروا بحكمه وأسراره، وأصبحوا كمثل النجوم التي يسري بها الساري !

فلابد من تدبر القرآن، ولابد من معايشة آياته، ولابد من الغوص في بحر معانيه، إذا كنا نريد أن ننال منه مانااله أصحاب رسول الله من مجد وسؤدد، ومن كرامة وسعادة في الدنيا والآخرة !

وهذا التدبر، وهذا الغوص، وهذه المعايشة لابد لها من أسس ثابتة وضوابط مدروسة، حتى لانحيد عن الطريق في تدبرنا، وحتى تكون رحلاتنا وجولاتنا في أجواء القرآن موفّقة مباركة.

فذلك جهد المقلّ في بيان تلك الأسس الثابتة وتلك الضوابط المدروسة لتدبر آيات القرآن، والله الهادي إلى سواء السبيل.

محمد عناية الله أسد سبحاني



الضابط الأول

لا يُقبل المعنى الشاذّ للفظ في الآية

لا يقبل من التأويل ما كان يعدل بألفاظ الآية عن المعنى المتبادر المعروف في لسان العرب، إلى معنى شاذ غير معروف.

قال الشاطبي: إن القرآن لا تُحمَل معانيه، ولا يُتأوّل إلا على ما هو متعارف عند العرب[1].

نضرب له مثالاً قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج:٥٢]

ما قيل في تأويل «تمنى»:

قال البغوي فيما قال، وهو يتحدث عن هذه الآية:

«وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: (تمنى) أي: تلا وقرأ كتاب الله تعالى. «ألقى الشيطان في أمنيته» أي: في تلاوته، قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنى كتاب الله أول ليلة　　　وآخرها لاقى حِمام المقادر

واختلفوا في أنه كان يقرأ في الصلاة أو في غير الصلاة؟ فقال قوم: كان يقرأ في الصلاة. وقال قوم: كان يقرأ في غير الصلاة. فإن قيل :كيف يجوز الغلط في التلاوة على النبي ﷺ وكان معصوماً من الغلط في أصل الدين، وقال جل ذكره في القرآن: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢] يعني إبليس؟

قد اختلف الناس في الجواب عنه، فقال بعضهم: إن الرسول ﷺ لم يقرأ، ولكن الشيطان ذكر ذلك بين قراءته، فظن المشركون أن الرسول قرأه.

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، المقدمة العاشرة: ١/ ١٢٥.

وقال قتادة: أغفى النبي ﷺ إغفاءة فجرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان ولم يكن له خبر.

والأكثرون قالوا: جرى ذلك على لسانه بإلقاء الشيطان على سبيل السهو والنسيان ولم يلبث أن نبهه الله عليه.

وقيل: إن شيطاناً يقال له "أبيض" عمل هذا العمل، وكان ذلك فتنة ومحنة من الله تعالى يمتحن عباده بما يشاء."(١)

هذا ما فعله كثير من أهل العلم وأهل التفسير، حيث أوّلوا الآية الكريمة إلى معنى شاذّ غير معروف، فوقعوا في حيرة، أبهمت عليهم الطريق!

وأئمة اللغة كانوا تبعاً لأهل التفسير في ألفاظ القرآن، ففعلوا مثل ما فعل المفسرون، ووقعوا فيما وقع فيه المفسرون. فهم لم يكونوا مستقلين بالبحث والدراسة لكلمات القرآن، حتى ينبهوا على الأخطاء إن وقعت في تفسير الآيات، وإنما تلقفوا من المفسرين كلما وجدوا في كتبهم، بغضّ النظر عن خطئهم وصوابهم.

وهكذا تأصلت الأخطاء، وكانت عقبة كأداء في طريق فهم القرآن!

معنى « تمنى » عند أئمة اللغة:

قال صاحب تاج العروس:

تَمَنَّى (الكِتابَ: قَرَأَهُ) وكَتَبَه؛ وبه فُسِّر قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾؛ أي قَرَأَ وتَلا فَأَلْقَى فِي تِلاوَتِه ما ليسَ فيه؛ قالَ الشاعرُ يَرْثي عُثْمان، رضيَ اللهُ تعالى عنه:

تَمَنَّى كِتابَ الله أَوَّلَ لَيْلِه ... وآخِرَه لاقَى حِمامَ المَقادِرِ

وقالَ آخَرُ:

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل: ٥/ ٣٩٤

تَمَنَّى كتابَ الله آخِرَ لَيْلةٍ   تَمَنِّيَ داودَ الزَّبُورَ على رِسْلِ

أي تَلا كتابَ الله مُتَرَسِّلاً فيه.

قالَ الأزهري: وَالتِّلاوَةُ سُمِّيت أُمْنِيَّة لأنَّ تَالِي القُرْآنِ إذا مَرَّ بآيَةِ رَحْمَةٍ تَمَنَّاهَا، وإذا مَرَّ بآيَةِ عَذَابٍ تَمَنَّى أَن يُوَقَّاه.(٤)

وقال صاحب مقاييس اللغة:

تَمَنَّى الكِتَابَ: قرأه. قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي إذا قرأ. وهو ذلك المعنى، لأن القراءة تقديرٌ ووضع كُلِّ آية موضِعَها. قال:

تَمَنَّى كتابَ الله أوَّلَ لَيلِهِ   وآخِرَهُ لاقى حِمام المقادِرِ[1]

معنى غير معروف في كلام العرب:

ولا يخفى أن هذا المعنى الذي ذهبوا إليه للفظ (تمنى) معنى شاذ، غير معروف في كلام العرب، وأبناء اللغة الأقحاح لم يستعملوا هذا اللفظ بمعنى القراءة والتلاوة قطّ، إلا ما جاء في هذا البيت الذي استندوا إليه، وهو بيت عِمِّيّ لا يُعرف مصدره!

ولقد عزاه أبو حيان في تفسيره إلى سيدنا حسان بن ثابت، ولكن بدون تحقيق وتوثيق. والمعهود في حسان بن ثابت أنه ينتقي الكلمات، ولا يأتي بها في معان شاذة غير معروفة.

والبيت ليس في ديوانه. ومن مشهور ما قاله سيدنا حسان في سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وهو ألذّ وأحلى مما تناقله المفسرون وأهل اللغة، قوله:

ضحّوا بأشمطَ عنوانُ السجود بِهِ   يُقَطِّع الليل تسبيحاً وقرآنا

(١) أبو الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، معجم مقاييس اللغة

وإذاً فلا مبرّر لتأويل (تمنى) الوارد في الآية إلى معنى القراءة والتلاوة، لكونه معنى شاذّا، غير معروف عند العرب. وكان الشيخ ابن عاشور موفقاً في رأيه، إذ قال:

"وقد سرى هذا التعسف إلى إثبات معنى في اللغة، فزعموا أن (تمنى) بمعنى: قرأ، والأمنية: القراءة، وهو ادعاء لا يوثق به، ولا يوجد له شاهد صريح في كلام العرب. وأنشدوا بيتاً لحسان بن ثابت في رثاء عثمان رضي الله عنه:

تمنى كتاب الله أول ليله وآخره لاقي حمام المقادر

وهو محتمل أن معناه: تمنى أن يقرأ القرآن في أول الليل على عادته، فلم يتمكن من ذلك بتشغيب أهل الحصار عليه، وقتلوه آخر الليل. ولهذا جعله تمنياً لأنه أحب ذلك فلم يستطع.

وربما أنشدوه برواية أخرى فظن أنه شاهد آخر. وربما توهموا الرواية الثانية بيتاً آخر.

ولم يذكر الزمخشري هذا المعنى في الأساس."[1]

ومن حق سائل أن يسأل: فما تأويل الآية إذاً؟

تأويل الآية بالمعنى المعروف:

لعل صاحب تفسير البحر المحيط كان أحسن قولاً، وأقرب رشداً، حينما فسر الآية، ولم يعدل بلفظ (تمنى) عن معناه المتبادر إلى الذهن، والمعروف عند أهل اللسان، حيث قال:

«لما ذكر تعالى أنه يدافع عن الذين آمنوا، وأنه تعالى أذن للمؤمنين في القتال، وأنهم كانوا أُخرجوا من ديارهم، وذكر مَسْلاة رسوله ﷺ بتكذيب من تقدم من

(١) التحرير والتنوير - سورة الحج: ١٧/ ٢٢١

الأمم لأنبيائهم، وما آل إليه أمرهم من الإهلاك إثر التكذيب، وبعد الإمهال، وأمره أن ينادي الناس، ويخبرهم أنه نذير لهم، بعد أن استعجلوا بالعذاب، وأنه ليس له تقديم العذاب ولا تأخيره، ذكر له تعالى مسلاة ثانية باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء، وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم، متمنين لذلك، مثابرين عليه، وأنه ما منهم أحد إلاّ وكان الشيطان يُراغمه، بتزيين الكفر لقومه، وبث ذلك إليهم، وإلقائه في نفوسهم، كما أنه ﷺ كان من أحرص الناس على هدى قومه، وكان فيهم شياطين، كالنضر بن الحارث، يلقون لقومه وللوافدين عليه شُبهاً يثبِّطون بها عن الإسلام، ولذلك جاء قبل هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ وسعيهم بإلقاء الشبه في قلوب من استمالوه، ونسب ذلك إلى الشيطان؛ لأنه هو المغوي والمحرك شياطين الإنس للإغواء كما قال (لأُغْوِيَنَّهُمْ) وقيل: إن (الشَّيْطَانِ) هنا هو جنس يراد به شياطين الإنس. ومفعول (أَلْقَى) محذوف لفهم المعنى وهو الشر والكفر، ومخالفة ذلك الرسول أو النبيّ لأن الشيطان ليس يلقي الخير.

ومعنى ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي يزيل تلك الشبه شيئاً فشيئاً حتى يسلم الناس، كما قال ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ و﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي معجزاته يظهرها محكمة لا لبس فيها ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من تلك الشبه وزخارف القول ﴿فِتْنَةً﴾ لمريض القلب ولقاسيه ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ من أوتي العلم أن ما تمنى الرسول والنبيّ من هداية قومه وإيمانهم هو الحق. وهذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله ﷺ إنما تضمنت حالة من كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنوا."[١]

هذا ما فسر به الإمام أبوحيان تلك الآية الكريمة، وكان موفقاً فيما فسر، وكان من أسباب التوفيق أنه تجنب المعنى الشاذ، وظل متمسكاً بالمعنى المشهور المعروف عند العرب.

---

(١) أبوحيان، تفسير البحر المحيط، سورة الحج، ٦/ ٢٧٦

(ومن أراد زيادة البيان، فليرجع إلى «إمعان النظر في نظام الآي والسور» للمؤلف، الفصل الأول من الباب الثالث)

مثال آخر:

ومن هذا النوع قوله تعالى:

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (سورة التحريم: ٤).

معنى شاذّ غير معروف:

قال الإمام البغوي في تأويل الآية:

﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي من التعاون على النبي ﷺ بالإيذاء. يخاطب عائشة وحفصة ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أي زاغت ومالت عن الحق واستوجبتما التوبة.[1]

فهو فسر (صغت قلوبكما) بمعنى: زاغت ومالت عن الحق، ومن العجيب في الأمر أن معظم المفسرين، إن لم نقل: كلهم، مالوا إلى هذا المفهوم، حيث فسروا ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ بما فسر به الإمام البغوي، مع أنه أيضاً من قبيل تأويل الكلمة إلى المعنى الشاذ، دون المعنى المعروف، والمتداول بين الناس.

المعنى الصحيح المعروف:

قال ابن فارس:

(صغوي) الصاد والغين والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على المَيْل، من ذلك قولُهم: صِغْو فلانٍ معك، أي ميلُه. وصَغَتِ النجوم: مالت للغُيوب. وأصغى إليه، إذا مال بسمعِهِ نحوَه. وأَصْغَيت الإِناءَ أَمَلْتُهُ. ومنه قولهم للذين يَميلون مع

---

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، سورة التحريم: ٨/ ١٦٥

الرَّجُل من أصحابِهِ وذوي قُرْباه: صاغِيَةٌ.[1]

وقال ابن منظور:

(صغا) صَغا إليه يَصْغى ويَصْغُو صَغْواً: مال. وقال ابن السكيت صَغَيْت إلى الشيء أَصْغى صُغِيّاً إذا مِلت وصَغَوْت أَصْغُو صُغُوّاً قال الله تعالى ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ﴾ أي ولِتَمِيل ، وصَغْوه معك أَي: مَيْلُه معَك.

وصاغِيةُ الرجل: الذين يميلونَ إليه ويأتونه ويَطْلُبون ما عنده ويَغْشَوْنَه. ومنه قولهم: أَكرِموا فلاناً في صاغَيِته. وقال اللحياني: الصاغِيَة كلُّ من أَلَّمَ بالرجلِ من أَهلهِ. وفي حديث ابن عَوْف: كاتَبْتُ أُمَيَّة بنَ خَلَف أَن يَحْفَظَني في صاغِيَتي بمكة وأَحْفَظه في صاغِيَته بالمدينة، هم خاصَّة الإنسان، والمائلون إليه. وفي حديث عليّ: كان إذا خلا مع صاغيته وزافِرتهِ انْبَسط.

وصغا إليه سمْعي يَصْغُو صُغُوّاً مال، وأَصْغى إليه رأْسَه وسَمْعه أَماله وأَصْغَيْتَ إلى فلانٍ إذا مِلْت بسَمْعك نحوهَ .وأَنشد ابن بري شاهداً على الإصْغاء بالسمْع لشاعر:

تَرى السَّـفِيه به عن كلّ مَكرُمَةٍ   زَيْغٌ وفيـه إلى التسـفيه إصغاءُ

وأَصْغَتِ الناقةُ تُصْغي إذا أَمالتْ رأْسَها إلى الرجلِ كأَنها تَسْتَمع شيئاً حين يَشُدُّ عليها الرحْل. قال ذو الرمة يصف ناقته:

تُصْغِي إذا شَدَّها بالكُورِ جانِحَةً   حتى إذا ما استَوى في غَرْزِها تَثِبُ

وأَصغى الإناءَ أَماله وحَرَفَه على جَنْبه ليَجتمِع ما فيه. ويقال: أَصْغى فُلان إناءَ فُلانٍ إذا أَماله ونقَصَه من حظِّه. وفي حديث الهِرَّة كان يُصغي لها الإناءَ أي

---

(١) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، صغوى

يُميلُه ليَسْهُل عليها الشربُ. ومنه الحديث: ينفخُ في الصُّور فلا يسمَعُه أَحدٌ إلا أَصْغى لِيتاً أي أَمال صَفْحَة عُنقِهِ إليه ، وقالوا: الصَّبيُّ أَعلمُ بمُصْغى خدّه، أي هو أعلم إلى من يلجأُ أوحيثُ يَنْفعُه، وصَغَتِ الشمسُ والنجومُ تَصْغُو صُغُوّاً مالَتْ للغُروبِ. ويقال للشمسِ حينئذ صَغْواءُ وقد يتَقاربُ ما بين الواو والياء في أَكثرِ هذا الباب قال: ورأَيتُ الشمسَ صَغْواءَ يريدُ حين مالَتْ، وقال الأَعْشَى:

تَرَى عينَها صَغْواءَ في جَنْبِ مُوقِها تُراقِبُ كَفِّي والقَطِيعَ المُحَرَّمَا[1]

تلك استعمالات الصغو، والإصغاء، فالصغو، أو الإصغاء لا يأتي بمعنى الزيغ، بل هو ضدّه، ويكون دائماً بمعنى: الميل إلى الشيء، والإقبال إليه. ولذلك نرى الشاعر جاء بلفظ الزيغ في مقابل الإصغاء، فقال:

تَرى السَّفِيه به عن كلّ مَكرُمَةٍ زَيْغٌ وفيه إلى التسفيه إصغاءُ

فيكون معنى الآية: إن تتوبا إلى الله، فأنتما أحق بالتوبة وأهلها، وهي التي تنتظر منكما، فقد مالت وأنابت قلوبكما إلى الله.

لفتة بارعة للفراهي:

قال الفراهي:

«في جميع الألسنة، ولا سيما في لسان العرب، ألفاظ خاصة لأفراد خاصة تحت معنى كليّ، والذهول عن تلك الخصائص مُبعدٌ عن فهم اللسان، ف»الميل« مثلاً، معنى كليّ، ثم تحته: الزيغ، والجور، والارعواء، والحيادة، والتنحي، والانحراف، كلها للميل عن الشيء.

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري

والفيء، والتوبة، والالتفات، والصغو، كلها للميل إلى الشيء، فمن خبط بينهما ضل وأضل. ولا يخفى على العالم بلسان العرب أن قوله تعالى: ﴿ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ معناه: أنابت قلوبكما، ومالت إلى الله ورسوله."[1]

روايات ليس لها أصل:

وأما الروايات التي وردت عن سيدنا عبد الله بن مسعود، أو سيدنا عبد الله ابن عباس، أنهما قرآ (زاغت قلوبكما) أو أوّلا «الصغو»، إلى معنى الزيغ، فمثل تلك الروايات حجة على نفسها، وتذكّرنا قول الإمام أحمد رحمه الله:

«ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي. «ويروى: «ليس لها أصل»!

ولا ندري، كيف رضي الناس، وكيف طابت أنفسهم أن ينسبوا زيغ القلب إلى أمهاتهم - أمهات المؤمنين؟!

والله يسامحهم، فالقرآن لا يَسِمُ بزيغ القلب إلا شياطين اليهود، حيث قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ ﴾ (سورة آل عمران: ٧).

وقال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (سورة الصف: ٥).

فليس هناك من شطط حين نقول: مثل تلك الروايات أقرب إلى الخطأ منها

---

(١) الفراهي، مفردات القرآن: ٢٩٣

إلى الصواب، فهي ما جاءت إلا عن طريق أعداء الله وأعداء الرسول، أعداء أمهات المؤمنين!

مثال ثالث:

ومن هذا النوع قوله تعالى في سورة الفيل:

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ٤-٥)

ما حجارة من سجيل؟

قال السمرقندي في تأويل الآية:

«وأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر، أمثال الخطاطيف. مع كل طير منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمصة والعدسة، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك.»[١]

وقال ابن عطية الأندلسي:

بعث الله (عليهم طيراً) جماعاتٍ جماعات سُوداً من البحر وقيل خضراً، عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقاره ورجليه وكل حجر فوق العدسة ودون الحمصة فرمتهم بتلك الحجارة، فكان الحجر منها يقتل المرمي وتتهرى لحومهم جذرياً، وأسقاماً.[٢]

والأمر ليس مقصوراً على الشيخين، فأهل التفسير شبه متواطئين على أن الحجارة التي رُمي بها أصحاب الفيل كانت مثل الحمص و العدس.

---

(١) أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي- بحر العلوم: سورة الفيل

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- سورة الفيل: ٨/ ٦٨٩-٦٩٠

استعمالات (الحجارة) في القرآن:

وهنا يأتي سؤال: لقد ورد لفظ الحجارة في القرآن تسع مرات، ما عدا تلك الآية التي نتحدث عنها من سورة الفيل، وهي كما يلي، قال تعالى:

* ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٤).

* ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٧٤).

* ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (سورة الأنفال: ٣٢).

* ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾ (سورة هود: ٨٢).

* ﴿ فَجَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ (سورة الحجر: ٧٤).

* ﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (سورة الإسراء: ٥٠- ٥١).

* ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ (سورة الذاريات: ٣٢-٣٣).

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (سورة التحريم: ٦)

فهل يمكن أن يقال عن الحجارة في أية آية من تلك الآيات، إنها مثل الحمص والعدس؟

وهل العرب استعملوا لفظ الحجارة لما كان مثل الحمص و العدس؟

استعمالات (الحجارة) في كلام العرب:

ولا بأس بأن نمرّ هنا على بعض استعمالات لفظ الحجارة في كلام العرب:

قال الأعشى:

لَسْنَا نُقَاتِلُ بِالعِصِيّ ... ولا نرامي بالحجارهْ[1]

وقال عمرو بن ملقط الطائي يخاطب عمرو بن هند:

من مبلغٌ عمراً بأنَّ المر ... ء لم يُخلقْ صُبارهْ
وحوادث الأيام لا ... تبقى لها إلا الحجارهْ[2]

وقال الآخر:

عَذِيريَ مِن خَلق تَخَلَّق منهم ... غَباءٌ ولُؤْم فاضحٌ وجَفاء
حِجارةُ بُخْلٍ ما تَجُود ورُبَّما ... تَفجَّر من صُمِّ الحجارة ماء[3]

---

(١) ديوان الأعشى: ياجارتي ماكنت جاره، ص: ٧٨
(٢) أبو الفرج الأصفهاني- كتاب الأغاني: ٢٢/ ١٩١
(٣) العقدالفريد: ٢/ ١٩٥

وقال الفرزدق في مجلس عبدالله بن الزبير:

وما خاصم الأقوام من ذي خصومة كورهاء مشنوءٍ إليها خليلها
فدونكها يا ابن الزبير فإنها ملعنة يوهي الحجارة قيلها[1]

وقال جران العود:

كَوَحْيٍ في الحِجارةِ أو وُشُومٍ بأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةِ النَّؤُور[2]

تلك بعض الأمثلة لاستعمال لفظ الحجارة، والشاهد فيها، وفي الآيات التي سبق ذكرها أن هذا اللفظ لا يستعمل إلا للصخور، أو الجبال، أو القطع الكبيرة، أو الصفائح العريضة للحجر، وأما تأويله إلى ما يعادل العدس أو الحمص، فهو معنى شاذّ لا تعرفه العرب، ولم يأت به القرآن.

قال ابن الجوزي:

واختلفوا في صفة الحجارة فقال بعضهم: كانت كأمثال الحمص والعدس. وقال عبيد بن عمير: بل كان الحجر كرأس الرجل والجمل.[3]

وما قاله عبيد بن عمير أقرب إلى طبيعة اللفظ، وهو أقل ما يدل عليه لفظ الحجارة، وإلا فالذي رُمي به أصحاب الفيل لا يبعد أن يكون في حجم رأس الفيل، أو أكبر من رأس الفيل.

ذكر ابن هشام في سيرته (ت:السقا: ١/ ٢٦) قصيدة لامرأة تعظ ابنها، وفيها:

والفيلُ أُهلك جيشُه يُرمَون فيها بالصخور

---

(١) العقدالفريد: ٧/ ١٣٥

(٢) الجاحظ - كتاب الحيوان، مدح الكتب: ١/ ٣٣

(٣) زاد المسير في علم التفسير- سورة الفيل: ٤

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية : هي طير خرجت من قبل البحر كأنها رجال السِّند، معها حجارة أمثال الإبل البوارك، وأصغرها مثل رؤوس الرجال، لا تريد أحداً منهم إلا أصابته، ولا أصابته إلا قتلته.

(انظر: روح المعاني للآلوسي-تفسير سورة الفيل-دار الكتب العلمية-بيروت)

ومن الواضح أن مثل هذه الحجارة الكبار لاتحملها الطير في مناقيرها، أو بين أرجلها، وإنما حملتها الريح ورمت بها أصحاب الفيل، وهي من جنود الله.ولكن الراوي وقع في وهم، حينما قال: معها حجارة أمثال الإبل البوارك !

ولايستبعد من الناظر من بعيد أوالسامع، إذا رأى أوسمع طيراً أبابيل في السماء،ثم علم أن أصحاب الفيل أمطِرت عليهم حجارةٌ من السماء، لايستبعد منه أن يهم أن الطير هي التي أمطرت عليهم تلك الحجارة !

وهذا الذي حصل مع الذين رووا أن الطير هي التي رمت أصحاب الفيل بتلك الحجارة، والطير لا يمكنها أن تحمل في مناقيرها الحجارة، هي لاتحمل، إذا حملت، إلا الحصى والحصباء، فقال بعضهم دفعاً لهذا الإشكال: إن تلك الحجارة كانت كأمثال الحمص والعدس! علماً بأن الحجارة في استعمال القرآن، أو في استعمال أهل اللغة لا تكون كأمثال الحمص والعدس.

رُمي أصحاب الفيل بما رُمي به قوم لوط:

ولا يعزب عن بالنا أن هذا اللفظ - حجارة من سجيل - جاء في سياق قوم لوط،كما جاء في سياق أصحاب الفيل، فقوم لوط أُمطرت عليهم حجارة من سجيل،كما رُمي أصحاب الفيل بحجارة من سجيل.قال تعالى في ذكر قوم لوط :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٧٣-٧٤)

ولقد أُرسل على قوم لوط حاصب، حيث قال تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۢ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ (سورة القمر: ٣٣-٣٤).

وأصحاب الفيل أيضاً أرسل عليهم حاصب، كما ذكره الذين شهدوا يوم الفيل، قال أبو قيس، وهومنهم:

وَمِـن صُنْعِـه يـومُ فِيـل الحُبو ... شِ إذْ كلّما بَعثُوه رَزَمْ
مَحاجِنُهـم تحـتَ أقرابـهِ ... وقـد كَلَمُـوا أنفـه فانْخَرَمْ
فأرسَلَ مـن فوقهـم حاصِبـاً ... يلفُّهـم مثـلَ لَـفِّ القَـزَمْ[1]

وقال صَيْفيُّ بنُ عامر وهو أبو قيس بن الأسلت وهو شاعر جاهليّ:

(قُوموا فصلُّوا ربكم وتعوَّذوا ... بأركان هذا البيت بين الأخاشب)
(فعندكـم منـه بلاءٌ مصدقٌ ... غداة أبي يكسوم هادي الكتائب)
(فلما أجازوا بطن نعمان ردهم ... **جنود الإله بين سافٍ وحاصبٍ)**
(فولَّوا سراعاً نادمين ولم يؤب ... إلى أهله ملحبش غير عصائب)[2]

الضمير الفاعلي يرجع إلى غير مذكور:

وعلى هذا، فالضمير الفاعلي في (ترميهم) لا يرجع إلى طير أبابيل، بل يرجع إلى غير مذكور، وهو (الريح) فالريح من جنود الله، وكان لها دور كبير في هلاك أعداء الله في كل زمان، كما ورد في قوله تعالى:

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٩٢، الجاحظ-الحيوان-قصة الفيل: ٤/ ١١٨
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٩٣، الحيوان- قصة الفيل: ٤/ ١١٨

* ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (سورة القمر: ١٨- ٢٠)

وقال تعالى:

* ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (سورة الأحزاب: ٩)

فالريح هي التي كانت ترمي أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، كما ضربت بها قوم لوط، ولكنها لم تُذكر باللفظ لوضوح أمرها، ووضوح دورها في إهلاك أعداء الله.

وقصة أصحاب الفيل كانت معروفة مشهورة في وقت نزول السورة بجميع تفاصيلها، وكان يوجد في الناس عدد غير قليل ممن شاهدوها بأعينهم، فالكناية عنها أغنت عن تفصيلها.

ورَجْعُ الضمير إلى غير مذكور أسلوب شائع في القرآن، مثل قوله تعالى:

* ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (سورة الواقعة: ٨٣-٨٧)

* ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ (سورة القيامة: ٢٦-٣٠).

فالضمير الفاعلي في (إذا بلغت) في كلتا السورتين يرجع إلى غير مذكور، قال ابن الجوزي:

قوله تعالى: ﴿ إِذَا بَلَغَتِ ﴾ يعني: النفس. وهذه كناية عن غير مذكور[1].

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: سورة القيامة: ٢٦

ما أُرسِلت طير أبابيل إلا لتطهير مكة!

وأما الطير الأبابيل، فهي ما أرسلت عليهم إلا بعد ما رمتهم الريح بحجارة من سجيل، وجعلتهم كعصف مأكول، وما أرسلت عليهم إلا بعد ما سكنت الريح، لتشبع من لحوم الفيل وأصحاب الفيل، ولتطهر أرض مكة من جيف أعداء الله.

والطير التي أرسلها الله عليهم ما كانت من جنس الحمام، والهدهد، والعصافير، وإنما كانت من جنس الجوارح وسباع الطير.

قال ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكفّ كأكفّ الكلاب.

وقال عكرمة: كانت لها رؤوس كرؤوس السباع.

وقال ابن إسحاق: كانت أمثال الخطاطيف.[1]

فتلك الطيور انقضّت على تلك الهلكى والجرحى، ونهشتهم نهشاً، ومضغتهم مضغاً، وكانت فيه إهانة أيّة إهانة ، وتعذيب أيّ تعذيب لهؤلاء الأعداء!

ثم كانت تلك منة عظيمة على أهل مكة وما حولها، حيث أكلت تلك الطير جثث الموتى والهلكى، وبذلك طهّرت تلك البقعة من تلك الجِيَف قبل أن تسبب نتن الريح وعفونة الجوّ.

ولو لم يكن ذلك لأصبحت مكة كلها عرضة للأوبئة والأمراض، ولم تصلح لأن تستمرّ فيها الحياة، ويعيش فيها أيّ ذي نفس يتنفس !

ولم يكن أهل مكة قادرين أبدًا على تطهير تلك البقعة من جِيَف جيش أبرهة، لو لم يرسل الله تلك الطير الأبابيل، وكان فضل الله عليهم عظيماً.

سنّة الله في عذاب الأقوام:

ويمكن أن نستأنس هنا بتلك الآيات في سورة العنكبوت. قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ

(١) زاد المسير في علم التفسير- سورة الفيل: ٣

جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٣٦-٤٠)

فهنا ذُكر عدد من الأقوام، الذين جلبوا على أنفسهم غضب الله بسبب طغيانهم واستكبارهم أمام الله، وذكرت أنواع العذاب التي استوجبوها بسبب إصرارهم على عدوانهم، وهي أربعة:

١- الحاصب ٢- الصيحة ٣- الخسف ٤- الإغراق

فتلك أربع حالات للعقوبة، أو أربعة أنواع من العذاب، التي ذكرها القرآن للأقوام، وليس من تلك الأربعة إرسال الطير، فإرسال طير أبابيل على أصحاب الفيل لم يكن للعذاب، وإنما كان لما ذكرناه وفصلناه بتوفيق من الله.

ترتيب الكلام:

فقوله تعالى: ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ لا يقع صفة لطير في قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ كما قيل، وإنما هي جملة مستأنفة.

فأجملت القصة كلها في الآيات الثلاث الأولى، فقد جعل الله كيد أصحاب الفيل في تضليل، حيث أهلكهم، ثم أرسل عليهم جماعات الجوارح وسباع الطير حتى تأكلهم.

وبعد إجمال القصة في ثلاث آيات، عاد السياق حتى يفصل في الآيتين الأخيرتين كيف كان هلاكهم، حتى يبرز جانب العبرة، ويبرز جانب الإنذار، وذلك قوله تعالى:

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ٤-٥)

والآية الأخيرة تدل بظاهر لفظها على أن الجيش بأسره هلك في موضعه، وهم عن آخرهم أصبحوا كعصف مأكول، وهذا لا يكون إلا إذا رمتهم العواصف بحجارة كبيرة ثقيلة كرأس الجمل، أو كرأس الفيل، أوكأمثال الإبل البوارك.

وأما إذا كان الرمي بأمثال الحمص والعدس،فهذا قد يُدميهم ويهلك بعضهم، ولكن لايجعلهم كعصف مأكول.

فلننظر أن الغفلة عن المعنى المعروف للفظ الحجارة، والركون إلى معنى شاذ غير معروف كيف أضلنا عن التأويل الصحيح للآية، وكيف جعل القصة تخالف الواقع، وتخالف سنة الله في إهلاك الأعداء.

مثال رابع:

قال الله تعالى في شأن اليهود مع سيدنا عيسى:

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٥٤ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(سورة آل عمران: ٥٤-٥٥)

فما معنى (إني متوفيك) في هذه الآية؟

رأيان في معنى (مُتوفّيك):

قال الفخر الرازي:

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عنه]فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ[واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما: إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها. والثاني: فرض التقديم والتأخير فيها، أما الطريق الأول فبيانه من وجوه.

الأول: معنى قوله ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي مُتَمِّمٌ عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن.

والثاني: (مُتَوَفِّيكَ) أي مُميتك، وهو مروي عن ابن عباس، ومحمد بن إسحاق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه أحدها: قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع. وثانيها: قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه. الثالث: قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾[1]

المعنى الظاهر المتبادر:

قال صاحب تفسير المنار:

إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا أي مكر الله بهم؛ إذ قال لنبيه: إني متوفيك إلخ، فإن هذه بشارة بإنجائه من مكرهم، وجعل كيدهم في نحرهم قد تحققت، ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة.

والتوفي في اللغة: أخذ الشيء وافياً تاماً، ومن ثم استعمل بمعنى الإماتة قال - تعالى -: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (٣٩ : ٤٢) وقال: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ (٣٢: ١١) فالمتبادر من الآية: إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي، كما قال في إدريس - عليه السلام -: ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (١٩ : ٥٧) والله - تعالى - يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار في عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء: ﴿ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (٣: ١٦٩) وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٥٤: ٥٤، ٥٥) وأما

---

(١) مفاتيح الغيب - سورة آل عمران: ٨/ ٢٣٧

تطهيره من الذين كفروا فهو: إنجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر.

هذا ما يفهمه القارئ الخالي الذهن من الروايات والأقوال؛ لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده.»[1]

وهكذا نرى أهل التفسير قد انقسموا إلى فريقَين في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾، ففريق يؤوله إلى معنى الإماتة، وفريق آخر يؤوّله إلى معنى الرفع إلى السماء، أو إلى معنى إتمام العمر برفعه إلى السماء.

والباحث حينما يرجع إلى القرآن يرى أنه قد جاء فيه لفظ التوفّي في مختلف صوره أربعاً وعشرين (٢٤) مرة، وفي كل مرة جاء هذا اللفظ بمعنى الموت أو الإماتة، ولم يأت في غير هذا المعنى، ولو مرة واحدة.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن المعنى المعروف المتداول للفظ (التوفي) هو الإماتة، والعدول عن هذا المعنى إلى أيّ معنى آخر يكون عدولاً عن المعنى المعروف إلى معنى شاذ غير معروف، وهو خلاف الأصل في تأويل الآيات.

لا تقديم ولا تأخير إلا لنكتة بلاغية:

وأما ما قيل في الآية من تقديم وتأخير، ففيه نظر.

نعم، إن الكلام قديكون فيه تقديم وتأخير، والقرآن توجد فيه أمثلة لهذا الأسلوب، ولكن هذا الأسلوب له مكانه، وكلما كان التقديم والتأخير في الآيات، لا بد أن تكون هناك نكتة بلاغية تقتضي ذلك.

فالأصل في الكلام هو الترتيب، ولا يكون العدول عن الترتيب الأصل إلا لضرورة،كما يكون في الشعر التزاماً بالقوافي ومراعاة للوزن، أو لنكتة رائعة بلاغية

---

(١) تفسير المنار-سورة آل عمران:٣/ ٢٦٠

كما يكون في أيّ كلام سامق شامخ، وعلى رأسه كلام الله، والذين قالوا بالتقديم والتأخير في الآية لم يشيروا إلى أيّ نكتة.

وبالجملة، فهذا ضابط مهمّ من ضوابط تدبر القرآن، حيث لا تؤوّل كلمة من كلمات القرآن إلا إلى المعنى المتداول المعروف في لسان العرب، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين، والمعنى الشاذ ليس من العربي المبين، ولا مكان له في تفسير القرآن العظيم.

كلمة الإمام ابن جرير:

ولقد أكثر الإمام ابن جرير من الاستدلال بهذا الضابط في تفسيره، وهو يشرح معاني الكلمات. فقال فيما قال، مثلاً، في تفسير قوله تعالى:]وَفَارَ التَّنُّورُ[-[سورة هود] (٤٠)

"كلام الله لا يوجّه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجَّة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها."[١]

وقال، وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا ﴾ (الإسراء:١٦)

"وتوجيه معاني كلام الله جلّ ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه، أولى، ما وُجد إليه سبيل، من غيره."[٢]

***　***　***

---

(١) تفسير الطبري، سورة هود: ١٥/ ٣٢١

(٢) تفسير الطبري: سورة الإسراء: ١٧/ ٤٠٦

الضابط الثاني

لا يقبل ما يوحي بالتكلف والتعسف

ولا يقبل من التأويل ما يعدل بالكلام عن الأسلوب المعروف في لسان العرب، وكان يوحي بالتكلف والتعسف، حيث إن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فكل تأويل أوهم غير ذلك، أو جرّد القرآن من هذا الوَصف، كان ردّاً على صاحبه.

ولنضرب له مثالا حتى يتضح الأمر، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (سورة البقرة: ١٨٣-١٨٤).

ما قيل في تأويل الآيتين:

قال الشوكاني:

وقوله: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ قيل: للمريض حالتان: إن كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة، وإن كان يطيقه مع تضرّر ومشقة كان رخصة. وبهذا قال الجمهور. وقوله: ﴿ عَلَىٰ سَفَرٖ ﴾ اختلف أهل العلم في السفر المبيح للإفطار، فقيل: مسافة قصر الصلاة، والخلاف في قدرها معروف، وبه قال الجمهور. وقال غيرهم بمقادير لا دليل عليها.

والحق أن ما صدق عليه مُسَمَّى السفر، فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض، فهو الذي يباح عنده الفطر. وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة. واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق أن الرخصة ثابتة فيه،

وكذا اختلفوا في سفر المعصية.»[1]

وقال الماوردي:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ هكذا قرأ أكثر القراء، وقرأ ابن عباس، ومجاهد: (وَعَلَى الَّذِينَ لاَ يَطِيقُونَهُ فدية)، وتأويلها: وعلى الذين يكلفونه، فلا يقدرون على صيامه لعجزهم عنه، كالشيخ والشيخة والحامل والمرضع، فدية طعام مسكين، ولا قضاء عليهم لعجزهم عنه.

وعلى القراءة المشهورة فيها تأويلان:

أحدهما: أنها وردت في أول الإسلام، خيّر الله تعالى بها المطيقين للصيام من الناس كلهم بين أن يصوموا ولا يكفروا، وبين أن يفطروا ويكفروا كل يوم بإطعام مسكين، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، وقيل بل نسخ بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وهذا قول ابن عمر، وعكرمة، والشعبي، والزهري، وعلقمة، والضحاك.

والثاني: أن حكمها ثابت، وأن معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي كانوا يطيقونه في حال شبابهم، وإذا كبروا عجزوا عن الصوم لكبرهم أن يفطروا، وهذا قول سعيد بن المسيب، والسدي.[2]

هذا ما قيل في تأويل الآيتين، وهو كلام لا يخلو من تكلف. وهو نتيجة طبيعية لغفلتهم عن معنى اللفظ، وأسلوب الكلام.

معنى الإطاقة في كلام العرب:

أما الغفلة عن معنى اللفظ، فهي الغفلة عن معنى الإطاقة؛ فإن الإطاقة لا تستعمل إلا بمعنى القدرة على العمل، والتمكن من الأمر.

---

(١) فتح القدير - سورة البقرة: رقم الآية: ١٨٤، ١/ ٢٢٨-٢٢٩

(٢) الماوردي، النكت والعيون: ١/ ٢٣٨-٢٣٩

وأما معنى التكلف، أو التطويق، أو الكلف بالمشقة، أو العجز عن العمل، أو عدم الإطاقة، فهذا ليس من معاني الإطاقة. وإليك بعض الأمثلة من كلام العرب.

قال مهلهل بن ربيعة:

لمْ يطيقوا أنْ ينزلوا وَ نزلنا ... وَأَخُو الحَرْبِ مَنْ أَطَاقَ النُّزُولاَ[1]

وقال الأعشى:

ودّعْ هريرةَ إنْ الركبَ مرتحلُ ... وهلْ تطيقُ وداعاً أيها الرّجلُ؟[2]

وقال الأعشى:

قَدْ حمّلوهُ فتيّ السّنّ مَا حمَلَتْ ... ساداتهُمْ فأطاقَ الحِملَ وَاضْطلَعَا[3]

وقالت الخنساء:

هريقي منْ دموعكِ أو أفيقي ... وصبراً انْ اطقتِ ولنْ تطيقي[4]

وقال المغيرة بن حبناء:

شديدُ القوى من أهلِ بيتٍ إذا وهَى ... من الدِّين فَتْقٌ حُمِّلوا فأطاقوا

مَراجيحُ في اللأواء إن نَزَلَتْ بهمْ ... ميامينُ قد قادُوا الجيوش وساقوا[5]

---

(١) ديوان مهلهل بن ربيعة: ١/ ٦٣

(٢) ديوان الأعشى، ص: ١٤٤

(٣) ديوان الأعشى، ص: ١٠٩

(٤) ديوان الخنساء، ص: ١٠٣

(٥) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني: ١٣/ ١٠٠

وقال الديلمي:

فها هو لو دعوناهُ لخطبٍ أطاقَ لأمرنا غير المطاقِ[1]

وأما الغفلة عن أسلوب الكلام، ففي قوله تعالى:
﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ فأسلوب الآية يوحي بمعنى التأكيد والتنشيط، لا بمعنى الترخيص والتيسير، أي: الآية ما جاءت لترخّص للناس في الإفطار، وإنما جاءت لتأكيد الصيام، والسياق كله تأكيد للصيام.

تأكيدات يتلو بعضها بعضاً:

فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ تأكيد للصيام، فإنه إذا قيل عن شيء ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ﴾، فإنه يقصد به الإيجاب مع التأكيد.

ثم قوله تعالى: ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾ تأكيد آخر للصيام.

ثم قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ تأكيد ثالث للصيام.

ثم قوله تعالى: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾ تأكيد رابع للصيام.

ثم قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ تأكيد خامس للصيام.

فالتأكيد الأول، والثاني، والثالث واضح، لا يحتاج إلى بيان. وأما التأكيد الرابع، وهو: ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ ﴾، فهو يعني ألا تستثقلوا هذا الصيام، ولا تستكثروه، فهي أيام تعدّ على الأصابع، وفوائده كثيرة جمّة، لا تعدّ ولا تقدّر، والسياق واضح في أن المراد بتلك الأيام المعدودات، هي أيام رمضان، الذي جاء ذكره صريحاً في الآية التالية، وليس هناك أيّ احتمال للصيامات الأخر، التي ذكروها في تأويل أيام معدودات، ثم زعموا نسخها بصيام رمضان.

---

(١) ديوان مهيار الديلمي: ١/ ١٣٩١

ثم جاء قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ومعناه في هذا السياق، وبهذا الأسلوب أن أيّ مؤمن لا يُعفى من هذا الصيام، حتى ولو كان مريضاً، أو على سفر، فإن عجز عن الصيام عجزاً، ولم يستطعه في موعده، بسبب مرضه، أو سفره، فلا بد أن يقضي هذا الصيام بعدد ما فاته، في أيام أخر.

فالآية فيها تأكيد، وتركيز على أداء الصيام، دون الترخيص في الإفطار، وهي جاءت على أسلوب أختها في نفس السورة، وهي قولهُ تعالى في سياق الحج:
﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾
(سورة البقرة: ١٩٦).

فالآيتان متشابهتان في الأسلوب، و﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ في هذه الآية، مثل قوله تعالى في آية الصيام: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

فهل جاء (ففدية) في آية الحج بمعنى الترخيص؟ وإذا لم يكن ذلك بمعنى الترخيص، فكيف يكون (فعدّة) في آية الصوم بمعنى الترخيص؟

ولنعلم أن الآية لو كانت تحمل معنى الترخيص لاختلف الأسلوب، وزيدت فيها "أما"، وكانت الآية على نحو مما يلي:

(فأما من كان مريضاً، أو على سفر فعدة من أيام أخر)

وإذاً، فلا حاجة بنا إلى أن نتعب أنفسنا في تحديد مسافة الإفطار، فالإفطار ليست له مسافة، فقد يسافر الإنسان من قارّة إلى قارّة، و يقطع مسافات هائلة، في الطائرات، أو القطارات، أو الحافلات المكيّفات، وهو في نشاط كامل، ولا يشعر بنوع من التعب أو النصب، فالإفطار في مثل هذه الحالات أمر غير مشروع، وغفلة شديدة عن روح الصيام وأهدافه.

الإفطار رخصة وليس فضيلة:

والإفطار رخصة يلجأ إليها المسلم في وقت العجز عن الصيام، وليس فضيلة يحرص عليها بدون عذر قاهر، من مرض مضنٍ، أو سفر مرهق.

ومما يجدر بالانتباه أن النبي عليه السلام كان يخرج بأصحابه في رمضان، فمن وجد قوة على الصيام صام، ومن وجد في نفسه ضعفاً أفطر، فالمسافة نفس المسافة، ولكن موقفهم كان يختلف حسب قوّتهم وضعفهم، فقد روى الإمام مسلم، قال:

حدثنا هداب بن خالد حدثنا همام بن يحيى حدثنا قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: غزونا مع رسول الله ﷺ لستة عشر مضت من رمضان، فمنا من صام، ومنا من أفطر، فلم يَعِبِ الصائمُ على المفطر، ولا المفطر على الصائم.[1]

لم يعب بعضهم على بعض، لأنه لم يكن هناك تقصير من المفطر، ولا تطاول من الصائم، وإنما فعل كل امرئ ما قدر عليه. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وهكذا الحكم في المرض، فمجرد اسم المرض ليس عذراً للإفطار، وإنما يفطر المريض إذا نهكه المرض، حتى عجز عن الصيام، وأما إذا كان قادراً على الصيام، والصيام لا يضرّه، ولا يوقعه في حرج، فلا يحل له أن يفطر.

وإن روي عن بعض السلف غير ذلك، فليس لنا فيه حجة، وكتاب الله أحق بالاتباع. وهو يفهم بلفظه، وأسلوبه، ونظمه وسياقه، لا بأحوال الناس وأقاويلهم.

وبالجملة، فالناس تعبوا في تأويل قوله تعالى:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾

وماتعبوا إلا بسبب ذهولهم عن سياقه، وأسلوبه.

---

(١) صحيح مسلم، باب جواز الصوم والفطر: ٣/ ١٤٢/ ٢٦٧١

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ:

وتعبوا كذلك في تأويل قوله تعالى في نفس الآية:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٤)

تعبوا في تأويله لنفس السبب، أي: بسبب ذهولهم عن سياقه وأسلوبه، ف(وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) معطوف على قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) ويكون تقدير الكلام: "كتب عليكم الصيام، وكتب على الذين يطيقونه فدية" . ففيه معنى الإيجاب والإلزام، دون معنى الترخيص والتيسير، وإذا جاءت "على" بهذه الصورة، فهي لا تفيد معنى الترخيص والتيسير، بل تفيد دائماً معنى الإيجاب والإلزام.

وعلى هذا فمن الصعب جداً أن يُقبل ما نقلوه عن السادة ابن مسعود ومعاذ ابن جبل وابن عمر وابن عباس وسلمة بن الأكوع وعلقمة والزهري في آخرين في هذه الآية، **أنهم قالوا: كان من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى، يطعم عن كل يوم مسكيناً** حتى نزلت: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فعلى هذا يكون معنى الكلام: وعلى الذين **يطيقونه ولا يصومونه فدية**.[1]

وقال الشوكاني:

«وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فقيل: إنها منسوخة **وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام لأنه شق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكيناً، ترك الصوم وهو يطيقه، ثم نسخ ذلك**، وهذا قول الجمهور.

وروي عن بعض أهل العلم **أنها لم تنسخ وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة**»[2].

فمن أين جاء في الآية معنى الترخيص، مع أن الأسلوب يفيد معنى الإيجاب، ويأبى معنى الترخيص؟

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير: سورة البقرة: ١٨٤

(٢) فتح القدير، سورة البقرة آية: ١٨٤، ١/ ٢٢٩

زِدْ إلى ذلك تلك التأكيدات الخمسة المتتابعة، التي تبعت الأمر بالصيام، والتي أسلفنا الإشارة إليها، فهل جاءت تلك التأكيدات المتتابعة، حتى يصوم من شاء، ويفطر من شاء؟

قول ليس عليه دليل:

وما يدرينا أن المؤمنين شقت عليهم فريضة الصيام؟ فالعرب الذين نزل عليهم القرآن ما كانوا أولي الترف والتنعّم، وإلاّ، فكيف لبثوا في شِعْب أبي طالب ثلاث سنين عددا؟ وما شعب أبي طالب؟ إذا تصوّره الإنسان، وتصور محنته، ارتجف له قلبه، وارتعدت له فرائصه!

"فقد ورد في الصحيح أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخبط وورق السمر، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص. روي أنه قال: لقد جعت، حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب، فوضعته في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن. وفي رواية يونس: أن سعداً قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها، ثم أحرقتها ثم رضضتها، وسففتها بالماء فقويت بها ثلاثا"(١)

فالضيق والضنك الذي كانوا فيه، في شعب أبي طالب، ما كان أقل من الصيام، بل كان أشدّ وأدهى، كان أشد منه مرات ومرات، والذي يصبر، ويتغلب على مثل ذلك الضيق والضنك، هل تظنه يشق عليه الصيام؟

الصيام كان من عادة العرب:

ثم الاطلاع على أحوال العرب يُشعر أنهم كانوا مستأنسين بالصيام، قبل نزول الأمر بالصيام، حتى كانوا يعوّدون خيولهم وآبالهم احتمال الشدائد، ويدرّبونها على

---

(١) عبدالرحمن السهيلي-الروض الأنف: ٢/ ١٥٩

الصبر عن الماء والكلأ، وكانوا يطلقون على هذا الصبر عن الماء والكلأ لفظ الصيام.

قال بشر بن أبي خازم، وهو جاهلي:

أَتُوعِدُنِي بقَوْمِكَ يا ابنَ سُعْدَى ... وما بَيْنِي وبَيْنَكَ مِن ذِمامِ
متَى ما أَدْعُ في أَسَدٍ تجِبْني ... مُسَوَّمَةٌ على خَيْلٍ صِيامِ[1]

وقال بشر:

وما تَسْعَى رِجالُهُمُ ولكِنْ ... فُضُولُ الخَيْلِ مُلْجَمَةٌ صِيامُ[2]

وقال مزرّد، أخو الشماخ:

وعندي إِذا الحَرْبُ العَوانُ تَلقَّحتْ ... وأَبْدَتْ هَوَادِيها الخطُوبُ الزَّلازِلُ
طُوَالُ القَرَاقدْ كادَ يَذهَبُ كَاهِلاً ... جَوادُ المَدَى والعَقْبِ والخَلْقُ كامِلُ
أَجَشُّ صرِيحِيٌّ كأَنَّ صَهِيلَهُ ... مَزَامِيرُ شَرْبٍ جاوَبَتْها جَلاجِلُ
متى يُرَ مَرْكُوباً يُقَلْ بازُ قانِص ... وفي مَشْيِهِ عندَ القِيادِ تَسَاتُلُ
تقولُ إذا أَبْصرتَهُ وهْوَ صائمٌ ... خِبَاءٌ على نَشْزٍ أَوِ السِّيدُ ماثِلُ
خَرُوجُ أَضَامِيمٍ وأَحْصَنُ مَعْقِلٍ ... إِذا لم تكنْ إلاَّ الجِيادَ مَعَاقِلُ
مُبرِّزُ غاياتٍ وإِنْ يَتْلُ عانَةً ... يَذَرْها كَذَوْدٍ عاثَ فِيها مُخَايِلُ[3]

وقال النابغة الذبياني:

خيلٌ صيامٌ، وخيلٌ غيرُ صائمةٍ ... تحتَ العجاجِ، وأُخرى تعلُكُ اللُّجُما[4]

---

(١) الحماسة البصرية: ١/ ٢٦٩
(٢) ديوان المفضليات، ص: ٦٥٦
(٣) نفس المصدر، ص: ١٦٤-١٦٦
(٤) ديوان النابغة الذبياني: ١/ ١٢٥

فالخيل الصيام هي التي أعدّت للحرب. وكانوا يحبسونها على غير مرعى، ولا علف لمدة، ثم يسقونها ويعلفونها، ثم يحبسونها، ثم يعلفونها، ويزيدون مدة الحبس يوماً فيوماً، حتى يذهب رَهَلُها، ويشتدّ لحمها، وحتى تصبح الخيل صلبة، ضامرة، صابرة على الجوع والظمأ، وقوية على لأواء الحرب، وإن طالت ما طالت، واشتدت ماشتدت!.

قال الفراهي:

استعمل (في الآية) لفظ التقوى؛ لأنه كان أقرب شيء لحقيقة الصوم، ولعلمهم به، فإنهم كانوا يعوّدون أفراسهم وآبالهم الصبر عن الماء والكلأ، لكي يقوّوها، ويدرّبوها على الصبر عند الشدائد، وكانوا يصفونها بالصيام، كما كانوا يعوّدون أفراسهم استقبال الريح، فإنه كان من أكبر حاجاتهم عند السير أو الحرب، إذ كانت الريح تسفي التراب في وجوههم. وقد ذكر جرير هذين الأمرين في بيت له:

ظَلِلْنَا بِمُسْتَنِّ الحَرُورِ، كَأَنَّنَا لدى فرسٍ مستقبلِ الريحِ صائمِ

والأشعار في بيان صوم الفرس كثير.[1]

فإذا كان العرب يعرفون الصيام، قبل أن يأتيهم حكم الصيام، وكانوا يدركون فوائد الصيام، وكانوا يعوّدون خيولهم، وآبالهم ذلك الصيام، فما وجه القول إذاً بأن الصيام شق على المسلمين، حينما نزل رمضان؟

كان الصحابة منهومين بالصيام:

وبالعكس من ذلك نرى أصحاب رسول الله منهومين بالصيام، فهم لا يقتصرون على صيام شهر رمضان، بل يحبون ألا تطلع عليهم شمس يوم إلا وهم صائمون!

---

(١) مفردات القرآن للفراهي: ١/ ٣٦٤

يشهد بذلك ما رواه البخاري: حدثنا موسى حدثنا أبوعوانة عن مغيرة عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال: أنكحني أبي امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كنته فيسألها عن بعلها فتقول : نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشاً ولم يفتش لنا كنفاً مذ أتيناه فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي ﷺ فقال (القني به). فلقيته بعد فقال (كيف تصوم). قلت : كل يوم، قال : (وكيف تختم). قلت كل ليلة قال (صم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر). قال قلت: أطيق أكثر من ذلك قال (صم ثلاثة أيام في الجمعة). قلت : أطيق أكثر من ذلك قال : (أفطر يومين وصم يوماً). قال : قلت: أطيق أكثر من ذلك قال (صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وإفطار يوم واقرأ في كل سبع ليال مرة). فليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ وذاك أني كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذي يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام أياماً مثلهن كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي ﷺ.[1]

وروى مسلم أيضاً نحوه، فقال: حدثنا يحيى بن يحيى التميمي وقتيبة بن سعيد جميعاً عن حماد - قال يحيى أخبرنا حماد بن زيد - عن غيلان عن عبد الله بن معبد الزماني عن أبي قتادة رجل أتى النبي ﷺ فقال كيف تصوم فغضب رسول الله ﷺ فلما رأى عمر - رضي الله عنه - غضبه قال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله. فجعل عمر - رضي الله عنه - يردد هذا الكلام حتى سكن غضبه فقال عمر: يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر كله قال: «لا صام ولا أفطر - أو قال - لم يصم ولم يفطر». قال : كيف من يصوم يومين ويفطر يوماً قال: «ويطيق ذلك أحد». قال: كيف من يصوم يوماً ويفطر يوماً قال: «ذاك صوم داود عليه السلام».

---

(١) صحيح البخاري، باب في كم يقرأ القرآن: ٣/ ٤٣٣/ ٥٠٥٢

قال: كيف من يصوم يوماً ويفطر يومين قال: «وددت أني طوقت ذلك».[1]

وبالجملة، فالغفلة عن معنى الإطاقة، مع الغفلة عن أسلوب الآية أوقعت الناس في تكلف وتعسف في تأويل الآية، فما تأويلها في ضوء أسلوبها إذاً؟

تأويل (وعلى الذين يطيقونه فدية):

قال ابن جرير، وهو يذكر الوجوه الواردة في تأويلها:

وقد زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أنّ معنى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾، وعلى الذين يطيقون الطعام. وذلك لتأويل أهل العلم مخالفٌ.[2]

وقال الفراء: الضمير في «يطيقونه» يجوز أن يعود على الصيام، أي وعلى الذين يطيقون الصيام أن يطعموا إذا أفطروا، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ ويجوز أن يعود على الفداء، أي وعلى الذين يطيقون الفداء فدية.[3]

وقال ابن عطية: والضمير في (يطيقونه) عائد على الصيام، وقيل على الطعام، وهو قول ضعيف.[4]

شبهات وإجابات:

ولعل هذا الوجه الثاني، الذي ذكره المفسرون، ولم يعيروه اهتماماً، وحكموا عليه بالضعف، بدون أن يحدّدوا وجه الضعف، لعله أقرب شيء في تأويل الآية، فكلما تدبرناه، وجدناه متيناً، لا يستوجب هذا الحكم.

أقصى ما يقال فيه ما قاله الجصاص، حيث قال:

«وقوله تعالى: وعلى الذين يطيقونه قد اختلف في ضمير كنايته فقال قائلون:

---

(١) صحيح مسلم، باب استحباب صيام ثلاثة: ٣/ ١٦٧/ ٢٨٠٣

(٢) تفسير الطبري: ٣/ ٤٣٨

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ٢٨٨

(٤) المحرر الوجيز: ١/ ٤٤١

هو عائد على الصوم، وقال آخرون: إلى الفدية، والأول أصح لأن مظهره قد تقدم والفدية لم يجر لها ذكر والضمير إنما يكون لمظهر متقدم ومن جهة أخرى أن الفدية مؤنثة والضمير في الآية للمذكر في قوله يطيقونه.»[1]

وما احتج به الجصاص لا يغض من قيمة هذا التأويل، فإن عود الضمير إلى متأخرلم يتقدم له ذكر، ليس بدعاً، ولا عيباً في الكلام، ولاسيما إذا كان ذلك المتأخر مقدماً في الرتبة، وله شواهد في القرآن، وفي كلام العرب، فمنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ (سورة طه: ٦٧).

ومنه قولهم: في بيته يُؤتى الحكم[2]

ومنه قول النابغة الذبياني:

جزى ربُّهُ عني عديّ بن حاتمٍ   جزاءَ الكِلابِ العاوياتِ، وقد فعل[3]

وقال جَزْءُ بن ضِرار أخو الشماخ، وهو شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام:

أَتاني فَلَمْ أُسْرَرْ بِهِ حِينَ جَاءَنِي   حَدِيثٌ بِأعْلى القُنَّتَيْنِ عَجِيبُ[4]

وأما قوله: «إن الفدية مؤنثة، والضمير في الآية للمذكر في قوله: يطيقونه.»

فنظيره قوله تعالى، قبل هذه الآية بآيتين، حيث قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ. فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.﴾ (طه: ١٨٠- ١٨١)

---

(١) الجصاص، أحكام القرآن: ١/ ٢٢٢

(٢) المستقصى في أمثال العرب: ٢/ ١٨/ ٦٢٠

(٣) ديوان النابغة الذبياني: ١/ ١١٤

(٤) أبو تمام، ديوان الحماسة: ١/ ٩٤

فإن صح أن يرجع ضمير المذكر في قوله تعالى: (فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ) إلى الوصية، فأيّ إشكال في رجع ضمير المذكر في (يُطِيقُونَهُ) إلى (فِدْيَةٌ)؟

وأما قول ابن جرير: «وذلك لتأويل أهل العلم مخالف.» فهي دعوى لا تساندها بينة، وحكم لا يعضده دليل.

وهل هناك تأويل موحّد مجمع عليه عند أهل العلم، حتى يقال لغيره: إنه لتأويل أهل العلم مخالف؟

وإذا جاز أن تكون هناك أربعة وجوه في التأويل، وهي كلها ليست مخالفة لتأويل أهل العلم، فلماذا لا يجوز أن يكون هناك وجه خامس، أوسادس؟

وإذا كان هذا الوجه يعتمد على دليل علمي متين، فكيف يعتبر مخالفاً لتأويل أهل العلم؟

أحكم شيء في هذا الباب:

ولقد قلّبنا هذا التأويل ظهر البطن، وضربنا عينه ووجهه، فوجدناه أحكم شيء في هذا الباب.

وبيانه أنه يحق على الذين يطيقون الطعام، وهم الأغنياء الموسرون، يحق عليهم أن يضمّوا إلى الصيام إطعام مسكين. فهم مطالبون بالصيام، ومطالبون في نفس الوقت بإطعام مسكين.

ولعل ابن شهاب أيضاً كان يرى نفس الرأي، حيث روى ابن جرير عنه، قال:

حدثني المثنى قال، حدثنا أبو صالح قال: حدثني الليث قال، أخبرني يونس، عن ابن شهاب: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾، يريد أن من صامَ مع الفدية فهو خير له.[1]

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٤٤٢

ومن هنا قال عليه السلام عن رمضان: «إنه شهر المواساة.»[1]

وكان، عليه الصلاة والسلام، أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان.[2]

وكان عليه الصلاة والسلام، يرغب الناس في هذا الشهر في الإنفاق، وكان يحثهم على الجود والمواساة، وإطعام الطعام، مستخدماً فيه مختلف الأساليب، فكان يقول- مثلاً -:

«من فطّر صائماً كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً».[3]

إلى غير ذلك من عشرات الأحاديث التي وردت في هذا الباب.

ولعل الحكمة في الحث على إطعام المسكين، مع الحث على إكمال الصيام، أن هذا الإطعام سيكون عوناً للصائم على القيام بمهمة الصيام أحسن قيام، ويهيئ نفسه لاستقبال الخيرات والبركات، التي يفيض بها شهر رمضان.

فأُمر المؤمنون أولاً أن يصوموا أياماً معدودات، وأمروا أن يكملوا عدة الصيام، ثم خص الأغنياء منهم بأمر آخر، وهو أن يضموا إلى الصيام إطعام مسكين، فهذا كما يعدّهم لتلقي النفحات الإلهية في رمضان، ويعدّهم للاستكثار منها، فكذلك يساعد إخوانهم المعدمين، ويقويهم على صيام رمضان.

وهذا أمر دون أمر، وليس كالأمر الأول كما لا يخفى.

وعلى هذا، فتلك الآية محكمة باقية بحكمها، غير منسوخة، كما ذهب إليه فريق من العلماء.

---

(١) صحيح ابن خزيمة، باب فضائل شهر رمضان: ٣/ ١٩١/ ١٨٨٧

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب كان النبي أجود الناس بالخير: ٧/ ٧٣/ ٦١٤٩

(٣) سنن الترمذي، فضل من فطّر صائما: ١/ ٥٦٧/ ٨٠٧

واجب دون واجب:

وهنا يثور سؤال: إن كان هذا الحكم محكماً باقياً، فلماذا لم يكرر مثلما كرر حكم إكمال العدة؟

نقول: إن هناك فرقاً بين الواجبين، فإن الكلام هنا مركز على واجب الصيام، وهو الموضوع الرئيس في تلك الآيات، بخلاف واجب الإطعام، فإنه ألحق به إلحاقاً، ليكون عوناً على أداء واجب الصيام، وليهيئ النفس للقيام به أحسن قيام.

فهو واجب إضافي، وليس واجباً كواجب الصيام.

فأراد السياق أن ينبّه بنظمه إلى هذا الفرق، كما أراد أن يركّز على ما هو أثقل على النفس وأشقّ.

قرنت آيات الصيام بآيات القتال!

ولننظر إلى الآيات من ناحية أخرى، وهي أن القرآن قرن الصيام بالقتال، حيث جاءت آيات الصيام، وما يتعلق به من أحكام، ثم جاءت آيات القتال في سبيل الله:

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٠-١٩٣)

فأتبع الله آيات الصيام آيات القتال، كأن المؤمنين ماكُتب عليهم الصيام إلا لتربيتهم وإعدادهم لمعارك الجهاد، والمؤمنون كانوا يدركون هذا السرّ جيداً، فإنهم كانوا يعرفون أبعاد الصيام، وكانوا يفعلون ذلك بخيولهم وآبالهم، إذا أرادوا القتال.

فإذا كانت فريضة الصيام لإعداد المسلمين لمعارك الجهاد، فهل يتمّ هذا الإعداد،

إن رخّص لهم أن يصوموا، أولا يصوموا، وإذا لم يصوموا فليفتدوا بإطعام المساكين؟

وهل يتمّ لهم هذا الإعداد، إذا رخص لهم أن يفطروا كلما جاء هم سعال أو زكام، أو أصابهم جرح خفيف في إصبع. أو كلما خرجوا في سفر، ولو كانوا في سفرهم أحسن حالاً، وأنعم بالاً، وأكثر راحة مما يكونون في بيوتهم؟

وبالجملة فالغفلة عن صحيح معاني الكلمات، وعن دقيق أسلوب الكلام يبعد الباحث عن جادّة الطريق، ويجرّه إلى تكلُّفٍ وتعسف في تأويل الآيات، وبالتالي يجرّه إلى أخطاء فادحة كبيرة.

ولذلك نرى جهابذة المفسرين ينبهون إلى أهمية أساليب الكلام في تأويل الآيات، وإن كانوا يغفلون عنها أحياناً من جرّاء روايات غير محقّقة، تنقصها الصحة والدقة.

مثال آخر:

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٧٢-٧٣)

ما قيل في تأويل الآيتين:

قال ابن الجوزي:

(وإذ قتلتم نفساً) هذه الآية مُؤخَّرةٌ في التلاوة، مُقدَّمة في المعنى، لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس، فتقدير الكلام: وإذ قتلتم نفساً فادّارأتم فيها، فسألتم موسى فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ ونظيرها قوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا ﴾ أراد: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً، فأخّرَ المقدم وقدم المؤخر، لأنه من عادة العرب.

وقال رحمه الله:

من قال: أقاموا في طلبها أربعين سنة؛ قال: ضربوا قبره، ومن لم يقل ذلك، قال: ضربوا جسمه قبل دفنه. وفي الذي ضرب به ستة أقوال.

وفي الكلام اختصار تقديره: فقلنا: اضربوه ببعضها ليحيا، فضربوه فحيي، فقام فأخبر بقاتله.[1]

تنبيهٌ على ما فيه من تكلّف:

ونرى جماعة المفسرين يحومون حول هذا التاويل، مع ما فيه من تكلف شديد! وإلا فما يدريهم أن في الآيات تقديما وتأخيرا، وأن قصة ذبح البقرة كانت متأخرة مع تقدمها في النظم الحكيم؟ وما يدريهم أن قصة قتل النفس كانت متقدمة مع تأخرها في النظم الحكيم؟

ثم ما يدريهم أن الأمر بذبح البقرة كان لإحياء ذلك القتيل؟ وهل يحيي الله القتيل بالبقرة؟ وماذا في البقرة حتى يحيي الله بها؟ وهل يُحيي الله بالبقرة أمام قوم كانوا مفتونين بها، وكانوا يقدّسونها، كدأب المشركين في كل زمان؟

وإذا كان بنوإسرائيل قد أُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، فإحياء القتيل به يكون تثبيتاً لهم على عبادة العجل أم يكون ترشيداً لهم إلى عبادة الله؟

ثم المعهود في (إذ) أنها تفصل الكلام الذي بعدها عن الذي قبلها فصلاً، وتجعلهما مستقلين في ضمائرهما حيث لا يرجع ضمير ما بعد (إذ) إلى ما قبلها، وعلى هذا فلا يصح إرجاع ضمير ورد في قصة القتيل، إلى مرجع ورد في قصة ذبح البقرة.

وتلك الأمور التي تحمل الباحث على القول بأن ما ذهبوا إليه في تأويل تلك الآيات لا يخلو من تكلف، بل فيه تعسف شديد.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير- سورة البقرة: ٧٢-٧٣

تأويل تلك الآيات:

ولسائل أن يسأل هنا: فما تأويل تلك الآيات؟ بعيداً عن تلك الإشكالات!

نقول: ذاك التأويل ليس بعيداً عنا بإذن الله، فالتأمل في سياق الآيات يرشدنا إلى أنهما قصتان مستقلتان، لا يرجع بعضهما إلى بعض، وكلاهما حجتان واضحتان على تلاعب اليهود بكتاب الله، واستخفافهم بأوامر الله.

فمما لا يخفى أن بني إسرائيل قد أشربوا في قلوبهم العجل، وكان ذلك حجر عثرة في طريقهم إلى الله، وكان يصرفهم عن التمسك بكتابه، والخضوع لأوامره. ولقد أشار القرآن في نفس السورة إلى هذا الواقع المخزي:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٩٣).

ولم يكن لهذا المرض العضال علاج إلا أن يُؤمروا بذبح بقرة، فأُمروا به، وكان الأمر جدّاً، ولكنهم أخذوه مأخذ الهزل، وأحرجوا نبيّهم بأسئلتهم العابثة.

وبعد ردّ وكدّ ومِطال طويل ذبحوا البقرة، وكأنهم لم يذبحوها، فإن هذا الذبح لم يكن عن حب وخشوع وتوقير لله، ولم يكن في أوانه وفور سماع أمره، ففقد روحه، وفقد قيمته.

وعلى هذا فلم يكن هذا الذبح تنفيذاً وامتثالاً لأمر الله، وإنماكان استهزاء وسَخراً وتلاعباً بكتاب الله!

وأما القصة الأخرى فهي أيضاً دليل على تلاعبهم بكتاب الله، واستخفافهم بأوامر الله، وبيانه أنه حدث فيهم قتل إجراميّ شنيع، فجعل كل شخص منهم يدرأ عن نفسه التهمة، ويلقيها على غيره، فالذي عرف القضية، أو تَلبَّسَ بها أرخى عليها سدول الكتمان، بأن صرفها إلى غيره، والذي لم يعرفها رأى العافية في البعد منها، والتشاغل عنها، واكتفى بدرء التهمة عن نفسه!

وكل ذلك كان من حالات الهزل، فقد كان من واجبهم أن يفضحوا القاتل بدون مواربة ولا محاباة، وكان من واجبهم أن يساعدوا نبيهم في تطبيق قانون القصاص، الذي كان مفروضاً عليهم في التوراة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك.

فلما كان منهم تواطؤ فظيع على كتمان الجريمة، كان من مشيئة الله أن يفضح أمرهم، ففضحهم بأن أظهر نبيّه على اسم القاتل المجرم، وأمره بأن يقول لهم: اضربوا هذا الرجل ببعض تلك النفس المقتولة!

فلما فُعل ذلك، أي: ضُرب ذلك الرجل ببعض تلك النفس المقتولة، سواء ضُرب بيده، أم ضرِب برجله، دبّت الحياة فيها، فنطقت وشهدت بأن هذا الشخص الماثل أمامها هو الذي قتلها!

وبذلك كانت الفضيحة! وافتضحت المؤامرة المشؤومة ضد كتاب الله!

مثال ثالث:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه:

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (سورة البقرة: ١٩٦).

مفهوم التمتع بالعمرة:

قال الفخر الرازي:

«والمتمتع بالعمرة إلى الحج هو أن يقدم مكة فيعتمر في أشهر الحج، ثم يقيم بمكة حلالاً ينشئ منها الحج، فيحج من عامه ذلك، وإنما سمي متمتعاً لأنه يكون مستمتعاً بمحظورات الإحرام فيما بين تحلله من العمرة إلى إحرامه بالحج...

قوله تعالى ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ ﴾ أي فمن يتمتع بسبب العمرة فكأنه لا يتمتع بالعمرة ولكنه يتمتع بمحظورات الإحرام بسبب إتيانه بالعمرة، وهذا هو معنى التمتع بالعمرة إلى الحج.»[1]

هذا المفهوم الذي ذكره الرازي للتمتع بالعمرة إلى الحج، فيه تكلف شديد، فالمتمتع بالعمرة يتمتع بخيراتها المعنوية، وبركاتها الروحانية، ولا يتمتع بمحظورات الإحرام، فمحظورات الإحرام لها وقت واسع بعد الانتهاء من الحج والعمرة، والمؤمن لا يخرج من بيته للاستمتاع بمحظورات الإحرام، ولا يفكر فيه، وإنما يكون همّه الأول والآخر أن يستكثر من بركات الحج الأصغر، كما يحرص على بركات الحج الأكبر.

وقال الفخر الرازي:

قوله: (ذالِكَ) إشارة إلى ما تقدم وأقربُ الأمور المذكورة ذكر ما يلزم المتمتع من الهدي وبدله، وأبعد منه ذكر تمتعهم فلهذا السبب اختلفوا، فقال الشافعي رضي الله عنه: إنه راجع إلى الأقرب وهو لزوم الهدي وبدله على المتمتع أي إنما يكون إذا لم يكن المتمتع من حاضري المسجد الحرام فأما إذا كان من أهل الحرم فإنه لا يلزمه الهدي ولا بدله، وذلك لأن عند الشافعي رضي الله عنه هذا الهدي **إنما لَزِمَ الآفاقيَّ لأنه كان من الواجب عليه أن يحرم عن الحج من الميقات فلما أحرم من الميقات عن العمرة ثم أحرم عن الحج لا من الميقات فقد حصل هناك الخلل فجعل مجبوراً بهذا الدم** ، والمكيُّ لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فإقدامه على التمتع لا يوقع خللاً في حجه فلا جرم لا يجب عليه الهدي ولا بدل.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: إن قوله (ذالِكَ) إشارة إلى الأبعد وهو ذكر التمتع وعنده لا متعةَ ولا قِرانَ لحاضري المسجد الحرام، **ومن تمتع أو قرن كان عليه دم هو دم جناية لا يأكل منه.**[2]

---

(١) مفاتيح الغيب–سورة البقرة :٥/ ٣٠٧-٣٠٨
(٢) مفاتيح الغيب – سورة البقرة: ٥/ ٣١٢

كلام لا يخلو من تكلف:

هذا الكلام - مثل سابقه- لا يخلو من تكلف، والأمر كان يحتاج إلى تأنٍّ أكثر وتأمل أطول، وإلا فما الدليل على أنه كان من الواجب على الآفاقي أن يحرم عن الحج من الميقات، فلما أحرم من الميقات عن العمرة، ثم أحرم عن الحج لا من الميقات فقد حصل هناك الخلل فجعل مجبوراً بهذا الدم؟

هذا التفريق بين الحج والعمرة تفريق غير وجيه، فالعمرة أيضاً من الحج، وليست مغايِرَةً للحج، وإذا كانت تلك العمرة في أشهر الحج قبل الحج، فهي تهيئ المعتمر نفسياً لأداء الحج، وتجعله أقدر على أدائه بتلك الروح العالية الصافية التي تشحنه بشحنات الإيمان، وتجعله من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

والعمرة من الحج مثل النافلة من الفريضة، فلو توضأ إنسان للفريضة، وصلى بذلك الوضوء النافلة قبل الفريضة، فهل يعتبر ذلك خللاً في الفريضة؟ وهل يحتاج ذلك الخلل إلى شيء يجبره؟!

ولو سعى إنسان إلى صلاة الجمعة، وقبلها صلى ركعتي السنة أو زاد على الركعتين، فهل يقال: كان على الرجل أن يسعى إلى صلاة الجمعة، ولكنه حينما صلى قبلها ركعتي السنة، صار ذلك السعي لركعتي السنة، وبقيت الخطبة والفريضة بدون سعي، فحصل هناك الخلل، ولا بد لهذا الخلل مما يجبره؟!

وأما القول الذي يُعزى إلى الإمام أبي حنيفة، وهو: (ومن تمتع أو قرن كان عليه دم هو دم جناية لا يأكل منه.) فهو أيضاً قول يعوزه الدليل، فالذي يحجُّ حجَّ قران، أو حج تمتع، ولو كان من حاضري المسجد الحرام، لا يعتبر جانياً، ولا يجب عليه دم جناية أبداً، ولا نظنّ ذلك مما ترمي إليه تلك الآيات.

فتلك العبارة وأمثالها تعطينا عن حجّ التمتع فكرة لا تكاد تتلاءم مع تلك التي يستقيها الباحث من القرآن مباشرة!

فهي تصور لنا حجّ التمتع، وكأنه تقصير وإساءة وجناية، والهدي الذي يتقرب به المتمتّع، إنما هو جبر لذلك التقصير، أو غرامة استوجبتها تلك الجناية!

حج التمتع أفضل من حج الإفراد:

بينما التأمل في سياق الآيات يقذف في روع الدارس أن حج التمتع أفضل من حج الإفراد.

وليكن في بالنا أن التمتع في النص القرآني يشمل حج القران،كما يشمل حج التمتع في اصطلاح الفقهاء، فالقران ليس إلا صورة من صور التمتع، كما أن التمتع ليس إلا صورة من صور القران.

هذا، وإن النظم القرآني يرشدنا إلى أكثر من ذلك، فالأمر لا يقف عند الأفضلية فقط، بل يفيد السياق أن حج التمتع- وهو يشمل حج القران- يكاد يكون كمِثْلَيْ حج الإفراد!

وتلك فضيلة ومكرمة أُكرِم بها الآفاقي، دون جيران المسجد الحرام، وذلك تقديراً للمشاق التي يكابدها الآفاقيّون، والصعوبات التي يتحملونها في سفرهم، والنفقات الباهظة التي ينفقونها في طريقهم إليه.

لوامع من نظم الكلام:

وتلك النكتة تكون جلية واضحة إذا وضعنا في بالنا الأمور الآتية:

الأمر الأول:

اختار السياق للجمع بين الحج والعمرة لفظ (التمتع)، ولا يخفى ما في هذا اللفظ في مثل هذا السياق من روعة وعذوبة وحلاوة.

الأمر الثاني:

ثم أرشدالمتمتع أن يتقرب بالهدي، ولم يأت السياق لأداء هذا المعنى بعبارة تحمل معنى الإيجاب، بل جاء بعبارة لطيفة رقيقة سمحة: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ وتلك العبارة كما تحمل توجيهاً لتقديم الهدي، فكذلك تومئ إيماء إلى الغاية المنشودة من هذا الهدي، وهي تكميل المتاع الذي أراده المتمتع بالعمرة إلى الحج، فهذا الهدي يجبر ذلك النقصان، أو بعبارة أدق: يغطي ذلك الفرق الذي يوجد بين الحج والعمرة، وهكذا ترتفع العمرة إلى درجة الحج، فتجتمع للمتمتع أو القارن حجتان في حجة واحدة.

الأمر الثالث:

جاء التوجيه لمن لم يجد الهدي، أن يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة أيام إذا رجع إلى أهله، ثم جاء تذييل حلوٌ لطيف: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

ولا يخفى على المتذوق الفطن ما تحمل لفظة: (كاملة) في هذا السياق من حلاوة أيّ حلاوة! كأن السياق ينادي بلسانه: أَلَّا تحسبوا تلك العشرة هيّنة، فإنها تتسم بالكمال، وتصلح لأن تكون سلّماً إلى الكمال، وتكمل ما ينقص العمرة حتى ترتقي إلى درجة الحج!

الأمر الرابع:

ثم جاء في ختام الحديث: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾

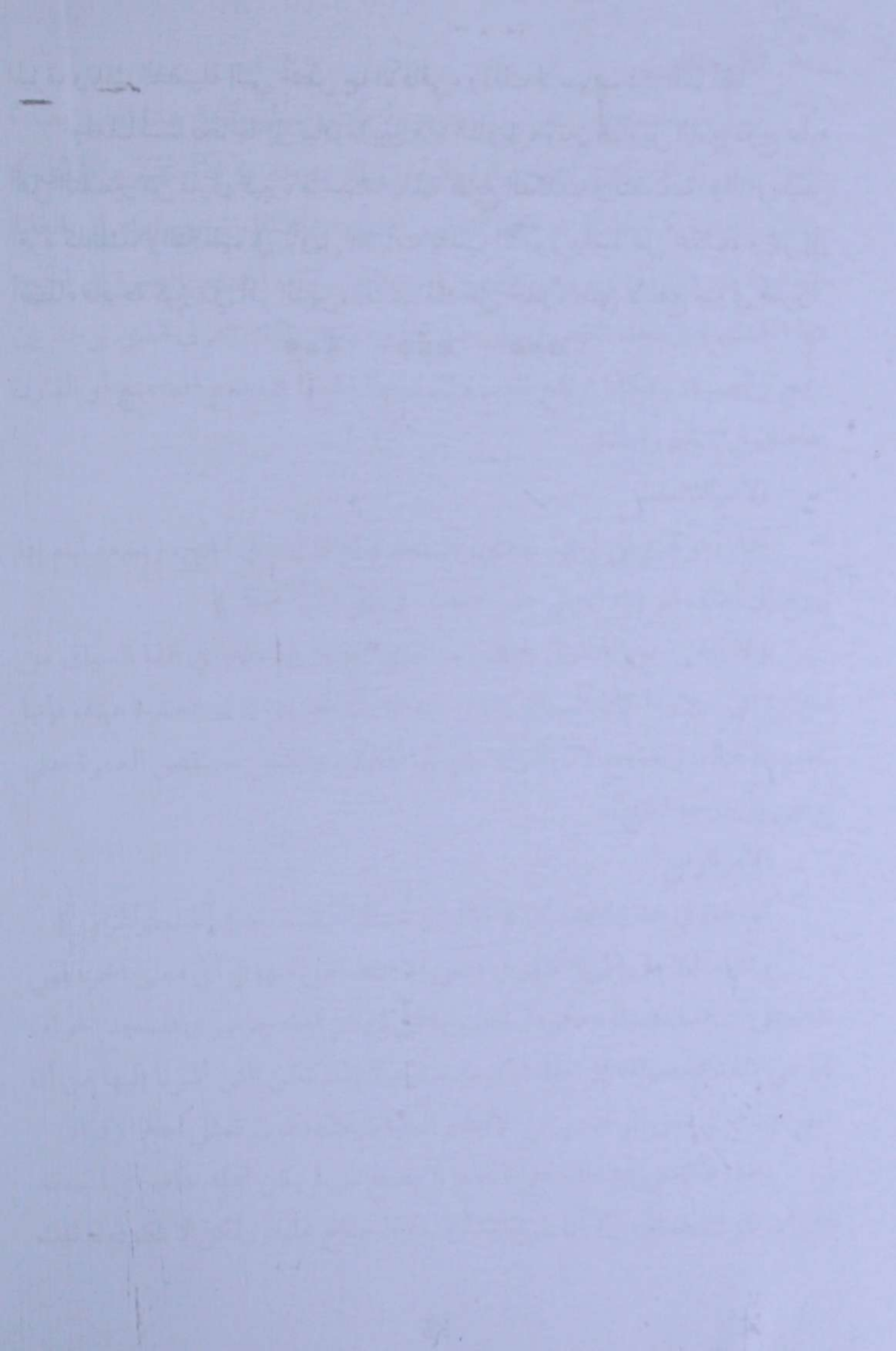
وتلك اللام في (لمن) أظهر في معنى الاختصاص منها في أيّ معنى آخر، فهي تدل على أن هذه فضيلة ومكرمة خُصّ بها من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فما هي تلك الفضيلة، أو تلك المكرمة يا ترى؟ إذالم تكن التي أشرنا إليها من أن حج التمتع في حق الوافدين من الأقطار البعيدة يكاد يكون كمثلي حج الإفراد.

وهذا لا يعني أبداً أن حج التمتع لا يصحّ لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام، فله أن يتمتع، وله أن يقرن إذا أراد، ولا جناح عليه، ولكن لا تكون له تلك

الميزة، وتلك الفضيلة التي خُصّ بها الآفاقي، وذلك لأسباب ذكرناها آنفاً.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى بيان ما بين هذا التأويل، وبين التأويل الذي درج عليه أهل التفسير من فارق كبير، فأحدهما يغلبه طابع التكلف والتعسف، والثاني ليس أمره كذلك، والتكلف في تأويل الآيات يقلب الأمور رأساً على عقب، ويجرّ إلى أخطاء فادحة كبيرة في أمر الدين، فلنكن منه على حذر، حتى لا نقع منه في ضرر.

*** *** ***



الضابط الثالث

لا يقبل إلا ما كان أقرب لحسن التأويل

إذا كانت الآية تحتمل وجوها كثيرة، أو وجوها متعددة من المعاني، لم يؤخذ منها إلا ما كان أقرب لحسن التأويل، وأليق بعظمة كتاب الله، وأوفق لنظام السورة وعمودها.

أقوال في تأويل: (وانحَرْ):

نأخذ، مثلاً، قوله تعالى في سورة الكوثر ﴿وَٱنْحَرْ﴾:

قال ابن الجوزي: في قوله تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ خمسة أقوال.

أحدها: اذبح يوم النحر، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال عطاء، ومجاهد، والجمهور.

والثاني: وضع اليمين على اليسرى عند النحر في الصلاة.

والثالث: أنه رفع اليدين بالتكبير إلى النحر، قاله أبو جعفر محمد بن علي.

والرابع: أن المعنى: صَلِّ لله، وانحر لله، فإن ناساً يصلون لغيره، وينحرون لغيره، قاله القرظي.

والخامس: أنه استقبال القبلة بالنحر، حكاه الفراء.[1]

وزاد ابن كثير إلى تلك الأقوال، قولاً عن عطاء الخراساني، قال: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: ارفع صُلبكَ بعد الركوع واعتدل، وأَبرز نحرك، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم.[2]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، سورة الكوثر

(٢) تفسير ابن كثير، سورة الكوثر، ٨/ ٥٠٣

الراجح من تلك الأقوال:

تلك احتمالات ذكرها المفسرون رحمهم الله في تأويل الآية، فما هو الصحيح الراجح منها؟

يميل الإمام ابن كثير، ومال قبله الإمام ابن جرير، إلى القول الرابع مما ذكره الإمام ابن الجوزي، وعزاه إلى القرظي، وهو قوله:

"إن المعنى: صل لله، وانحر لله، فإن ناساً يصلون لغيره، وينحرون لغيره."

وليس هذا الميل وهذا الترجيح إلا على أساس حسن التأويل، وموافقته لنظم السورة وسياقها، وكونه أقرب لعظمة الكلام.

وبيانه: أن الله تعالى ذكر في سورة الفيل قصة هلاك أصحاب الفيل، الذين توجهوا إلى مكة ليهدموا الكعبة المشرفة، ذكر هذه القصة ليعظ قريشاً عن سوء تصرفاتهم، وسوء موقفهم من الكعبة، فإنهم قد نسوا غايتها، ونسوا رسالتها، وأبعدوها عن أهدافها.

ثم جاءت سورة قريش موعظة لهم، وتذكيراً بواجبهم، ألا يغتروا بالنعم والرفاهية التي يتقلبون فيها، وليتذكروا أن هذه النعمة والرفاهية ليست إلا فيضاً من فيوض الكعبة، حيث يغدون ويروحون آمنين في أسفارهم ورحلاتهم، وينالون ممن يمرون بهم في طريقهم الكرامة والضيافة، وليس ذلك إلا لكونهم جيران الكعبة.

هم يتمتعون بذلك الأمن والاستقرار في حين أن الجزيرة كلها تفقد الأمن والاستقرار، والأسفار في أرجائها محفوفة بالأخطار، فإن لم يراعوا حرمتها، ولم يعودوا إلى رسالتها وأهدافها، فلينتظروا أن يصيبهم الله بمثل ما أصاب به أصحاب الفيل!

ثم جاءت سورة الماعون تصب عليهم وابل الويل والشقاء، فإنهم كذبوا بيوم الدين، ولم يعبدوا ربهم، ولم يحافظوا على صلاتهم، نعم، هم يصلون، ولكنهم عن

صلاتهم ساهون.

وليس ذلك فحسب، بل قست قلوبهم وقست، حتى تراهم يدعّون اليتيم، ويمنعون الماعون، ولا يحضّون على طعام المسكين.

وهكذا هدّموا العمودين اللذين رُفعت عليهما قواعد البيت، وهما الصلاة والزكاة، أو التوحيد والمواساة، أو إخلاص الحب لله وإكرام اليتيم، والمسكين.

ثم جاءت سورة الكوثر، جاءت تحمل البشرى إلى رسول الله وأصحابه أنهم نُقِلت إليهم أمانة الكعبة، بعد ما نُزعت من هؤلاء الخونة، فليفرحوا بهذا الشرف الأكبر، وليستبشروا بهذا الخير الكوثر، وليكونوا دائماً عند واجبهم وعند مسؤوليتهم نحوها، فلتكن صلاتهم خالصة لله، ونحرهم للبُدْن أو الأنعام خالصاً لله، بريئاً من الشرك والرياء. خلافاً لما كانت عليه طواغيت قريش، وذلك كما ورد في موضع آخر:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

فلننظر إلى ما في هذا التأويل من الحسن والروعة، والسموّ والعظمة، ولننظر إلى موافقته لنظم السورة وجوّها، وموافقته لما بين يديها وما خلفها موافقة واضحة، والحمد لله.

مثال آخر:

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٢-١٦٣

ﵟتِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ۝٤٩ﵞ (الأعراف: ٤٤-٤٩).

من أصحاب الأعراف؟

قال ابن الجوزي وهو يفسر تلك الآيات:

«في «أصحاب الأعراف» قولان: أحدهما: أنهم من بني آدم، قاله الجمهور. وزعم مقاتل: أنهم من أُمة محمد ﷺ خاصة. وفي أعمالهم تسعة أقوال:

أحدها: أنهم قوم قُتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصيةُ آبائهم، ومنعهم من دخول النار قتلهم في سبيل الله، وهذا مروي عن النبي ﷺ.

والثاني: أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم تبلغ حسناتهم دخول الجنة، ولا سيئاتهم دخول النار، قاله ابن مسعود، وحذيفة، وابن عباس، وأبو هريرة، والشعبي، وقتادة.

والثالث: أنهم أولاد الزنا، رواه صالح مولى التوأمة عن ابن عباس.

والرابع: أنهم قوم صالحون فقهاء علماء، قاله الحسن، ومجاهد؛ فعلى هذا، يكون لُبثُهم على الأعراف على سبيل النزهة.

والخامس: أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أُمهاتهم، أو أُمهاتهم دون آبائهم، رواه عبد الوهاب بن مجاهد عن إبراهيم.

والسادس: أنهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدِّلوا دينهم، قاله عبد العزيز بن يحيى.

والسابع: أنهم أنبياء، حكاه ابن الأنباري.

والثامن: أنهم أولاد المشركين، ذكره المنجوفي في تفسيره.

والتاسع: أنهم قوم عملوا لله، لكنّهم راؤوا في عملهم، ذكره بعض العلماء.

والقول الثاني: أنهم ملائكة، قاله أبو مجلز، واعتُرض عليه، فقيل: إنهم رجال فكيف تقول: ملائكة؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث.

وقيل معنى قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: على معرفة أهل الجنة من أهل النار، ذكره الزجاج، وابن الانباري. وفيه بُعد وخلاف للمفسرين.»[١]

ما مال إليه أهل التأويل:

تلك مذاهب الناس في المراد بأصحاب الأعراف، فأيّ تلك المذاهب أقرب لحسن التأويل، وأليق بعظمة كتاب الله، وأوفق لنظام السورة وعمودها؟

قال السمرقندي: روي عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال:

(هُمْ قَوْمٌ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ فِي مَعْصِيةِ آبائِهِمْ فَمَنَعَهُمْ مِنَ النَّارِ قَتْلُهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَنَعَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ مَعْصِيَتُهُمْ آبَاءَهُمْ) وعن حذيفة بن اليمان أنه قال: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يكن لهم حسنات فاضلة يدخلون بها الجنة ولا سيئات فاضلة يدخلون بها النار. وهذا القول أيضاً روي عن ابن عباس مثل هذا[٢].

وقال ابن كثير:

«اختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف مَنْ هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله.»[٣]

ذلك ما قيل في المراد بأصحاب الأعراف، والقول الراجح المفضل عند أكثر الناس هو القول الذي مال إليه السمرقندي وابن كثير، وهو أنهم قوم استوت

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: سورة الأعراف - رقم الآية:٤٦

(٢) بحرالعلوم: سورة الأعراف - رقم الآية: ٤٦

(٣) تفسير ابن كثير: سورة الأعراف-رقم الآية: ٤٦، ٣/ ٤١٨

حسناتهم وسيئاتهم.

ولعل الذي مال بالناس إلى هذا القول هو أنهم ظنوا أنه حديث مرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقد ذكر ابن كثير وغيره لهذا القول روايات متعددة، وقالوا إنها مرفوعة.

والواقع أنها كلها روايات عِجاف، جاءت عن طريق رواة غير ثقات، ولا نحب إضاعة الوقت وراء تلك الروايات.

ومن أراد أن يطلع على أحوالهم فليرجع إلى أية نسخة محققة من تفسير ابن كثير أو غيره من التفاسير، فإنه سيجد فيها ما يكفيه ويشفيه بإذن الله.

تأويل لا يتلاءم مع الكتاب والسنة!

زد إلى ذلك أن هذا التأويل لا يتلاءم مع القرآن، ولا مع الصحاح.

أما القرآن فحسبنا منه قوله تعالى في نفس السورة:

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٨-٩)

فهناك صنفان من الناس لا ثالث لهما: صنف ثقلت موازينهم، وصنف خفت موازينهم. وأما الصنف الثالث المذكور في الرواية، وهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، فما خفّت موازينهم، ولا ثقلت، فلا يوجد لهم ذكر في القرآن، لا صراحة ولا كناية، لا في هذه السورة، ولا في غيرها.

وأما الأحاديث فقد روى الإمام أحمد بن حنبل، قال:

حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا يحيى بن إسحاق أنا ليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن ابن شماسة أن عمرو بن العاص قال: لما ألقى الله عز و جل في قلبي الإسلام قال: أتيت النبي ﷺ ليبايعني فبسط يده إلي فقلت: لا أبايعك يا رسول الله حتى تغفر لي ما تقدم من ذنبي، قال: فقال لي رسول الله ﷺ: يا عمرو أما علمت أن

الهجرة تجبّ ما قبلها من الذنوب؟ يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الذنوب؟[1]

وروى الأصبهاني قال: حدثنا محمد بن محمد المقرئ، ثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، ثنا محفوظ بن بحر، ثنا محمد بن أبي معشر، ثنا أبي، ثنا إبراهيم بن محمد ابن عاصم، عن أخيه، عن حذيفة بن اليمان، عن عروة بن مسعود الثقفي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله، فإنها تهدم الخطايا كما يهدم السيل البنيان»، قيل: يا رسول الله، كيف هي للأحياء؟ قال: «هي للأحياء أهدم وأهد»[2]

فإذا كان الإسلام يجبُّ ما قبله من الذنوب، والهجرة تجبّ ما قبلها من الذنوب، ولا إله إلا الله تهدم الخطايا كما يهدم السيلُ البنيان، فمن أين تستوي الحسنات والسيئات؟ وكيف تبقى للمؤمن سيئات تمنعه من دخول الجنة؟

أضف إلى كل ذلك تلك الصلوات الخمس، اللا تي يمحو الله بهن الخطايا، ويطهّر بهنّ المسلم في اليوم خمس مرات، حيث روى الإمام مسلم:

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا لَيْثٌ ح وَقَالَ قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا بَكْرٌ - يَعْنِي ابْنَ مُضَرَ - كِلاَهُمَا عَنِ ابْنِ الْهَادِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: وَفِي حَدِيثِ بَكْرٍ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟».

قَالُوا لاَ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ.

قَالَ «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا».[3]

فالمسلم الذي يواظب على الصلوات الخمس، ويتوب إلى ربه، هل تستوي حسناته وسيئاته؟ اللهم لا.

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، بقية حديث عمرو بن العاص عن النبيّ، رقم:١٧٩٨١

(٢) كنز العمال للمتقي الهندي:١٥/ ٥٦٨/ ٤٢٢٠٢- و أبو نعيم الأصبهاني، معرفة الصحابة، محقق: رقم:٤٩١٢

(٣) صحيح مسلم، باب المشي إلى الصلاة: ٢/ ١٣١/ ١٥٥٤

وأما الكافر والمنافق والمشرك، فهؤلاء لا يحملون على ظهورهم إلا السيئات، ولا شأن لهم بالحسنات. فمن الذين تستوي حسناتهم وسيئاتهم إذاً؟

لا يقرّ السياق هذا التأويل:

ثم الآيات التي وردت في شأن أصحاب الأعراف لا تقرّ هذا التأويل ولا تقبله، فلننظر إلى قوله تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٦)

فالذين تستوي حسناتهم وسيئاتهم، ويحجبون عن الجنة، ولا يعرفون ما حُكم الله فيهم، ولا يعرفون إلى أين يساقون؟ هل يدعهم خوفهم ووجلهم، حتى يعرفوا كل الناس، وحتى يهنّئوهم على فوزهم وحسن عاقبتهم؟ والقرآن يقول:

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ (عبس: ٣٣-٣٧).

وليست التهنئة فقط، بل الأمر أكثر من ذلك:

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٨-٤٩)

فهل هذا التأنيب والتبكيت للمستكبرين، وتلك الحفاوة وذاك التكريم للمؤمنين يصدر عن قوم لا يعرفون مصيرهم، ولا يعرفون ماذا ينتظرهم من ثواب أو عقاب؟ ألا يخاف أولئك أنهم أيضاً ربما يساقون إلى ما سيق إليه أولئك المستكبرون، الذين كانوا يعنّفونهم قبل قليل؟

ما قيل في معنى الأعراف:

وهنا أمر آخر جدير بالانتباه، وهو أن القرآن اختار لهذا المكان لفظ (الأعراف)، فما الأعراف؟

قال البغوي: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ والأعراف هي ذلك السور الذي بين الجنة والنار.[1]

وقال أبوالسعود: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الفريقين كقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ أو بين الجنة والنار ليمنعَ وصول أثرِ إحداهما إلى الأخرى ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي: على أعراف الحجابِ وأعاليه، وهو السورُ المضروبُ بينهما.[2]

وقال صاحب تفسير المنار: والتحقيق أن الأعراف هو ذلك السور والحجاب بين الدارين وأهلهما، أو أعاليه التي يكون عليها أولئك الرجال الذين يرون أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيهما - فيما يظهر - فيعرفون كلاً منهم بسيماهم.[3]

وهكذا نرى الناس جعلوا (سورَ) سورةِ الحديد، و(حجابَ) سورةِ الأعراف، و(الأعراف) في سورة الأعراف، جعلوا هذه الثلاثة شيئاً واحداً، أو مكاناً واحداً.

وهنا يثور سؤال: إن كانت تلك الكلمات الثلاث شيئاً واحداً، فلماذا اختلفت العبارة؟ ولماذا جاء السياق بثلاث كلمات مختلفات تختلف كل واحدة منها عن أختها في طبيعتها ودلالتها؟

أما السور والحجاب، فهما لفظان معروفان في طبيعتهما ودلالتهما، ولكن لفظ الأعراف يحتاج منا وقفة متأنية واعية، فإن الناس ما سوّوا بينه وبين أخويه إلا بسبب ذهولهم عن طبيعته ودلالته.

---

(١) معالم التنزيل، سورة الأعراف، الآية: ٤٦، ٣/ ٢٣١

(٢) إرشادالعقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم- سورة الأعراف

(٣) محمد رشيد رضا- تفسير المنار- سورة الأعراف: ٨/ ٣٨٣

تحقيق معنى الأعراف:

فالأَعراف في اللغة جمع عُرْف وهو كل عال مرتفع. وعُرْفُ الأَرض ما ارتفع منها، والجمع أَعراف، وأَعراف الرِّياح والسحاب: أَوائلها وأَعاليها. واحدها عُرْفٌ. وحَزْنٌ أَعْرَفُ: مرتفع، والأَعرافُ: الحَرْث الذي يكون على الفُلْجانِ والقَوائِدِ. وعُرْف الرمْل والجبَل وكلّ عالٍ: ظهره وأَعاليه ،والجمع أَعْراف وعِرَفَة. وعُرْف الدِّيك والفَرَس والدابة وغيرها: مَنْبتُ الشعر والرِّيش من العُنق.[١]

ومنه قول الشاعر:

كلُّ كِنازٍ لَحمُه نِيَافِ كالعَلَم ا لموفي على الأَعْرافِ

وقال الآخر:

وَرِثت بِنَاءَ آباءٍ كِرَامٍ عَلَوْا بالمَجْدِ أعْرَافَ البِنَاءِ[٢]

وأنشد أبو علي لقيس بن الخطيم:

إن تَلْقَ خيل العامري مغيرة لا تلقهم معتنقي الأعراف

يعني بالعامري عامر بن الطفيل بن مالك، يصفهم بالفروسية يقول: لا يعتصم بعنق فرسه يعتنقه لئلا يسقط.[٣]

فتلك الاستعمالات تدل على أن لفظ الأعراف يحمل معنى العلوّ والسموّ والكرامة والرفعة، فإذا كان في الجنة مكان يسمى (الأعراف) فهذا لا يعني إلا أن هذا المكان يكون له شأنه، ويكون متميزاً عن غيره في علوه، وشموخه وكرامته،

---

(١) ابن منظور، لسان العرب: عرف
(٢) زاد المسير في علم التفسير: سورة الأعراف، الآية: ٤٦
(٣) سمط اللآلي للبكري: ١/ ٢٦٠

ويكون مخصّصاً، لا محالة، لأكارم الناس وأفاضلهم، ومن يكون هؤلاء الأكارم والأفاضل غير الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟

ويكون هذا المكان غير السور، وغير الحجاب، فالسور والحجاب لا يكون مكان النزول أو مكان القعود، أو مكان الاستقبال.

هذا مشهد! وذاك مشهد!

فالأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يدخلون الجنة قبل غيرهم، لأنهم أحق بها وأهلها، وهي تشتاق إليهم أكثر من غيرهم، وربهم الكريم المنعم يجمعهم على الأعراف، وهو مكان كريم شامخ في الجنة، فإذا رأوا أفواج المؤمنين مقبلة إلى الجنة، نادوهم، ورحبوا بهم بكل حرارة وحفاوة، وهم يعرفونهم من بعيد لإشراق وجوههم، وتمام النور الذي يحيط بهم، يقولون لهم: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، ويقولون:

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٩)

وإذا رأوا أفواج الكافرين المستكبرين يساقون إلى النار، عرفوهم أيضاً بسواد وجوههم، وبما ترهقهم من ذلة، ونادوهم، وسألوهم سؤالاً فيه استخفاف وإنكار:

﴿ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ (الأعراف: ٤٨-٤٩)

ما أروع هذا المشهد، مشهد الأنبياء والرسل حينما يكونون على الأعراف، ينتظرون أصحابهم، وإذا رأوهم من بعيد عرفوهم ورحبوا بهم، ثم أدخلوهم الجنة بكل حب وإكرام، الجنة التي كانوا يَعِدونهم بها في الدنيا.

هذا مشهد الأنبياء والرسل مع أصحابهم الذين آمنوا بهم، مشهد كله حبّ ووفاء، ونصح وإخاء، وصدق وصفاء!

وهناك مشهد آخر، مشهد قاتم مخجل! مشهد مظلم مؤلم! مشهد كله غدر وخيانة، وخزي وخذلان! وهو مشهد الطغاة المستكبرين، الذين ضلوا، وأضلوا،

وأحلُّوا قومهم دار البوار، فهم يتخاصمون في النار، ويتبرأ بعضهم من بعض، والأتباع يصبّون الغضب واللعنة على هؤلاء الطغاة، الذين خدعوهم وأضلوهم:

﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٨-٣٩)

هذا مشهد، وذاك مشهد، وما أروع المقابلة بين المشهدين!

موجز القول أن القرائن كلها توحي بأن المراد بأصحاب الأعراف هم جماعة الرسل والأنبياء، فهو الأقرب لحسن التأويل، والأوفق لنظام الآيات وسياقها.

وأما التأويلات الأخر فليس وراءها إلا الآثار الضعاف والروايات العجاف، وليس في السياق ما يشفع لها.

مثال ثالث:

قال الله تعالى في آخر سورة الأحزاب:

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴾ (٧٢-٧٣)

ما المراد بالأمانة في هذه الآية؟ وما الذي أشفقت منه السماوات والأرض والجبال، وأبين أن يحملنه؟

ما قيل في مفهوم الأمانة:

قال الواحدي: معنى الأمانة هاهنا في قول جميع المفسرين: الطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب.

وقال القرطبي: والأمانة تعمّ جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور.

وقد اختلف في تفاصيل بعضها، فقال ابن مسعود: هي في أمانة الأموال كالودائع وغيرها، وروي عنه: أنها في كل الفرائض: وأشدها أمانة المال.

وقال أبيّ بن كعب: من الأمانة أن ائتمنت المرأة على فرجها.

وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة، وإن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها.

وقال ابن عمر: أوّل ما خلق الله من الإنسان فرجه، وقال: هذه أمانة أستودعكها، فلا تلبسها إلاّ بحق، فإن حفظتها حفظتك. فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

وقال السدّي: هي ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل، وخيانته إياه في قتله. وما أبعد هذا القول، وليت شعري ما هو الذي سوّغ للسدّي تفسير هذه الآية بهذا؟»[1]

تلك آراء وأقوال ذكرها الشوكاني في تأويل الأمانة، أقرّ منها ما أقرّ، وأنكر منها ما أنكر.

مشكلة هذا المفهوم:

وهنا يتساءل الباحث: الأمور التي ذكرها أهل التفسير في تأويل الأمانة، هل تصلح لأن تُعرضَ على السماوات والأرض والجبال؟ فإن الأمانة عرضت عليهنّ، فهن أشفقن منها، وأبين أن يحملنها.

معظم المفسرين سكتوا عن هذا السؤال، أو لم يختلج في خلدهم هذا السؤال،

---

(١) فتح القدير: سورة الأحزاب - رقم الآية: ٧٢، ٤/ ٣٨٥-٣٨٦

ولكن بعضهم انتبه له، وأجاب عنه، وهو كما يلي:

قال القفال وغيره: العرض في هذه الآية ضَربُ مَثَل، أي إن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تَقلُّد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب، أي إن التكليف أمر عظيم، حقه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل، وهذا كقوله: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ (الحشر: ٢١)

وهنا يأتي إشكال آخر، وهو أن الأمانة إن فسرت بالتكاليف الشرعية، فما ذنب الإنسان إن حملها، وهل خُلق الإنسان إلا لأجلها؟ وإذن فلماذا وجّه إليه الذم حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ؟

وقيل أيضاً دفعاً للإشكال الأول: إنّا (عرضنا) بمعنى عارضنا، أي عارضنا الأمانة بالسماوات والأرض والجبال، فضعفت هذه الأشياء عن الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها.

ثم مَن الإنسان الذي حمل تلك الأمانة؟

قال مجاهد: لما خلق الله آدم عرضها عليه، وقيل له ذلك فقال: قد تَحَمَّلتها. وروي نحو هذا عن غير الحسن ومجاهد.

قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير.

وقيل: معنى (حملها): كُلِّفها وأُلزمها، أو صار مستعدًّا لها بالفطرة، أو حملها عند عرضها عليه في عالم الذرّ عند خروج ذرية آدم من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم.

وقال الزجاج: معنى (حملها): خان فيها، وجعل الآية في الكفار والفساق والعصاة.[1]

وقيل: الأمانة هنا النية التي يعتقدها الإنسان فيما يظهره باللسان من الإيمان ويؤديه من جميع الفرائض في الظاهر، لأن الله تعالى ائتمنه عليها، ولم يظهرها لأحد

---

(١) انظر لهذه الأقوال: فتح القدير للشوكاني: سورة الأحزاب، ٤/ ٣٨٧

من خلقه، فمن أضمر من التوحيد ومن التصديق مثل ما أظهر فقد أدى الأمانة، ومن أضمر التكذيب وهو مصدق باللسان في الظاهر فقد حمل الأمانة ولم يؤدها، وكل من خان فيما اؤتمن عليه فهو حامل؛ والإنسان في قوله: (وحملها الإنسان)؛ هو الكافر الشاك الذي لا يصدق، وهو الظلوم الجهول؛ نقله الأزهري وأيده.[1]

من مشكلات القرآن!

وقال ابن عاشور:

«عُدّت هذه الآية من مشكلات القرآن وتردد المفسرون في تأويلها تردداً دل على الحيرة في تقويم معناها. ومرجع ذلك إلى تقويم معنى العرض على السماوات والأرض والجبال، وإلى معرفة معنى الأمانة، ومعرفة معنى الإباء والإشفاق.....

وقال: «أما الأمانة فهي ما يؤتمن عليه ويطالب بحفظه والوفاء دون إضاعة ولا إجحاف، وقد اختلف فيها المفسرون على عشرين قولاً، وبعضها متداخل في بعض.»[2]

ويجوز أن يكون السبب الرئيس في تلك الحيرة أنهم أخطؤوا معنى الأمانة، وأخطأه الشيخ ابن عاشور أيضاً كما أخطأه الآخرون، وبالتالي لم يستطع أن يخرج من الحيرة التي ارتبك فيها الآخرون.

وأما الحيرة في معنى العرض على السماوات والأرض والجبال، ومعرفة معنى الإباء والإشفاق فهي نتيجة طبيعية لتلك الحيرة، فإن أصبنا معنى الأمانة، انقشع الغمام، وتبدد الظلام، وخرجنا من الحيرة بإذن الله، فماهي الأمانة؟

---

(١) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس

(٢) التحرير والتنوير: سورة الأحزاب: ٢١/ ٣٤٦

الأمانة في شعر العرب:

قال لبيد بن ربيعة العامري في معلقته:

وإذا الأمانةُ قُسِّمَتْ في مَعْشَرٍ ... أوْفَى بأوْفَرِ حَظِّنَا قَسّامُهَا
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكُهُ ... فَسَما إليه كَهْلُهَا وَغُلامُها[1]

والبيت الثاني يبين معنى الأمانة في البيت الأول، يقول الزوزني في شرح البيت الثاني:

«يقول: بنى الله تعالى بيت شرف ومجد عالي السقف فارتفع إلى ذلك الشرف كهل العشيرة وغلامها.»[2]

فالشاعر يعتزّ هنا بتلك القوة، والمنعة، والهيبة التي يتمتع بها قومه، ويقول: «حينما وُزّعت القوة والمنعة والهيبة في الناس، فالذي قسّمها جعل لنا الحظ الأوفى، والنصيب الأكبر منها، وبنى لنا بيتاً عالياً شامخاً، فالكهول والشبان، كلهم مقبلون إلى ذلك البيت العالي السامق، ويقعدون في مقاعد العزّ والشرف والسؤدد.»

ومنه قول أوس بن حجر، وهو يعيب قوماً:

مُخَلَّفُونَ ويَقضِي الناسُ أمرَهُم ... غُسُّو الأمانةِ صُنْبُورٌ فصنبورُ

رجل غُسٌّ، إذا كان ضعيفاً.[3]

والصُّنْبُورُ: الرّجلُ الفَرْدُ الضَّعِيفُ الذَّلِيلُ بلا أهلٍ ولا عَقِبٍ ولا ناصرٍ، وفي الحديث: (إنّ كُفّارَ قُرَيْش كانُوا يَقُولُونَ في النَّبِيِّ ﷺ مُحَمَّدٌ صُنْبُورٌ)، وقالُوا: (صُنَيْبِرٌ) أي: أَبْتَر لا عَقِبَ له، ولا أخ، فإذا ماتَ انْقَطَعَ ذِكْرُه، فأَنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ:

---

(١) شرح المعلقات السبع – معلقة لبيد بن ربيعة – ص: ١٦٥-١٦٦

(٢) نفس المصدر: ص: ١٦٦

(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس: أمن

وفي ((التهذيب)): أَصلُ الصُّنْبُور: سَعَفَةٌ تَنْبُتُ في جِذْعِ النخلةِ لا في الأَرْضِ.
قال أَبُو عُبَيْدَةَ: الصُّنبُور: النَّخْلَة تَبْقَى منفردَةً، ويَدِقُّ أَسفَلُها ويَنْقَشِرُ، يقال: صَنْبَرَ أَسفَلُ النَّخلة، ومُرَادُ كفّار قريشٍ بقولهم صُنْبُور، أَي: إِنّه إِذا قُلِعَ انقطَع ذِكْرُه، كما يَذْهَبُ أَصلُ الصُّنْبُور؛ لأَنّه لا عَقِبَ له.

ولقِيَ رجُلٌ رجلاً من العَرَب فسأَله عن نَخْلِهِ، فقال: صَنْبَرَ أَسْفَلُه، وعَشَّشَ أَعلاه، يَعْنِي دَقَّ أَسفَلُه، وقَلَّ سَعَفُه ويَبِسَ، قال أَبو عُبَيْدة: فشَبَّهُوا النَّبيّ صلَّى الله تَعالَى عليه وسلَّم بها، يقولون: إِنّه فَردٌ ليس له وَلدٌ، فإِذا ماتَ انقَطَعَ ذِكْرُه.[1]

وعلى هذا، فمعنى البيت: أنهم أناس متروكون للخلف، لا مكان لهم في الأمام، ليس لهم حول ولا طول، فهم لا يملكون من أمرهم شيئاً ، بل الآخرون هم الذين يقضون أمرهم، وهم لا يقضون بشيء، هم غسّو الأمانة، ضعفاء أذلاّء، صنبور فصنبور!

الأمانة في حديث رسول الله:

وهناك حديث مرفوع رواه أبوداود، يشير إلى هذا المعنى، قال:
حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ الطَّائِيُّ عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنْ حَلَفَ بِالأَمَانَةِ فَلَيْسَ مِنَّا».[2]

فهذا الحديث يفيد نفسَ المعنى، حيث لا يجوز لإنسان ضعيف - وكل إنسان ضعيف مهما بلغ من القوة والسيطرة، والجاه والسلطان - لا يجوز له أن يغتر بقوته، ويحلف بجاهه وجبروته، ومن فعل ذلك فليس من أمة الإسلام؛ فإن الإسلام خضوع وخشوع لله، ولا مكان فيه للغطرسة والاستكبار.

---

(١) الزبيدي- تاج العروس من جواهر القاموس: صنبر
(٢) سنن أبي داود، باب في كراهية الحلف بالأمانة: ٣/ ٢١٨/ ٣٢٥٥

فقد روى أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُما قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[1]

الأصل في معنى الأمانة:

تلك بعض الشواهد للفظ الأمانة، وهي واضحة في أن لفظ الأمانة يحمل معنى القوة والسلطة، والقوة والسلطة تستلزم الحرية الكاملة والإرادة المطلقة، فإنه لا تُتصوَّرُ القوةُ والسلطة، إذا لم تصحبها الحريةُ الكاملة والإرادة المطلقة.

ومن هنا جاء في لفظ الأمانة معنى المسؤولية والولاية؛ فإن المسؤولية والولاية لا بد لها من الحرية والسلطة.

ومن الأمانة اشتقّ لفظ الإيمان، فإن الإيمان إقرار، واعتراف، واعتقاد بقدرة الله الواسعة، وربوبيته الشاملة، وهيمنته الكاملة، وحاكميته العليا، وملكه العظيم.

هذا إذا كان لفظ الإيمان للعباد، وأما إذا كان لله سبحانه وتعالى، كان معناه إعطاء الأمن، ولا يعطي الأمن إلا من كان عزيزاً قوياً، ولذلك جاءت صفة المؤمن مقرونة بصفات القوة والسلطة، وهي: المهيمن العزيز الجبار المتكبر، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الحشر: ٢٣).

فالمهيمن هو الذي يُرجى أن يكون مؤمناً، أي: واهب الأمن.

والأمانة في معناها المعروف، وهي ضد الخيانة، أيضاً تكون نتيجة القوة والمنعة، فالإنسان الذي يكون قوياً في إرادته، ضابطاً لنفسه، غالباً على شهواته، شامخاً في طموحاته، هو الذي يكون أميناً فيما ائتمن عليه.

وأما إذا كان مغلوباً على أمره، ضعيفاً في نفسه، هابطاً في رغباته، فلن يكون

---

(١) سنن أبي داود، باب ما جاء في الكبر: ٤/ ١٠٢/ ٤٠٩٢

أميناً، بل هو أقرب إلى الخيانة منه إلى الأمانة، ولذلك جاءت صفة الأمين مقرونة بصفة القوي حيث قال تعالى:

﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴾ (سورة القصص: ٢٦).

فالأصل في معنى الأمانة هي القوة والسلطة والقدرة، ثم القوة والسلطة والقدرة تستلزم معنى الحرية الواسعة الكاملة؛ فإنه لا سلطة بدون حرية.

فربنا سبحانه وتعالى حينما خلق الكون عرض على السماوات والأرض والجبال تلك الأمانة.

المقصود من عرض الأمانة:

ولعل المقصود من ذلك العرض اختبارهن، وهو أنهن هل يُؤْثِرن أن يُترك لهن الحبلُ على الغارب، ويُمنحن حرية كاملة في أمرهن، حتى يمشين كما يشتهين، ويجرين كما هوين، أم يؤثرن طاعة ربهن، والخضوع الكامل لأوامر من خلقهن، ويؤثرن أن يرسم لهن ربهن الخطوط، ويحدّ لهن الحدود، ويضع لهنّ النظام، حتى يكون طلوعهن، وغروبهن، وصعودهن وهبوطهن، وجَريهُنّ وسباحتهن، كله في رعاية ربِّهنّ.

فكلهن آثرن الخضوع الكامل لأوامر من خلقهن، وأبين أن يخرجن من طاعة ربهن، وأشفقن من أن يحملن على ظهورهن مسئوليتهنّ، من غير رعاية وتوفيق من ربهنّ، كما قال تعالى:

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (سورة فصّلت: ١١-١٢).

وقال تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء: ٤٤).

حمل الأمانة من غير عَرض:

والجدير بالانتباه أن الإنسان لم تُعرض عليه الأمانة، ولكنه من شدة طغيانه واستكباره تقدم فحمل تلك الأمانة من غير أن تُعرض عليه، وهو يقول بلسان الحال:

«أنا أحب أن أبقى حرّاً، ولا أحب أيّ قيد في رجلي، أنا لا أحب شرعك يا ربّ، بل أحب أن أشرع لنفسي بنفسي، بل أحب أن أترك نفسي وما تشتهي!»

فبغى وطغى، وتجبر واستكبر، وبذلك أقام الحجة على كونه ظلوماً جهولاً.

والقرآن ما وصف نوع الإنسان كله بوصف الظلوم والجهول، ففيهم الرسل والأنبياء، وفيهم الصديقون والشهداء، وفيهم الصالحون الأتقياء، الذين يثني عليهم القرآن ثناءً عطراً، بحيث تهتزّ له النفس، ويطرب له القلب!

وإنما المراد به هو الكافر الطاغي، والمنافق الباغي الذي استحب الكفر على الإيمان، ومال إلى الفجور والفسوق والعصيان، و اتخذ إلهه هواه واتبع خطوات الشيطان.

والقرآن كثيراً ما يطلق لفظ الإنسان، ويعني به الإنسان الكافر الطاغي، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ (سورة الانفطار: ٦).

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ (سورة العلق: ٦-٨).

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (سورة العاديات: ٦ - ٨).

مواقف المنافقين في السورة:

هذا، ولو تأملنا السورة التي وردت فيها تلك الآية، وتمّليناها، لرأيناها تُكثرُ من ذكر مواقف المنافقين ضد رسول الله وأزواجه وأصحابه، وتحذّر المسلمين تحذيراً من كيدهم، وشرّهم، وتكشفهم لهم كشفاً، والسورة تستهلّ بهذا التحذير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ١-٢)

ثم تذكر مواقفهم العدائية الهابطة في غزوة الأحزاب:

* ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (الأحزاب: ١٢-١٣)

* ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (الأحزاب: ١٨-١٩)

ويستمر هذا الكلام إلى الآية: (٢٤).

تلك مواقفهم في حالات الحرب، حينما يكون الرسول وأصحابه في حرج،

ويكونون مهددين بالخطر!

مواقف كلها هلع وجبن، وغدر وخيانة، وتثبيط وتخذيل، ووقاحة وإيذاء، وسوء الظنّ بالله والرسول!

وأما إذا كانت حالات السلم، فهم يظهرون بمظهر آخر، يظهرون بمظهر العدو الحاقد في ثوب الصديق الناصح، فتراهم أحياناً يذهبون إلى أهل البيت، وهن أزواج الرسول، أمهات المؤمنين، فيزيّنون لهن الحياة الدنيا، ويرْثون لهن على ما كنّ فيه من شظف العيش، وقلة المتاع، وعدم أسباب الترف والزينة.

وما كانوا يريدون بذلك الرثاء إلا أن يخدعوهن، ويفتنوهنّ عن دينهن ورسالتهنّ، وكانوا يودّون لو يميلوا بهن إلى زينة الحياة الدنيا، ويُدَلُّوهن في مهواة الفاحشة، حتى يفسدوا على رسول الله أمره، ويكدروا عليه صفو حياته، فذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨-٣٤)

وما جاءت تلك الآيات إلا تيئيساً لهؤلاء الأعداء مما كانوا يطمعون ويتمنون، وإلا فأزواج رسول الله لم يكن فيهن أيّ ميل إلى الحياة الدنيا و زينتها، وكنّ أجلّ

وأفقه من أن يأتين بفاحشة مبينة، وما أراد الله سبحانه وتعالى بتلك الآيات إلا أن يطهرهن تطهيراً، ويُوئِس المنافقين تيئيساً.

وما ذكر في سبب نزول تلك الآيات يحتاج إلى بحث ودراسة، ومن أراد زيادة البيان فليرجع إلى كتابنا: (إمعان في مشكل القرآن).

وترى هؤلاء المنافقين أحياناً يهمسون في آذان المسلمين، ويوسوسون في صدورهم، ويزرعون في نفوسهم الشكوك والشبهات، ويحاولون أن يزعزعوا ثقتهم بنبيهم، وينفّروهم عن دينهم، كما رأينا بمناسبة نكاح زيد وزينب، ثم حينما قضى زيد منها وطراً، ثم حينما تزوج رسول الله السيدة زينب، فذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (٣٦-٣٨)

وتراهم أحياناً يؤذون الرسول بتصرفاتهم السفيهة، ويطمعون في نكاح أمهات المؤمنين بكل دناءة ووقاحة، فذلك قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٥٣-٥٤)

وتراهم أحياناً يتربصون بأزواج رسول الله وبناته، ويتربصون بنساء المؤمنين، ويتعرضون لهن بالأذى، فذلك قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٥٩-٦٢)

تلك نبذة سريعة من مواقف المنافقين من دين الإسلام، ونبي الإسلام، وحملة لواء الإسلام، والسورة تندّد بتلك المواقف الوقحة الفاجرة، وتتوعدهم عليها، وتحذّر المؤمنين ألا تصيبهم عدواها!

وفي مثل هذا الجوّ جاءت آية عرض الأمانة، وحمل الأمانة، وجاء الحكم على من حملها بأنه كان ظلوماً جهولاً، فما هي تلك الأمانة؟ ومن هم حاملوها؟ وما هو الأقرب لحسن التأويل؟

نظن تلك الأمور كلها أصبحت واضحة شاخصة، ولم يبق فيها أيّ غبش أو أيّ غموض، والحمدلله.

مثال رابع:

قال تعالى في سورة يوسف:

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (يوسف: ٤٢)

قال القاضي ابن عطية رحمه الله في تأويل الآية:

ما قيل في معنى الآية:

والضمير في (أنساه) قيل: هو عائد على يوسف عليه السلام، أي نسي في

ذلك الوقت أن يشتكي إلى الله، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق، فروي أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله عز وجل في ذلك، وطول سجنه عقوبة على ذلك، وقيل: أوحي إليه: يا يوسف اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن حبسك.

وقيل: إن الضمير في (أنساه) عائد على الساقي - قاله ابن إسحاق - أي نسي ذكر يوسف عند ربه، فأضاف الذكر إلى ربه إذ هو عنده، و «الرب» على هذا التأويل - الملك[1] .

وقال الشوكاني رحمه الله:

جملة :]اذكرني عِندَ رَبّكَ[هي مَقُولُ القول، أمره بأن يذكره عند سيده، وكانت هذه المقالة منه عليه السلام صادرة عن ذهول ونسيان عن ذكر الله بسبب الشيطان، فيكون ضمير المفعول في أنساه عائداً إلى يوسف.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين، وهو الشرابي، وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء. وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف، ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز، والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلاّ فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكّروني» ورجح أيضاً بأن النسيان ليس بذنب، فلو كان الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو يوسف لم يستحق العقوبة على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وأجيب بأن النسيان هنا بمعنى الترك، وأنه عوقب بسبب استعانته بغير الله سبحانه[2].

وقال ابن كثير رحمه الله:

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ يقول: اذكر قصتي عند ربك - وهو الملك -

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- سورة يوسف: ٥/ ٩٢

(٢) الشوكاني- فتح القدير: سورة يوسف: ٣/ ٣٧

فنسى ذلك الموصَى أن يُذَكِّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبي الله من السجن.

هذا هو الصواب أن الضمير في قوله: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ عائد على الناجي، كما قال مجاهد، ومحمد بن إسحاق وغير واحد[1].

موضع الحيرة في الآية:

فتلك الآية تحَيَّر في تأويلها المفسرون، وموضع الحيرة هو الضمير المنصوب (هـ) في قوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾

فمنهم من يعيده على يوسف، ومنهم من يعيده على الساقي، أو الناجي، ومنهم من يذكر الرأيين بدون ترجيح.

فابن عطية- مثلاً- ذكر الرأيين، ولم يرجح أحدهما على الآخر، والشوكاني أيضا ذكر الرأيين، ولم يرجح بلفظ صريح، ولكن يبدو من لحن قوله أنه يعيد الضمير المنصوب (ه) على يوسف، وبالعكس من ذلك نرى ابن كثير يعيد الضمير على الساقي، أو الناجي، ويجزم بأن هذا هو الصواب.

رأي أقرب لحسن التأويل:

ولعل الذي مال إليه ابن كثير، وجزم بصحته، هو الرأي الأمثل، وذلك لكونه أقرب لحسن التأويل من عدة وجوه، وهي كما يلي:

الوجه الأول:

ذُكِر في السياق أولاً قول سيدنا يوسف عليه السلام للناجي، ثم ذُكر إنساء الشيطان بحرف (ف): ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾، والفاء تدل على الترتيب، أي: إنساء الشيطان حدث بعد قول سيدنا يوسف مقالته للناجي، فلا

---

(١) تفسير ابن كثير- سورة يوسف: ٤/ ٣٩١

ينصرف هذا الإنساء إلا إلى الناجي، ومن صرفه إلى سيدنا يوسف عليه السلام فقد ذهل عن ترتيب الكلام.

الوجه الثاني:

من قال: إن سيدنا يوسف نسي أن يشتكي إلى الله، أو جنح إلى الاعتصام بمخلوق، أو اتخذ من دون الله وكيلاً، أو استعان بغير الله سبحانه، فقد قال قولاً عظيماً، فمثل هذه الأحكام لا تنطلق على أنبياء الله سبحانه وتعالى، وهي لا تُبنى على القيلات والقالات. والقارئ إذا قرأ سورة يوسف، لم ير فيها إلا صورة وضيئة جميلة جذّابة للإيمان والإحسان، والتقوى والتوكل على الله، فقد كان عليه السلام إمام المحسنين، وكان قدوة للمتقين المتوكلين.

الوجه الثالث:

لم يكن الشوكاني مصيباً في كلامه، وفي استدلاله حينما قال: والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلاّ فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(إنما أنا بشر مثلكم، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني)، فنسيان آية، أو نسيان ركعة في الصلاة شيء آخر، ونسيان النبي لربه أمر آخر، فبينهما من الفرق ما بين المشرق والمغرب! وإن نسي النبي شيئاً ، فلن ينسى ربه. والأنبياء معصومون عن نسيان ربهم حتماً!

الوجه الرابع:

ليس الأمر هنا أمر طروء النسيان على النبيّ، وإنما هو أمر تمكّن الشيطان من إنساء النبيّ، فهل يتمكن الشيطان من إنساء النبيّ؟ وإذا كانت الإجابة بنعم، فماذا نفعل بقول الله سبحانه:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾(الحجر: ٤٢).

فهذا نص صريح في عدم تمكّن الشيطان من عباد الله الصالحين، فما ظنك بأنبيائه ورسله السامقين الشامخين، الذين يكونون دائماً على صلة بربهم، ويكونون دائما في حماية الله وحراسته.

الوجه الخامس:

يوسف عليه السلام زُجّ به إلى السجن من غير ذنب، فلو أخذ بسبب من الأسباب ليثبت نزاهة جانبه، وطهارة ذيله، وأراد أن يُخرج نفسه من قفص الاتهام، فهل يتنافى ذلك مع التوكل على الله؟ وهل أُمِر المسلم أن يتخلى عن الأسباب دائماً، ويقعد في بيته ينتظر قضاء الله فيه؟

الوجه السادس:

سيدنا يوسف عليه السلام لبث في السجن بضع سنين، ولم يكن ذلك اللبث عقوبة له، وإنما كان نتيجةً لنسيان الناجي حيث لم يذكر سيدنا يوسف عند ربه.

الوجه السابع:

الإنساء نُسب في الآية إلى الشيطان، لأن الشر كله ينسب إليه، ومنه إنساء ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، مثل قوله تعالى في سورة الكهف:

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾ (٦٣)

وهو لم يكن قادراً على الإنساء أبداً، لو لم تكن مشيئة الله، فالله هو الذي أجّل خروجه من السجن لوقت أنسب وأشرف، حتى يخرج، إذا خرج من السجن، شامخاً مكرّماً محبّباً مرفوع الرأس، ولا يخرج منه بطلب منه كأحدٍ من الناس، بل الملِك هو الذي يستدعيه، ويستقبله، ويعلن براءته ونزاهته، ويُنزله في قصر سلطانه، ويُقعده على سرير ملكه، ويبذل له من الحب والكرامة مالم يخطر على قلب أحد، ومالم يبذله لغيره!!

مثال خامس:

وهناك آيات في نفس السورة، ارتبك فيها الناس كما ارتبكوا في الآية السابقة، فلا بد من وقفة قصيرة عندها، قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (٦٩-٧٦)

ما قيل في تأويل تلك الآيات:

قال الزمخشري في تأويل تلك الآيات:

«السِّقَايَةَ مشربة يُسقى بها وهي الصواع. قيل: كان يُسقى بها الملك، ثم جُعلت صاعاً يُكال به. وقيل: كانت الدواب تسقى بها ويكال بها.

روي: أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا، ثم قيل لهم ذلك.

﴿ قَالُوا فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ (٧٤-٧٥)

فَما جزاؤُهُ الضمير للصواع، أي، فما جزاء سرقته إنْ كُنْتُم كاذِبينَ في جحودكم وادّعائكم البراءة منه قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ أى جزاء سرقته أخذُ من وُجِدَ

في رحله، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يُسترقّ سنة، فلذلك استفتوا في جزائه.

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قيل: قال لهم من وُكِّلَ بهم: لا بدّ من تفتيش أوعيتكم، فانصرف بهم إلى يوسف، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين، لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال:

ما أظنّ هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله لا نتركه حتى تنظر في رحله، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا، فاستخرجوه منه.

وقال رحمه الله:

فإن قلت: لم ذكّر ضمير الصواع مرّات ثم أنّثه؟ قلت:

قالوا: رجع بالتأنيث على السقاية، أو أنث الصواع لأنه يذكر ويؤنث، ولعلّ يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعاً، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية، وفيما يتصل بهم منه صواعا كَذَلِكَ كِدْنا مثل ذلك الكيد العظيم **كدنا لِيُوسُفَ يعني علَّمناه إياه وأوحينا به إليه** ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ تفسير للكيد وبيان له، لأنه كان في دين ملك مصر، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ، لا أن يلزم ويستعبد إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ، أي: ما كان ليأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه.

وقال رحمه الله:

فإن قلت: **ما أذنَ اللهُ فيه يجب أن يكون حسناً، فمن أي وجه حسن هذا الكيد؟ وما هو إلا بهتان، وتسريق لمن لم يسرق، وتكذيب لمن لم يكذب، وهو قوله]** إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ، فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ؟[**قلت: هو في صورة البهتان وليس ببهتان في الحقيقة،** لأنّ قوله ﴿ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴾ تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف. وقيل: **كان ذلك القول من المؤذن لا من يوسف،** وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴾ فرض لانتفاء براءتهم. وفرض التكذيب لا يكون تكذيباً، على أنه لو صرّح لهم بالتكذيب كما صرّح لهم بالتسريق. لكان له وجه، لأنهم كانوا

كاذبين في قولهم: ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ هذا وحكمُ هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام:

وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً ليتخلص من جلدها ولا يحنث. وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، **وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا»**[1].

ذلك ما قاله الزمخشري في تأويل تلك الآيات، ومعظم المفسرين يدندنون حول ما قال، وهنا تثور في ذهن الدارس تساؤلات، وتأتي إشكالات:

تساؤلات وإشكالات:

إشكال أول:

نبي الله يوسف عليه السلام كان قدوة للمحسنين، وكان من عباد الله المخلصين، وقالت عنه النسوة بعد ما جرّبن عليه كل ما يملكن من أسباب الفتنة: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وناداه صاحبه في السجن باسم الصدّيق: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ ، فهل تتناسب تلك الصورة الوضيئة الملكيّة المشرقة العملاقة مع تلك الصورة التي تتمثل لنا مما قيل في تأويل تلك الآيات؟!

إشكال ثان:

هل نصدّق أن سيدنا يوسف عليه السلام - مع كل ما كان يتحلى به من علوّ وسموّ وشموخ، ومع ما كان يتمتع به من عبقرية خارقة وعقلية نادرة - لجأ في شأن إخوته إلى خطّة هي أشبه بالمناورات السياسية والمداورات الدبلوماسية، منها بأعمال النبوة وأخلاق الرسالة؟!

---

(١) الزمخشري- الكشاف عن حقائق التنزيل: سورة يوسف، ٢/ ٤٩٢

إشكال ثالث:

هل يشفي نفس الباحث هذا القول، الذي قاله الزمخشري: (وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية) وكرر القول وزاد عليه فقال: (وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع في المفاسد، **وقد علم الله تعالى في هذه الحيلة التي لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلماً وذريعة إليها، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا)**؟؟.

ليت شعري ما المصالح والمنافع الدينية كانت في تلك الحيلة؟ وما المصالح العظيمة التي كانت تفوتهم لو لم تكن تلك الحيلة؟؟ وما تلك المفاسد التي كادت تهاجم لو أن بنيامين قد رجع مع إخوته إلى أبيه، ولم تدم إقامته مع يوسف؟ ومتى كان تلقين تلك الحيلة ليوسف؟ فالقرآن لا يذكر شيئاً من ذلك.

إشكال رابع:

ما الذي ألجأ المفسرين إلى أن يقولوا عن سيدنا يوسف ما قالوا؟ وما الذي حملهم على أن يلبسوه ثوباً لا يستوي عليه ولا يناسبه؟ بل يشوّه شخصيته الجميلة الجذابة! وينزله من ذروة الجبل السامق إلى سطح الأرض الهابط!

إشكال خامس:

من أنبأهم أن السقاية والصواع شيء واحد؟ ومن أنبأهم أن السقاية التي جعلها سيدنا يوسف في رحل أخيه، ما كانت سقايته الخاصة، وإنما هو صواع الملك؟

إشكال سادس:

إن جعل سيدنا يوسف في رحل أخيه صواع الملك بدون إذن منه، ألا يجري عليه حكم السرقة؟

إشكال سابع:

ما الذي حمل سيدنا يوسف على أن يجعل في رحل أخيه شيئاً لا يملكه؟

إشكال ثامن:

هل أثر عن ملك من الملوك أنه كان يشرب من إناء تُكال به الحبوب؟ هل أثر أنه كان يستعمل هذا الإناء للكيل والشرب في وقت واحد؟لم يؤثر هذا عن الفقراء والمساكين، بله الملوك والسلاطين!

تأويل يمليه علينا السياق:

هنا يأتي سؤال: فما التأويل الصحيح لتلك الآيات، التأويل الذي يكون سليماً من تلك الإشكالات؟

فإن كنا نحب أن نتوصل إلى التأويل الصحيح لتلك الآيات، فلنحسن الظن أولاً بنبي الله يوسف عليه السلام، ولنعلم أنه لم تكن هناك أية خطّة مسبقة لإحراج إخوته، واستبقاء أخيه بنيامين عنده، وإنما كانت ضيافة كريمة خالصة، ثم توديع سخيّ نديّ في ظل الأخوة والمودة، ومن هنا جعل في رحل أخيه السقاية.

وتلك السقاية كانت سقايته الخاصة، التي كان يستخدمها لنفسه، ويشرب بها الماء، فكانت أحسن هدية ودّية رمزية لأبيه الحنون المحزون عن طريق أخيه الأحبّ الأصغر.

ولا نستبعد إذا كان في بال يوسف أن هذه السقاية ستحمل ريحه إلى أبيه الحنون، فتقرّ عينه، وتُثلج فؤاده، وتدخل البهجة في نفسه، وتخفف من لوعته على فراقه، فقد حكى له أخوه ما كان يعاني منه أبوه!

فودّعهم يوسف مع شيء من التحفظ، فإن إخوته لم يعرفوه بعد، وبعد الوداع دخل في خضمّ الأعمال التي كانت تنتظره. وكان من قدر الله أن يوسف ودّع إخوته، وما لبث أن فُقد صواع الملك قبل أن يبعد بهم السير، فانتشر الغلمان أو العمّال في كل جهة ينظرون إلى القوافل، وينادونهم ويستوقفونهم، والقرآن لم يذكر إلا قافلة إخوة يوسف لأن له صلة بقصة يوسف.

فدار النقاش بين الغلمان أو العمّال وبين إخوة يوسف كما هو مذكور في الآيات، ثم كان تفتيش أوعيتهم، واحداً بعد واحد، حتى جاء دور بنيامين، وهم لم يجدوا في أوعيتهم ذلك الصواع الذي فقدوه، وإنما وجدوا في وعاء بنيامين السقاية التي وضعها فيه يوسف، فعرفوها، أنها للعزيز يوسف.

وبعد استخراج السقاية من وعاء بنيامين لم يعد شك في كونه سارقاً، فإنهم إن لم يجدوا عنده ما كانوا يفقدونه فقد وجدوا شيئاً مثله، فذاك صواع الملك، وتلك سقاية العزيز، وكلاهما يتصلان ببيت الإمارة، وهكذا ثبتت جريمة السرقة على بنيامين، وتم احتجازه حسب الاتفاق الذي تمّ بينهم.

والظاهر المتبادر أن كل ما جرى مع إخوة يوسف، لم يجر إلا في غَيْبة يوسف؛ فإنه كان في خضمّ أعماله، مطمئناً إلى أنه ودّعهم آمنين سالمين بعد ما قام بواجبه نحوهم، ولم يبلغه ما حدث مع إخوته إلا في نهاية المطاف أي: بعد ما جرى التفتيش، وأُخذت السقاية، وتمّ احتجاز بنيامين جزاء على ما ثبت من سرقته في بادئ النظر.

قد يقال: إن كان بنيامين على علم بأمر السقاية، وكان يعلم أن يوسف هو الذي وضعها في رحله، فما منعه من بيان حقيقة الأمر، حتى يبرّئ نفسه من تهمة السرقة؟

وما دعاه إلى أن يعتصم بالسكوت، وكأنه معترف على نفسه بالجريمة؟!

نقول: كان ذلك سرّاً بين سيدنا يوسف وبين أخيه بنيامين، فما رضيَ بنيامين أن يبوح بهذا السر، ويكشفه قبل أوانه، ولزم السكوت وكأنه سرق السقاية فعلاً.

فحينما تمّ احتجاز بنيامين، وأُحضر أمام سيدنا يوسف، وقُصّت عليه القصة، ظنّه سيدنا يوسف من قدر الله، ومن تدبير الله، حيث عاد إليه شقيقه الحبيب من غير عناء، وتحقق له ما كان يتمناه بكل يُسر.

وهنا يثور سؤال آخر: لماذا تمنى سيدنا يوسف أن يبقى أخوه في جنبه؟ وهل نسي أن له أباً شيخاً كبيراً ينتظره في بيته، وقد عصره الحزن على فراقه منذ عشرات

السنين، وإذا لم يجد بنيامين مع من عاد إليه من مصر، عسى ألا يطيق هذا الحزن الأخير؛ فإن نَكْءَ القرح بالقرح أوجع!

نقول: كان سيدنا يوسف يدرك ذلك جيداً، ولهذا لم يفكّر في حبسه عنده، مع أن نفسه الكريمة الودودة كانت تتمنى ذلك، وذلك لأن إخوته كانوا يحقدون على أخيه، كما كانوا يحقدون عليه، فكانوا يقسون عليه، ويؤذونه بعد فراقه، كما هو واضح من قوله لأخيه حينما جمع الله بينهما بعد عشرات السنين:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (يوسف: ٦٩)

وما لبث حقدهم القديم الدفين في صدورهم أن جرى على لسانهم، حينما وجدت السقاية في وعائه:

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾ (يوسف: ٧٧)

هكذا، بكل صراحة، وبكل وقاحة!!

فهم لم يحسنوا به ظنّاً، ولم يلتمسوا له عذراً، بل قذفوه بكلمة بذيئة نابية، ولم يقذفوه فقط، بل قذفوا أخاه التقيّ النقيّ بكل وقاحة، وبدون خجل ولا ندم على ما فعلوا به في سالف الزمان!

بل بالعكس من ذلك، ظلّت قلوبهم تغلي بالحقد عليه مع أنه قد طال به الأمد، وهم لا يعرفون أنه الآن على قيد الحياة، أم آل أمره إلى المهات، وصار رهين الأجداث!

وعلى أية حال، فالله سبحانه وتعالى كاد ليوسف عليه السلام، وحقق أمنيته في صحبة أخيه، كما هو دأبه في أنبيائه ورسله المكرمين، حيث يكرمهم بتحقيق رغباتهم، ولا يردّ لهم سؤالاً إلا نادراً.

وربط على قلب أبيه الكبير المحزون، وألهمه الصبر والسلوان، وبعد فترة وجيزة من الزمن جمعهم جميعاً مع يوسف الصديق في بيت ملكه، بعد ما نزع ما في

صدور إخوته من غلّ، ولله الحمد.

فلننظر ما بين هذا التأويل وبين ماسبقه من وجوه التأويل! فالفرق بينهما كبير.

ومن هنا نقول: إذا كانت الآية تحتمل وجوها من المعاني، لم يؤخذ منها إلا ما كان أقرب لحسن التأويل، ولم يؤخذ إلا ما كان أقرب لجوّ السورة وأهدافها.

***　　***　　***

الضابط الرابع

لا بد من موافقة التأويل لمحكم الكتاب والسنة

لا يُقبل من وجوه التأويل إلا ما كان موافقاً لمحكم الكتاب والسنة.

نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٥).

ما قيل في تأويل الآية:

قال القرطبي في تأويله:

قوله تعالى: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ} ابتداء وخبر. **والطعام اسم لما يؤكل والذبائح منه، وهو هنا خاص بالذبائح عند كثير من أهل العلم بالتأويل**. وأما ما حرم علينا من طعامهم فليس بداخل تحت عموم الخطاب؛

قال ابن عباس: قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾، ثم استثنى فقال: (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ) **يعني ذبيحة اليهودي والنصراني؛ وإن كان النصراني يقول عند الذبح: باسم المسيح واليهودي يقول: باسم عزير؛ وذلك لأنهم يذبحون على الملة**.

وقال عطاء: **كُلْ من ذبيحة النصراني وإن قال باسم المسيح؛ لأن الله جل وعز قد أباح ذبائحهم، وقد علم ما يقولون. وقال القاسم بن مخيمرة: كل من ذبيحته وإن قال باسم سرجس - اسم كنيسة لهم** - وهو قول الزهري وربيعة والشعبي ومكحول؛ وروي عن صحابيين: عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت.

وقالت طائفة: إذا سمعت الكتابي يسمي غير اسم الله عز وجل فلا تأكل؛ وقال بهذا من الصحابة علي وعائشة وابن عمر؛ وهو قول طاوس والحسن متمسكين بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾. وقال مالك: أكره ذلك، ولم يحرمه.

قلت: العجب من الكيا الطبري الذي حكى الاتفاق على جواز ذبيحة أهل الكتاب، ثم أخذ يستدل بذلك على أن التسمية على الذبيحة ليست بشرط فقال: ولا شك أنهم لا يسمون على الذبيحة إلا الإله الذي ليس معبوداً حقيقة مثل المسيح وعزير، ولو سموا الإله حقيقة لم تكن تسميتهم على طريق العبادة، وإنما كان على طريق آخر؛ واشتراط التسمية لا على وجه العبادة لا يعقل، ووجود التسمية من الكافر وعدمها بمثابة واحدة؛ إذا لم تتصور منه العبادة، ولأن النصراني إنما يذبح على اسم المسيح، وقد حكم الله بحل ذبائحهم مطلقاً، وفي ذلك دليل على أن التسمية لا تشترط أصلاً كما يقول الشافعي[1].

إشكالات فيما ذكروه من تأويل:

هذا ماذكره القرطبي في تأويل الآية، وهو تأويل يُحلّ ذبائح اليهود والنصارى، من غير كراهية ولا حرج، وهو تأويل يتعارض مع القرآن الكريم تعارضاً واضحاً، وذلك لأنه تعالى قال:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٢١).

وهو نص واضح عامّ في حرمة ما لم يذكر اسم الله عليه، فلا يجوز أكله، سواء

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، سورة المائدة: ٦/ ٧٦

ذبحه المشركون من أهل الأوثان، أم ذبحه المشركون من أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى.

ولا يصحّ تخصيص هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ فإنه ليس واضحاً في حِلّ ذبائح المشركين من أهل الكتاب، الذبائح التي يذكرون عليها اسم المسيح، أو اسم عزير، أو اسم غيرهما مما لم يأذن به الله.

وذلك لأنه ليس هناك دليل على أن المراد بالطعام في الآية هي الذبائح، فإن الطعام لم يعرف استعماله بمعنى الذبائح. وجاء في القرآن هذااللفظ -لفظ الطعام أكثر من عشر مرات، ولكن لم يستعمل بمعنى الذبائح، ولو مرة واحدة.

وسياق الآية أيضاً ليس سياق الحديث عن الذبائح، حتى يفسر لفظ الطعام بالذبائح بدليل السياق.

وإذاً، فلا يمكن أن يخصص الواضح بغير الواضح، أو يستثنى من الواضح ما ليس بواضح، كما نسب إلى ابن عباس. وكم نُسِب إلى ابن عباس ما هو منه بريء!

ولا عجب إن ذهب الكيّا الطبري إلى أن التسمية على الذبيحة ليست بشرط، فإن القول بحلّ ذبائح اليهود والنصارى لا يعني إلا ذلك.

فإن كان القرطبي متعجباً مما قاله الكيّا الطبري، فليتعجب قبل ذلك من القول بحلّ ذبائح المشركين من أهل الكتاب، فإنه إن لم تكن التسمية شرطاً عليهم، كيف تُشترط على غيرهم؟

ما قيل في تأويل المحصنات:

قال البغوي في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية.

«اختلفوا في معنى «المحصنات» فذهب أكثر العلماء إلى أن المراد منهن

الحرائر، وأجازوا نكاح كل حرة، مؤمنة كانت أو كتابية، فاجرة كانت أو عفيفة، وهو قول مجاهد، وقال هؤلاء: لا يجوز للمسلم نكاح الأمة الكتابية لقوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (سورة النساء: ٢٥) جوّز نكاح الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وجوّز أكثرهم نكاح الأمة الكتابية الحربية، وقال ابن عباس: لا يجوز وقرأ ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (التوبة: ٢٩)، فمن أعطى الجزية حل لنا نساؤه ومن لم يعطها فلا يحل لنا نساؤه.

وذهب قوم إلى أن المراد من المحصنات في الآية: العفائف من الفريقين، حرائر كُنَّ أو إماء، وأجازوا نكاح الأمة الكتابية، وحرموا البغايا من المؤمنات والكتابيات، وهو قول الحسن.

وقال الشعبي: إحصان الكتابية أن تستعف من الزنا، وتغتسل من الجنابة[1].

تأويل يتعارض مع الآيات:

نقول: ما ذكره البغوي من حلّ نكاح كل حرّة، مؤمنة كانت أو كتابية، فاجرة كانت، أو عفيفة، ذمّية كانت أو حربية، لا يوافق محكم الكتاب والسنة، فالمحكم في أمر النكاح قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة البقرة: ٢٢١).

نزلت هذه الآية في وقت متأخر في المدينة، والمجتمع الإسلامي كان يضمّ

---

(١) البغوي، معالم التنزيل- سورة المائدة: ٣/ ١٩

حينئذ جميع الطوائف الموجودة في جزيرة العرب، فقد أسلمت جماعة من المشركين الوثنيين، وأسلمت جماعة من مشركي اليهود، وأسلمت جماعة من مشركي النصارى، وأسلمت جماعات من شتى الطوائف، فإن كان حكم الكتابية يختلف عن حكم المشركة، كان لا بد أن يفصّل الوحي حكم الاثنتين، حتى يكون التشريع كاملاً شاملاً، ولا يكون في الأمر إبهام.

ثم جاء توجيه مكرر في أمر النكاح، وكان التركيز على شرط الإيمان، فالزوج لا بد أن تكون مؤمنة، سواء كانت من الحرائر، أم كانت من الإماء. قال تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾[1]

فإذا كان القرآن لا يبيح نكاح المشركات بحالٍ من الأحوال، سواء كن من الحرائر، أم كن من الفتيات. ويجعل الإيمان شرطاً في النكاح، حيث لا نكاح لمسلم إذا لم يتحقق هذا الشرط، فهل يبقى في الأمر متّسع للقول بحل نكاح الكتابيات غير المؤمنات؟

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ ﴾ قاعدة ثابتة محكمة، لا تحتمل أي تخصيص، أو أي استثناء، فإذا كانت الكتابيات غير مؤمنات، وغير موحّدات، وليس هناك أي مبرر لاعتبارهن من المؤمنات الموحّدات، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد الإيمان إلا الكفر؟ وماذا بعد التوحيد إلا الشرك؟

نقول إذا كانت الكتابيات غير مؤمنات، فلا فرق بينهن وبين الوثنيات، ويكنّ حراماً على المسلم مثل الوثنيات، سواء بسواء.

هنا يأتي سؤال: فما تأويل آية المائدة؟ وكيف يمكن التخلص من ذلك التعارض، الذي يوجد بينها وبين غيرها من الآيات في موضوع الطعام والنكاح؟

---

(١) سورة النساء: ٢٥

ليس هناك أيّ تعارض:

نقول: ليس هناك أيّ تعارض بين آية المائدة وبين أخواتها اللاتي تناولن موضوع الطعام والنكاح، فهيّا بنا إلى الآية حتى نمعن النظر فيها من جديد. ونتأمل في لفظها وأسلوبها، ونظمها وسياقها.

بدأت آية المائدة بقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ وتلك العبارة الوجيزة تعطينا قاعدة ثابتة مهمة جداً في أمر الحلال والحرام، وهي أن ربنا سبحانه وتعالى ما أحل لنا إلا الطيبات، فالشيء الذي يذكر بعد ذلك لا بد أن يكون طيباً.

فإذا قيل بعد ذلك: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡ ﴾ فلننظر ما المراد بالطعام في الآية؟ إن كان المراد بالطعام ذبائح أهل الكتاب، فهل تكون الذبائح التي لا يذكرون اسم الله عليها، ويذكرون عليها أسماء غير الله، هل تكون تلك الذبائح من الطيبات؟ وهل يمكن أن تعتبر تلك الذبائح من الطيبات بعد قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ ﴾

وهل يمكن أن يسمي الله شيئاً «فسقاً»، ويكون ذلك الفسق من الطيبات؟

ثم هل يصح أن يراد بالطعام الذبائح؟ وهل ورد الطعام بمعنى الذبائح في القرآن؟

وهل تطلق العرب لفظ الطعام على الذبائح؟

وإذا لم يصحّ هذا، ولا ذاك فلننصرف عن هذا المفهوم، ولنلتمس مفهوماً آخر، يكون بعيداً من تلك الإشكالات.

وهكذا الأمر في الشطر الثاني من الآية:

﴿ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ ﴾

فلننظر، ما معنى المحصنات؟ وهل يفهم من لفظ المحصنات نكاح كل حرةٍ، مؤمنةً كانت أو كتابيةً، فاجرة كانت أو عفيفة، ذمّية كانت أو حربيّة؟

وإذا كانت تلك الإباحيّة في النكاح، فالإباحيّة لا تحتاج إلى تشريع من الله. وإنما هي من عمل الشيطان، والشيطان أخذ على نفسه أن ينجز هذا العمل بكل لباقة، وهو كفيل بأن يؤدّي الناس إلى حضيضها!

ولا ننس أبداً أن الله ما أحل لنا إلا الطيبات، فهل الكتابية، أو الفاجرة، أو الذمية، أو الحربية من الطيبات؟

ولننظر، هل هذا المفهوم - بروحه، ونتائجه - يتلاءم مع قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[1]

وإذا رأينا هذا التأويل يقذفنا في تلك المناكير الكُبر، ورأيناه يصطدم اصطداماً واضحاً مع محكمات القرآن والسنة، فلننصرف عنه انصرافاً، ولنبحث عن تأويل آخر يكون سليماً من تلك البلايا، فما هو ذلك التأويل السليم يا ترى؟

سبب نزول الآية:

إذا أردنا التوصل إلى تأويل سليم من تلك البلايا، فلا بد أن نعرف أولاً سبب نزول تلك الآية، وهذا السبب يفهم من الآيات نفسها، لا من الروايات، فإن الروايات هي التي قذفتنا في تلك المهاوي، التي نريد الخروج منها!

والتأمل في سبب نزول تلك الآية يذكّرنا آيات سورة الأعراف، وهي قوله تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ٢٢١

﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴾ (١٥٥-١٥٩)

حقائق تستنبط من تلك الآيات:

التأمل في تلك الآيات يفتح عيوننا على حقائق كبيرة ذات أهمية بالغة، وهي كما يلي:

- سيدنا موسى ذهب بصفوة من قومه إلى الطور حتى يستغفروا جميعاً للذنب الذي تورط فيه القوم من اتخاذ العجل، وحتى يطلبوا من ربهم الرحمة، وكان موسى يدعو، والقوم يؤمّنون.

- وكان أن استجاب الله دعاءهم، ووعدهم بالرحمة، ولكن بشرط التقوى، وإيتاء الزكاة، والإيمان بالآيات.

- وكان من لوازم هذا الإيمان اتباع الرسول النبي الأمي لمن أدرك زمانه.

• وكان من صفات هذا الرسول في كتابهم، وهو التوراة والإنجيل، أنه يُحِلُّ لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

فقد مرّت على بني إسرائيل أزمان وأحقاب، قد حرّمت عليهم فيها كثير من الطيبات، بسبب ظلمهم وبغيهم، كما قال تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٦).

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٦٠-١٦١).

• وكان هذا الوعد، أي: وعد إحلال الطيبات، وتحريم الخبائث مرهوناً باتباع ذلك الرسول، فالذين يتبعون ذلك الرسول هم الذين تحل لهم الطيبات، وتحرم عليهم الخبائث، ويُوضَعُ عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

• وأما الذين يناوؤون الرسول، ويُعرضون عن اتباعه، فليس لهم من تلك الرحمة نصيب، وليس لهم منها حبل ولا بعير، وهم يظلّون في شقائهم، ويتقلبون في خسرانهم، وحرمانهم الذي جلبه عليهم بغيُهم وظلمهم.

فحينما قيل للمؤمنين:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

فـ ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وهم ذكروا في الآية مرتين، هم الذين آمنوا

بالرسول النبي الأمي، دون الكفار الأشقياء منهم، فطعامهم حلال للمؤمنين، وطعام المؤمنين حلال لهم، ونساؤهم حلال للمؤمنين، ونساء المؤمنين حلال لهم.

وبلفظ آخر: هم أصبحوا أسرة واحدة، وكتلة واحدة، تربطهم آصرة الإيمان، وتجمعهم أخوة الإسلام، فهم منهم، وهم منهم.

وهذا الإعلان كان إنجازاً وتحقيقاً لذلك الوعد الذي بشرت به كتبهم، وبشرت به رسلهم وبشرت به سورة الأعراف. وكان إشعاراً بأنهم أصبحوا عُضواً من ذلك الجسد الكبير العظيم، الذي يعرف بالأمة المسلمة. وليس هناك أيّ فرق يفرق بينهم.

الأصل في معنى المحصنات:

ومما لا يفوتنا التنبيه إليه أن لفظ المحصنات جاء في القرآن عدة مرات، وفي كل مرة جاء للمؤمنات، فأحياناً يأتي السياق بلفظ المحصنات فقط، وأحياناً يضم إليه لفظ المؤمنات، شرحاً وتفسيراً لمعنى المحصنات، مثل ما نرى في سورة النور، حيث قيل أولاً: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾... الآية

ثم قيل مرة أخرى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.. الآية

فهذه الآية الأخيرة تفسر الآية الأولى وتبين أن المراد بالمحصنات هن المؤمنات، وحَدُّ القذف لا يقام إلا على من قذف مؤمنة، وأما قذف الكافرة فلا يستوجب حد القذف، وإنما يكون عليه تعزير إذا اقتضى الأمر.

وآية النساء (رقم: ٢٥) ورد فيها لفظ المحصنات مرتين؛ مرة بوصف المؤمنات، ومرة أخرى بدون هذا الوصف، لأن الأولى أغنت عن إعادتها في الأخرى.

وأما آية النساء (رقم: ٢٤) فلفظ المحصنات فيها، وإن كان بمعنى (ذوات الأزواج) ولكنه في نفس الوقت يتضمن معنى المؤمنات، فإن الحديث هنا يدور

حول ما حرّم على المؤمنين من النساء وحول ما أحلّ لهم، والمؤمنون لا يحل لهم إلا نكاح المؤمنات.

وهكذا الأمر في آية سورة المائدة، فلفظ "المحصنات" جاء فيها مرتين؛ وهو يتضمن معنى الإيمان في كلتا المرتين، ويكون معنى الآية: المؤمنات من أهل الكتاب والمؤمنات من غير أهل الكتاب.

لا يكون الإحصان إلا بالإسلام:

وينبغي أن نعرف أن الإحصان لا يكون إلا بالإسلام. فالإسلام هو أكبر حصن للمرأة. فإذا دخلت المرأة في هذا الحصن صانت عرضها وكرامتها، وإن كانت خارج هذا الحصن كانت مهددة بالضياع، وكانت في خطرمن عرضها وكرامتها.

نعم، الحرية أيضاً حصن، والزواج أيضا حصن، ولكن تلك الحصون ليست منيعة محصّنة، وهي لا تكفي لطهارة المرأة وحصانتها، فقد تَفْجُر المرأة وهي حرة، وقد تفجر وهي ذات زوج، ولكن المرأة المسلمة التي ذاقت حلاوة الإسلام، وخالطت قلبها بشاشة الإيمان لا يمكن أن تكون فريسة للشيطان، فهي تجود بنفسها، ولا تجود بعرضها. هي تختار لنفسها المنون، ولا ترضى أبداً أن تقع في الفجور.

فربنا سبحانه وتعالى لا يسمى المرأة محصنة إلا إذا حصنت نفسها بالإيمان. وقد نستأنس هنا بما روي عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ قال: إحصانها: إسلامها[1].

وروي عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه نفس الكلام، حيث قال:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٣/ ٩٢٣

﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ ﴾ قال: إحصانها إسلامها[1].

موجز الكلام أن تلك الآية، التي هي موضوع حديثنا، لا تبيح للمؤمنين ذبائح أهل الكتاب، ولا تبيح لهم نساءهم، وإن كان هناك تأويل يبيح للمسلمين ذبائح أهل الكتاب، ويبيح لهم نساءهم، فهو تأويل يستوجب إعادة النظر، حيث يخالف ذلك التأويل محكم الكتاب والسنة.

مثال آخر:

قال تعالى:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٥).

ما قيل في تأويل الآية:

قال الإمام الرازي وهو يفسر الآية الأولى من هاتين الآيتين:

فقوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ إلا هذه الأربعة، مبالغة في بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة، وذلك لأنه لما ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات والمحللات إلا بالوحي، وثبت أنه لا وحي من الله تعالى إلا إلى محمد عليه الصلاة والسلام، وثبت أنه تعالى يأمره أن يقول: إني لا أجد فيما أوحي إلي محرماً من المحرمات إلا هذه الأربعة، كان هذا مبالغة في بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة.

واعلم أن هذه السورة مكية، فبيّن تعالى في هذه السورة المكية أنه لا محرم إلا هذه الأربعة، ثم أكد ذلك بأن قال في سورة النحل: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة النحل: ١١٥).

---

(١) تفسير ابن جرير: ٨/ ٢٠٠- والمغني لابن قدامة: ٨/ ١٧٥

وكلمة (إنما) تفيد الحصر، فقد حصلت لنا آيتان مكيتان تدلان على حصر المحرمات في هذه الأربعة، فبيّن في سورة البقرة أيضاً، وهي مدنية، أنه لا محرم إلا هذه الأربعة، فقال: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١٧٣) وكلمة (إنما) تفيد الحصر، فصارت هذه الآية المدنية مطابقة لتلك الآية المكية، لأن كلمة (إنما) تفيد الحصر، فكلمة (إنما) في الآية المدنية مطابقة لقوله: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾ إلا كذا وكذا في الآية المكية، ثم ذكر تعالى في سورة المائدة: قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ هو ما ذكره بعد هذه الآية بقليل، وهو قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ (المائدة:٣) وكل هذه الأشياء أقسام الميتة، وأنه تعالى إنما أعادها بالذكر لأنهم كانوا يحكمون عليها بالتحليل، فثبت أن الشريعة من أولها إلى آخرها كانت مستقرة على هذا الحكم وعلى هذا الحصر.

ويزيد رحمه الله فيقول:

قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ آية مدنية نزلت بعد استقرار الشريعة، وكلمة (إنما) تفيد الحصر، فدلت هاتان الآيتان على أن الحكم الثابت في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام من أولها إلى آخرها ليس إلا حصر المحرمات في هذه الأشياء.

ويقول رحمه الله: لما ثبت بمقتضى هاتين الآيتين حصر المحرمات في هذه الأربعة كان هذا اعترافاً بحلّ ما سواها[1].

---

(١) تفسير الفخر الرازي، سورة الأنعام: ١٣/ ١٦٨

تأويل لا يوافق القرآن والسنة:

هذا ما قاله الإمام الرازي في تأويل تلك الآية، وهو تأويل لم يتفرد به الرازي، فهناك من علماء التفسير من يقول بمثل قوله[1].

ولكن هل يستساغ هذا التأويل؟ هل يستساغ مع أنه لا يوافق محكم الكتاب والسنة؟ فالمحرمات ليست محصورة في تلك الأربعة، فهناك أشياء أخرى غيرها، حرمها القرآن، وحرمتها السنّة.

فمما يدل على تحريم ما ليس من تلك الأربعة قوله تعالى:

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة النحل: ٨).

فالخيل والبغال والحمير ما خلقها الله إلا للركوب والزينة، وهي ليست من الطعام، و لا يحل أكلها إلا إذا حَلَّ أكلُ الميتة وما في حكمها.

روى الإمام مسلم: حدثنا ابن أبي عمر حدثنا أبي ومعن بن عيسى عن مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال نهى رسول الله ﷺ عن أكل الحمار الأهلي يوم خيبر، وكان الناس احتاجوا إليها[2].

والخيل والبغال تكون في حكم الحمار، فإنها ذكرت مع الحمار في نسق واحد، وكلها جنس واحد، بل أسرة واحدة.

جماع القول أن الله تعالى ما خلق لأكل الإنسان إلا الأنعام، أو بهيمة الأنعام، وأما ما سواها من الحيوان فليس شيء منه للأكل، قال تعالى:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (سورة النحل: ٥).

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، سورة الأنعام: ٣/ ٣٥٤، والتحرير والتنوير لابن عاشور- سورة الأنعام: ٧/ ١٠٤

(٢) صحيح مسلم، باب تحريم أكل لحم الحمر: ٦/ ٦٣/ ٥١٢١

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (سورة المائدة: ١).

فكل ما ليس من الأنعام، أو بهيمة الأنعام، فهو حرام على الإنسان، ولا يحل له أكله.

روى البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ثعلبة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع[1].

وروى مسلم: حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبي حدثنا شعبة عن الحكم عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال نهى رسول الله ﷺ عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير.[2]

فرسولنا عليه السلام نهى عن كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، لأنه ليس من الأنعام، وكل ما ليس من الأنعام، فهو حرام.

وهنا يأتي سؤال: فما تأويل الآية إذاً؟

تأويل الآية كما يمليه علينا السياق:

إن كنا نحب للآية تأويلاً أقوم، وأسلم من تلك الآفات التي وقع فيها من وقع، فلنرجع إلى سياقها، ولنتدبر تلك الآيات التي سبقتها، وهي كما يلي:

* ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأنعام: ١١٨-١١٩).

* ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ

---

(١) صحيح البخاري، باب أكل كل ذي ناب: ٣/ ٥٨٤/ ٥٥٣٠

(٢) صحيح مسلم، باب تحريم أكل كل ذي ناب: ٦/ ٦٠/ ٥١٠٣

إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢١).

* ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٣٦)

* ﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ (١٣٨-١٤٠)

* ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٢-١٤٤)

تلك بعض الآيات التي سبقتها، وهي تساعدنا في فهم سياقها وتساعدنا في استيعاب الجو الذي يحيط بها.

فالحديث كله يدور حول الأنعام دون سائر الحيوانات والحشرات، ودون غيرها من المكروهات والمحرمات.

الحديث كله يدور حول الأنعام التي أنعم الله بها على عباده، حتى يأكلوا من

رزقه ويشكروا له.

وكان لائقاً بالناس، بل كان واجباً عليهم أن يشكروا الله على هذه النعم العظيمة، ويستمتعوا بها بطريقة ترضي ربهم.

وكان واجباً عليهم أن يعرفوا فيها فضله، ويؤتوا حقه، ويذكروا عليها اسمه، ولا يُهِلُّوا بها لغيره.

وكان واجباً عليهم أن يكونوا حنفاء لله غير مشركين به.

وكان واجباً عليهم أن يكبروا الله على ما هداهم ورزقهم، ويكونوا من المحسنين.

وكان واجباً عليهم ألا يحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله، ولا يقولوا من عندهم أو بوحي من شياطينهم: هذا حلال وهذا حرام. فكله في شرع الله حلال!

ولكنهم نسوا واجبهم، ولم يشكروا ربهم، وحرموا على أنفسهم وعلى غيرهم كثيراً مما أحل الله لهم، وجعلوا فيها نصيباً لشركائهم، وما كان لشركائهم كان حِجراً على غيرهم، فهو لا يُركب ولا يُحلب ولا يُؤكل! مع أن الله جعلها لهم حتى يركبوها ويحلبوها ويأكلوها!

وحرموا كثيراً من الأنعام على أزواجهم، وجعلوها خالصة لذكورهم.

وقالوا: كل ما نفعله من عند الله، ولو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء!

فجاء قوله تعالى يفنّد تلك المزاعم كلها، ويعيد الأمور إلى نصابها:

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة الأنعام : ١٤٥).

أي: هذه البدع التي ابتدعتموها في شأن الأنعام كلها باطلة، وكلها مرفوضة عند الله، وما جعله الله حلالاً طيباً لا يكون حراماً بتحريمكم وتحريم طواغيتكم.

فتلك الأنعام - الثمانية أزواج - كلها حلال طيب عند الله إلا أن تكون ميتة، فالميتة من تلك الأنعام حرام، والدم المسفوح حرام، ولحم الخنزير حرام، وما ذبح منها لغير الله حرام، وأما بعد ذلك فلا يقال لشيء من تلك الأنعام: إنه حرام.

فالحديث كله يدور حول الأنعام، وما ذُكِر الخنزير هنا إلا بسبب كونه من الأنعام، ولكن الله حرّمه لأنه رجس، وكل ما كان رجساً، أو خبيثاً، فهو في دين الله حرام.

فالخنزير من الأنعام حرام، وغير الأنعام كله حرام، وحصر الحرمة في الأربعة التي ذكرت في الآية شيء ليس عليه برهان، وهو مخالف للسنة، ومخالف للقرآن.

*** *** ***

الضابط الخامس

يرجّح ما كان له شاهد في القرآن

إذا كان للآية وجه له شاهد في العبارة، أو شاهد في القرآن، ووجه آخر ليس له شاهد، لم يؤخذ إلا ما كان له شاهد.

نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (سورة الأنفال: ٢٤).

ما قيل في تأويل الآية:

ففي تأويله عشرة أقوال:

أحدها: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس وبه قال سعيد بن جبير.

والثاني: يحول بين المؤمن وبين معصيته، وبين الكافر وبين طاعته. رواه العوفي عن ابن عباس وبه قال الضحاك والفراء.

والثالث: يحول بين المرء وقلبه، حتى لا يتركه يعقل. قاله مجاهد.

والرابع: أن المعنى هو قريب من المرء لا يخفى عليه شيء من سره، كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾. وهذا معنى قول قتادة.

والخامس: يحول بين المرء وقلبه، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً، إلا بإذنه. قاله السدي.

والسادس: يحول بين المرء، وبين هواه. ذكره ابن قتيبة.

والسابع: يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه، من طول العمر والنصر وغيره.

والثامن: يحول بين المرء وقلبه بالموت، فبادروا الأعمال قبل وقوعه.

والتاسع: يحول بين المرء وقلبه بعلمه، فلا يضمر العبد شيئاً في نفسه، إلا والله

عالم به، لا يقدر على تغييبه عنه.

والعاشر: يحول بين ما يوقعه في قلبه، من خوف أو أمن، فيأمن بعد خوفه، ويخاف بعد أمنه.

وحكى الزجاج أنهم لما فكروا في كثرة عدوهم وقلة عددهم فدخل الخوف قلوبهم، أعلمه الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه، بأن يبدله بالخوف الأمن، ويبدل عدوه بالقوة الضعف[1].

الراجح من تلك الأقوال:

تلك عشرة أقوال في تأويل الآية. والرابع، والتاسع متشابهان، فأيٌّ من تلك الأقوال أرجح، وأقرب إلى صحة المعنى؟

فالموقف يملي أن نميل إلى ترجيح ما يوجد له شاهد، أو شواهد في القرآن، دون غيره من الوجوه، فإذا تأملنا في تلك الوجوه من هذه الناحية، وجدنا القولَ الرابع له شاهد من قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (سورة ق: ١٦).

زد إلى ذلك، تلك الآيات التي تذكر كونه تعالى عليماً بذات الصدور، وأنه يعلم السرّ وأخفى.

وهناك في أسلوب الآية أيضاً إشارة إلى رجحان هذا التأويل؛ فإنه لو كان المقصود ما جاء في الأقوال الأخرى من معنى الحيلولة بين شيء وشيء، مثل معنى الحيلولة بين المرء وهواه، أو بين الكافر وطاعة الله، لو كان ذلك مما تقصده الآية، لتكرَّرِ (بين) في الآية، وقيل: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ (الأنفال: ٢٤).

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، سورة الأنفال: ٢٤

مثلما تكرر في قوله تعالى:

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ (سورة سبأ: ٥٤).

مثال آخر:

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ (سورة النمل: ٨٢).

الدابة في أقوال المفسرين:

ما هي الدابة التي نبّأ الله بإخراجها من الأرض؟ والتي تكلم الناس، وتشهد أنهم كانوا بآيات الله لايوقنون!

قال الإمام فخرالدين الرازي، وهويفسر تلك الآية، ويتحدث عن تلك الدابة:

«والناس تكلموا فيها من وجوه:

أحدها: في مقدار جسمها، وفي الحديث أن طولها ستون ذراعاً.

وروي أيضا أن رأسها تبلغ السحاب.

وعن أبي هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب.

وثانيها: في كيفية خِلْقتها، فروي أن لها أربع قوائم، وزغب، وريش، وجناحان.

وعن ابن جريج في وصفها: رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن إيّل، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة بقرة، وذنب كبش، وخُفُّ بعير.

وثالثها: في كيفية خروجها: عن علي عليه السلام أنها تخرج ثلاثة أيام، والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها.

وعن الحسن: لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام.

ورابعها: في موضع خروجها:

«سئل النبي ﷺ من أين تخرج الدابة؟ فقال: من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى: المسجد الحرام» وقيل: تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية.

وخامسها: في عدد خروجها: فروي أنها تخرج ثلاث مرات:

تخرج بأقصى اليمن، ثم تكمن، ثم تخرج بالبادية، ثم تكمن دهراً طويلاً، فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله، فما يَهُولُهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم، عن يمين الخارج من المسجد، فقوم يهربون، وقوم يقفون نظارة.

واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور، فإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قُبلَ، وإلا لم يُلتفتْ إليه[1].

ذلك ملخص ما قاله أئمة التفسير في تأويل تلك الآية، أو في تأويل تلك الدابة.

الدابّة في الحديث:

والصحيح عن النبي عليه السلام في شأن تلك الدابة هو خبر خروجها فقط، حيث روى الإمام مسلم، قال:

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أَنْسَهُ بعدُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج

---

(١) مفاتيح الغيب - سورةالنمل: ٢٤/ ٥٧٢

الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً.»[1]

وقال: حدثنا يحيى بن أيوب وقتيبة بن سعيد وابن حجر قالوا :حدثنا إسماعيل - يعنون ابن جعفر - عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة»[2].

ذلك ما ورد في الصحيح عن تلك الدابة، وأما التفاصيل التي ذكروها في شأنها فلا أصل لها، ولا يبعد أن تكون هي الأخرى من الإسرائيليات المنكرة، التي أُمِرنا باجتنابها.

قال صاحب تفسير البحر المحيط:

«والظاهر أن الدابة التي تخرج هي واحدة. وروي أنه يخرج في كل بلد دابة مما هو مبثوث نوعها في الأرض، وليست واحدة، فيكون قوله: دَابَّةً اسم جنس. واختلفوا في ماهيتها، وشكلها، ومحل خروجها، وعدد خروجها، ومقدار ما يخرج منها، وما تفعل بالناس، وما الذي تخرج به، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً، ويكذّب بعضه بعضاً فاطّرحنا ذكره، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح، وتضييع لزمان نقله»[3].

ما الدابـّـة؟

وهنا يثور سؤال: فما تلك الدابة؟ الدابّة التي تُكلم الناس، وتشهد أنهم كانوا بآيات الله لا يوقنون!

قبل أن نعلم ماتلك الدابة؟ وما هويّتها؟ نرى من الضروري أن نعلم وقت

---

(١) صحيح مسلم- باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض: ٨/ ٢٠٢/ ٧٥٧٠

(٢) صحيح مسلم- باب في بقية من أحاديث الدجال: ٨/ ٢٠٧/ ٧٥٨٤

(٣) أبو حيان الأندلسي- تفسير البحر المحيط- سورة النمل: ٧/ ٧٢

خروجها، ونعلم مهمّتها، التي تقوم بها؛ فإننا إذا علمنا مهمّتها، وعلمنا وقت خروجها، تيسّر لنا علم هويّتها.

يبدو بعد التأمل في سياق الآية أن هذا من أخبار يوم القيامة، وليس من أحوال هذه الدنيا؛ فإن السياق سياق البعث بعد الموت، والحديث كله يدور حول الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ جاء مرتين في هذا السياق، حيث جاءت هذه الآية، ثم جاءت تلك الآيات:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ (النمل: ٨٣-٨٥).

فإن كان في الآية الأولى نوع من الاحتمال، فالآية الأخرى تدرأ هذا الاحتمال، ولا تدع مجالاً للقول بأن هذا يحدث قبل يوم القيامة.

وأما مهمّة تلك الدابة فهي أن تكلّم الناس يوم القيامة، وتشهد على الكفار، أنهم كانوا بآيات الله لا يوقنون.

ولسائل أن يسأل: من أين لتلك الدابة أن تعرف أحوال الناس، وتشهد عليهم؟ فإن الشهادة والمعرفة لا تكون إلا عن اطلاع ومشاهدة. وتلك الدابة لم تشهد أحوال الناس، ولم تحضرهم حين كفروا وأنكروا، فكيف شهادتها؟ وما قيمة شهادتها إذا كانت بدون اطلاع ومشاهدة؟

نقول: هذا سؤال وجيه ومليح، فليس من المعقول أن تشهد تلك الدابة بما لم تشهده، ولم تشاهده، بل المفروض أن تشهد، إذا شهدت، عن اطلاع دقيق واسع، ومشاهدة سافرة واضحة.

وهنا يثور سؤال: فما تلك الدابة، التي شاهدت أحوال الناس جميعاً، ثم هي تشهد يوم خروجها بكل ما رأت وما سمعت؟

أحسن تأويل لتلك الدابّة:

إن كنا نحبّ أن نعرف الخبر اليقين في أمر تلك الدابة، فأحسن شيء نرجع إليه في أمرها هو القرآن؛ فإن من عادة القرآن أنه يذكر الأشياء إجمالاً، ثم يعود إليها فيفصلها تفصيلاً، فإذا رجعنا إلى القرآن في أمر تلك الدابة وجدنا سورة كاملة تتحدث في شأنها، ولعلها أحسن تفسير لتلك الدابة، وأجمل تأويل لتلك الآية، قال تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ⑥ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (١-٨)

فالأرض تُحدِّثُ أخبارها بإذن ربها، تحدّث أخبارها يوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم. وهنا يحضرنا ما قاله شاعر عربي قديم، ألا وهو النابغة الذبياني:

عوجوا، فحيوا لنعمٍ دمنـةَ الدارِ ... ماذا تحيونَ من نؤيٍ وأحجارِ
أقوى ، وأقفَـرَ من نُعمٍ ، وغيرّه ... هُوجُ الرّياحِ بهابي التُّربِ ، مَوّارِ
وقفتُ فيها ، سراةَ اليومِ ، أسألُها ... عن آلِ نُعْمٍ ، أمُوناً ، عبرَ أسفارِ
فاستعجمتْ دارُ نعمٍ، ماتكلمنا ... والدارُ، لو كلمتنا، ذاتُ أخبارِ[1]

فالشاعر العربي تمنى لو أن الدار تكلمت، وهو يعرف أن الدار لو تكلمت فهي ذات أخبار.

فربنا سبحانه وتعالى يُنطِق هذه الأرض يوم القيامة، وهي دار لجميع بني آدم، فهي تحدّث أخبارها، وهي شاهد عيان لكل ما حدث على ظهرها من لدن هبوط آدم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهي تشاهد أحوال كل شخص

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ١/ ١١٩

من كثب، وتشاهد إنكار كل منكر، وكفر كل كافر، ومكر كل ماكر، وتشهد عليهم يوم القيامة بكل ما تشهده وتشاهده في ليلهم ونهارهم.

فهذه الأرض، التي نراها اليوم جامدة صامتة، تتحول يوم القيامة إلى دابة ناطقة شاهدة. والآية جاءت على أسلوب قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾. (آل عمران: ٢٧)

فربنا سبحانه وتعالى كما يحوّل الميت إلى الحيّ، ويحوّل الحيّ إلى الميت، فكذلك يحوّل هذه الأرض إلى دابة تكلمهم أن الناس كانوا بآيات الله لا يوقنون.

فكون الأرض دابّة ناطقة شاهدة يوم القيامة، يوجد له شاهد في القرآن، وأما الدابة التي ذكرت في الروايات، وذكرت في التفاسير فهي لا يوجد لها شاهد في القرآن.

ومما لا يحتمل الشك أن التأويل الذي يوجد له شاهد في القرآن يكون أرجح وأولى بالقبول من التأويل الذي لا يوجد له شاهد في القرآن.

مثال ثالث:

قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة المائدة: ٤٨).

ما قيل في تاويل الآية:

ذكر الإمام ابن جرير رأيين في تأويل قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾:

١- يرى بعض الناس أن الخطاب فيه موجّه إلى أمة محمد.

٢- وذهب آخرون إلى أن الخطاب فيه عامّ ،موجّه إلى الأمم كلها.

ثم قال: « أولى القولين في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: لكل أهل ملة منكم، أيها الأمم، جعلنا شِرعةً ومنهاجًا[١].

وقال القاضي ابن عطية :

اختلف المتأولون في معنى قوله عز وجل ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقتادة وجمهور المتكلمين: المعنى لكل أمة منكم جعلنا شرعة ومنهاجاً، أي لليهود شرعة ومنهاج، وللنصارى كذلك، وللمسلمين كذلك[٢].

وقال الإمام ابن كثير:

هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد.... وأما الشرائع، فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفًا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة[٣].

هذا ما قيل في تأويل قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، ولكنه تأويل لا يوجد له شاهد، لا في الآية، ولا في السورة، ولا في القرآن كله، وبالعكس من ذلك، نرى السياق يصرفنا عنه صرفاً، ويلحّ علينا أن نلتمس له تأويلاً آخر.

وإن كنا نحب أن نستوعب الوضع، وندرك خطورته، فلا بد من نظرة واعية متأنية في نص الآية، وأسلوبها، وسياقها، وأشباهها، قال تعالى:

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/ ٣٨٦

(٢) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٣/ ١٨٤

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٩

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٤٨).

والتأمل في الآية يوقفنا أمام لفيف من الأسئلة، يتلو بعضها بعضاً، وهي كما يلي:

لفيف من الأسئلة:

* ما أهواؤهم التي حذّر الله منها، ونهى عن اتباعها، حينما قال: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ؟

* أهي الشرعة والمنهاج المذكور في الآية، والمعمول به عند الناس؟ أم هي شيء آخر غير الشرعة والمنهاج المذكور في الآية؟

* وإذا كانت تلك الأهواء غير الشرعة والمنهاج المذكور في الآية، فما هي؟

* وإذا كانت تلك الشرعة والمنهاج هي التي سميت أهواء، فهل تكون تلك الشرعة و المنهاج من عندالله؟ أم تكون مما ابتدعه الناس، واتخذوه من عند أنفسهم؟

* ما الذي منع ربنا أن يجعلنا أمة واحدة، حيث قال: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً؟

* وهل يحب ربنا أن نكون أمة واحدة، أم يحب أن نظلّ مختلفين؟

* ما موقع قوله تعالى: وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ؟ وهل هو تعليل لقوله تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا؟

* هل وهب الله لكل قوم شريعة مستقلة، ومختلفة عن شريعة غيرهم؟

* وهل كان هذا الاختلاف في الشرائع بقصد الابتلاء، دون رعاية الظروف والأوضاع؟

* ولو كانت شريعة واحدة للناس، هل أدى ذلك إلى فوات هذه المصلحة؟

* وهذه الشريعة، التي أكرمنا الله بها، هل نعتبرها ابتلاء لنا؟

تلك أسئلة تثور في ذهن الباحث، حينما يتدبر الآية، وينعم النظر فيها. ثم إذا عرّج على ما ذهب إليه الناس في تأويلها، وقع في حيص بيص، حيث لا يجد فيه ما يشفيه، ولا يجد فيه الردّ على تلك الأسئلة!

والملاحظ في تأويلهم أنه لا يوجد له شاهد: لا في الآية، ولا في السورة، ولا في القرآن كله، وبالعكس من ذلك، نرى السياق يصرفنا عنه صرفاً، ويلحّ علينا أن نلتمس له تأويلاً آخر، يكون شافياً مقنعاً، ويكون كفيلاً بالإجابة على تلك الأسئلة المتتابعة، فما هو ذلك التأويل، يا ترى؟

قبل أن نحاول الوصول إلى التأويل السليم، لا بد أن نكون على علم ببعض المقدمات.

أسلوب من أساليب القرآن:

كثيراً ما نجد في القرآن أن الفعل يكون من فعل العباد، وهو يُذكر، وكأنه من فعل الله، وذلك لحكمة بالغة يقتضيها السياق، ولا بأس بأن نمرّ على بعض الشواهد لهذه الظاهرة، قال تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (سورة يس: ٨-٩)

قال الزمخشري يشرح تلك الآيات:

«**ثم مثّل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم، بأن جعلهم** كالمغلولين المقحمين: في أنهم لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رؤوسهم له، وكالحاصلين بين سدين، لا يبصرون ما قدّامهم، ولا

ما خلفهم: في أن لا تَأَمُّلَ لهم ولا تَبَصُّر، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله»[1].

وقال أبو السعود:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا ﴾ **تقرير لتصميمهم على الكفر وعدم ارعوائهم عنه** بتمثيل حالهم بحال الذين غُلَّتْ أعناقهم فهي إلى الأذقان أي فالأغلال منتهية إلى أذقانهم فلا تدعهم يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطئون رءوسهم له، فهم مقمحون، رافعون رءوسهم، غاضون أبصارهم، بحيث لا يكادون يرون الحق أو ينظرون إلى جهته. ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ إما تتمة للتمثيل وتكميل له أي تكميل أي وجعلنا، مع ما ذكر، من أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بها أبصارهم، فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلاً، وإما تمثيل مستقل؛ فإن ما ذكر من جعلهم محصورين بين سدين هائلين قد غطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً، كاف في الكشف عن **كمال فظاعة حالهم وكونهم محبوسين في مطمورة الغي والجهالات، محرومين عن النظر في الأدلة والآيات**[2].

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (سورة القصص: ٤١).

قال الزمخشري، وهو يشرح الآية:

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ ﴾ ؟

قلت: معناه: ...... ويجوز: **خذلناهم حتى كانوا أئمة الكفر**. ومعنى الخذلان: منع الألطاف، وإنما يمنعها من علم أنها لا تنفع فيه، وهو المصمم على الكفر الذي لا

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل: ٤/ ٥

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، سورة يس: ٧/ ١٦٠

تغني عنه الآيات والنذر، ومجراه مجرى الكناية؛ لأنّ منع الألطاف يردف التصميم.

والغرض بذكره: التصميم نفسه، فكأنه قيل: صمموا على الكفر، حتى كانوا أئمة فيه، دعاة إليه، وإلى سوء عاقبته.[1]

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة المائدة: ١٣).

قال الزمخشري:

﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ **خذلناهم، ومنعناهم الألطاف، حتى قست قلوبهم، أو أملينا لهم ولم نعاجلهم بالعقوبة، حتى قست.**[2]

وقال الألوسي:

﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ ﴾ يابسة غليظة تَنْبُو عن قبول الحق ولا تلين قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وقيل: **المراد سلبناهم التوفيق واللطف الذي تنشرح به صدورهم، حتى ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون. وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك، إذا ترك تَعاهُدَهُ حتى صدىء، وجعلت أظافيرك سلاحك، إذا لم يقصّها**[3].

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

قال الماوردي:

واختلف أهل العلم في استقبال رسول الله ﷺ بيتَ المقدس، هل كان برأيه

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل: ٣/ ٤١٥-٤١٦

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل: ١/ ٦١٥

(٣) روح المعاني، شهاب الدين محمود الألوسي: ٣/ ٢٦١

واجتهاده، أو كان عن أمر الله تعالى لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾

.....والقول الثاني: **أنه كان يستقبلها برأيه واجتهاده**، وهذا قول الحسن، وعكرمة، وأبي العالية، والربيع. واختلفوا في سبب اختياره بيت المقدس على قولين:

أحدهما: **أنه اختار بيت المقدس ليتألَّف أهلَ الكتاب**، وهذا قول أبي جعفر الطبري[1].

وقال الشوكاني: **لما هاجر، توجه إلى بيت المقدس، تألفاً لليهود، ثم صرف إلى الكعبة**[2].

قد ينسب الله الفعل إلى نفسه:

ولا نريد أن نطيل، فذلك أسلوب شائع في القرآن، حيث يكون الفعل من فعل العباد، وينسبه الله تعالى أحياناً إلى نفسه، لحكمة يقتضيها المقام.

فحينما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، فلا يوجب هذا الخطاب أن تكون تلك الشرعة والمنهاج من شرع الله سبحانه، بل يجوز أن تكون من شرع الناس، كما قال تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الشورى:٢١)

ويشبهه قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (سورة النحل: ١١٦).

---

(١) الماوردي، النكت والعيون: ١/ ١٩٨

(٢) فتح القدير للشوكاني: ١/ ١٩٢

فهناك شرع يأتي من عندالله، عن طريق الرسل والأنبياء، وهو كله نور، وبرهان، وآيات بينات ساطعات.

وهناك شرع يشرعه الطاغوت، حتى يُلهي الناس عن شرع الله، وهو كله أهواء، وكله حيرة وعمى، وكله ظلمات بعضها فوق بعض. ولقد صدق ربنا إذ قال:

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٧).

ذكرت الشرعة في سياق الأهواء:

فالآية التي نتحدث عنها، ذُكرت فيها الشرعة والمنهاج، في سياق الأهواء، حيث قال تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة: ٤٨).

فتلك الشرعة والمنهاج، أحرى أن تكون وليدة الأهواء، بدلا من أن تكون شرع الله، أو شريعة الله.

والشرعة التي تكون وليدة الأهواء هي التي تخص قوماً، دون قوم، وتكون لكل قوم شرعة ومنهاج، ومنه قول القائل:

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ ... ولِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وإِمَامُهَا

وأما شريعة الله، فهي واحدة، لأن مصدرها واحد، قال تعالى:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ

﴿ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (سورة الشورى: ١٣).

وأما ما مرّ علينا من قول الإمام ابن كثير في تأويل الآية، حيث قال:

«وأما الشرائع، فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً، ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفًا فيزاد في الشدّة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة».

فهو قول يعوزه الدليل، والحلال والحرام ليس شيئاً يتغير بتغير الزمان والمكان. وإذا كانت حالات الاضطرار، أو حالات الطوارئ، فلها أحكام طارئة مؤقتة، وتلك لا تسمى شريعة.

وليس ذلك قول ابن كثير فقط، بل هو القول المفضل عند كثير من أهل التفسير، ولكنه على كثرة قائليه قول مرجوح، ليس له أصل، حيث لا نجد له تأييداً من كتاب الله، والذي نجده في كتاب الله، غير ما ذهب إليه ابن كثير ومن سبقه من أهل التفسير، نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٥١-٥٣).

فالآية تفيد أن الرسل كلهم أُمروا أن يكونوا على أمة واحدة، وبالتالي كلهم كانوا على أمّة واحدة، فما معنى الأمّة في الآية؟

معنى الأمّة:

قال الزبيدي:

الإِمَّة: (السُّنَّةُ، ويُضَمُّ، و) أيضًا: (الطَّرِيقةُ)، قال الفرّاء: قُرِىءَ: على أُمَّةٍ، وهي مثلُ السُّنَّةِ، وقُرِىءَ: على إِمَّةٍ، وهي الطَّرِيقَة. وقال الزجّاج في قوله تعالى

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ أي: كانوا على دِينٍ واحد. ويقال: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أي: لا دِينَ له ولا نِحْلَة، قال الشاعر: (وَهَلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكَفُورُ؟)[1]

وقال صاحب ((أضواء البيان)) في شرح معنى الآية:

والمراد بالأمة هنا: الشريعة والملة. والمعنى: وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد الله على الوجه الأكمل من جميع الجهات، وامتثال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك. على حسب ما شرعه لخلقه ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ أي وحدي. والمعنى دينكم واحد وربكم واحد، فلم تختلفون؟ ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ أي تفرقوا في الدين و كانوا شيعاً. فمنهم يهودي، ومنهم نصراني، ومنهم عابد وثن إلى غير ذلك من الفرق المختلفة[2].

الرسل جاؤوا بشريعة واحدة:

فالرسل كلهم جاؤوا بشريعة واحدة، ودعوا أقوامهم إلى شريعة واحدة.

واستقام الناس على شريعة واحدة في فترات من الزمن، وكان يدبّ فيهم الاختلاف كلما طال عليهم الأمد، فكان الرسول يأتيهم، ويعود بهم إلى الطريق، كما قال تعالى:

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة البقرة: ٢١٣).

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا أبو داود، قال: حدثنا همام

---

(١) الزبيدي، تاج العروس: أمم

(٢) أضواء البيان، سورة الأنبياء: ٤/ ٢٤٦

ابن منبه، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله «كان الناس أمةً واحدةً فاختلفوا»[1].

نقول: زيادة «فاختلفوا» في الرواية ليست من قراءة عبد الله، وإنما هي تفسير منه، فوهِم الراوي، وجعله من القراءة. وهناك من المفسرين من ذكر الرواية بدون «فاختلفوا».

ولم يكن الناس على شريعة من الحق، في فترة ما بين آدم ونوح فقط، بل أتباع الرسل، وأصحابهم كلهم كانوا على شريعة من الحق، وهي شريعة واحدة، فكلما دبّ الاختلاف في الناس، وحادوا عن جادّة الحق، جاءهم رسول، أو نبي، ودعاهم إلى دين الله، وشريعة الله، وهو دين واحد، وشريعة واحدة، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (سورة آل عمران: ١٩).

والآية (٢١٣) فيها عموم، وليس فيها ما يدل على اختصاصها بفترة ما بين نوح وآدم، فالأولى تركها على العموم، بدون أي تخصيص.

الدين عقيدة وشريعة:

والتفريق بين الدين والشريعة، أو بين الشريعة والأمّة في الدلالة، وتخصيص الدين، والأمّة بعقيدة التوحيد وما يتصل بها، وتخصيص الشريعة بالأحكام، لا يقترن به دليل، ولا يستند إلى برهان.

فالدين عقيدة وشريعة، كما أن الأمّة عقيدة وشريعة، والله سبحانه وتعالى رضي للناس جميعاً شريعة الإسلام، كما رضي لهم عقيدة الإسلام، والأنبياء والرسل

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن: ٤/ ٢٧٥

كلهم جاؤوا بشريعة الإسلام، كما جاؤوا بعقيدة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ لا يفيد أبداً أنه لا يشاء الاتحاد، وأنه شاء الابتلاء والاختبار باختلاف الشرائع، كما قال ابن كثير:

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ أي: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله.[1]

والشوكاني أيضا يرى نفس الرأي، حيث قال:

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ بشريعة واحدة وكتاب واحد ورسول واحد ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ ﴾ أي ولكن لم يشأ ذلك الاتحاد بل شاء الابتلاء لكم باختلاف الشرائع فيكون)ليبلوكم(متعلقاً بمحذوف دل عليه سياق الكلام وهو ما ذكرنا ومعنى ﴿ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ فيما أنزله عليكم من الشرائع المختلفة باختلاف الأوقات والأشخاص. قوله: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ أي إذا كانت المشيئة قد قضت باختلاف الشرائع فاستبِقُوا إلى فعل ما أُمرتم بفعله، وترك ما أمرتم بتركه[2].

قول فيه نظر:

فهذا القول، الذي مال إليه ابن كثير والشوكاني، ومال إليه غيرهما من أهل التفسير، فيه نظر، وفيه خلل، وليس له سند من القرآن. وإن كنا نريد أن نتوصل إلى التأويل الصحيح لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾

فلنمعن النظر في أخواته، وأشباهه، ولنتأمل، مثلاً، في تلك الآيات:

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٣٠

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٢/ ٦١-٦٢

ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (سورة الأنعام: ٣٥).

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (سورة يونس: ٩٩).

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾ (سورة هود: ١١٨-١١٩).

فتلك الآيات واضحة صريحة في أن ربنا سبحانه وتعالى ما أراد أن يُكره الناس على الإيمان، وما أحب أن يُجبرهم على الطاعة، وما شاء أن يجعلهم أمة واحدة بإرادته القاهرة، ومشيئته الغالبة، ولكن لا يعني ذلك أنه يُرضيه اختلاف الناس.

هو يحب أن يكون الناس أمة واحدة، ويحب أن يتمّ ذلك باختيارهم وإرادتهم، ويتمّ عن طريق اعتصامهم بحبل الله، لا بإكراههم، وإرغامهم، واجبارهم على شرع الله، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (سورة الدهر: ٣).

لا اختبار في اختلاف الشرائع:

فاختبار الناس، وابتلاء الأقوام ليس في اختلاف الشرائع، وإنما هو في استعمال حريّتهم، التي كرّمهم الله بها، فهو يختبرهم، هل هم يحسنون استعمالها بحسن طاعتهم لله، وحسن رجوعهم إلى شرع الله، وأداء شكرهم لنعم الله؟ أم يسيئون استعمالها بكفرهم بأنعم الله، وإصرارهم على معصية الله، ومخالفتهم لشرع الله؟.

فتردّد الإنسان بين نور الحق وظلمة الباطل، وتردّده بين حلاوة الطاعة وفتنة المعصية يكفيه ابتلاء، ويكفيه اختباراً، وليس هناك اختبار أشدّ من ذلك.

فالكيّس اللبيب من آنس نور الحق، وآثره على ظلمة الباطل، واطمأن إلى طاعة الله، ووجل من معصية الله، والعاجز الغبيّ من زهد في نور الحق، وتخبط في الظلام، وغرق في المعاصي، ولم ينشط لطاعة الرحمن.

ففكرة اختلاف الشرائع في أمم الرسل والأنبياء، فكرة سارت بها الركبان، واستولت على الأذهان، ولكن لا يوجد لها أي دليل في القرآن.

عقوبة طارئة، وليست شريعة:

وأما ما حُرّم على اليهود من طيبات الطعام كما ورد في قوله تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٤٦).

أو كما ذُكر في قوله تعالى:

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٦٠-١٦١).

فتلك عقوبة طارئة على ظلمهم وبغيهم، وليست شريعة أصيلة مستقلة لهم، إنما الشريعة الأصيلة المستقلة لهم، ما جاء بها نبيهم، أو أنبياؤهم قبل ظلمهم وبغيهم، حينما كانت الأمور تجري على طبيعتها.

وأما تلك العقوبات الطارئة، فمثلها كمثل شخص هاجمه مرض خطير،

وأنشب فيه أظفاره، فمنعه الطبيب من تناول كثير من الطيبات، حتى يفتر مرضه، وتخف بلواؤه.

والشريعة التي جاء ت بها الرسل السابقون كانت تشبه - في جملتها- تلك الشريعة التي جاء بها خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، والقرآن ما زاد على أن أحل لهم ما حرّموا على أنفسهم من الطيبات، وحرّم عليهم ما أحلوا لأنفسهم من الخبائث، وقد فعلوا ما فعلوا، ظلماً وعلواً، وخروجاً على شرع الله، وإلا فقد بيّن لهم نبيهم، وبين لهم كتابهم، ماذا أحلّ لهم، وماذا حرّم عليهم، ولهذا قيل لهم:

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (سورة النحل: ١١٦).

فأعاد القرآن أمر الحلال والحرام إلى نصابه، ووضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم، وما كان ذلك الإصر، وتلك الأغلال إلا نتيجة لظلمهم وبغيهم.

نحن لا نستبعد أن يكون هناك شيء من الفرق بين شريعتنا وشريعة من قبلنا، ولكن هذا الفرق والاختلاف لم يكن جذرياً، وإنما كان فرقاً جزئياً، واختلافاً فرعياً بمقتضى الظروف والبيئة، وهذا الفرق الجزئي، والاختلاف الفرعي لا يجعلها شريعة مستقلة مفصولة عن شريعتنا.

وكم من الاختلافات تأصّلت واستقرّت في شريعة من قبلنا، وهي مما ابتدعها أهلها بغياً بينهم، وحسداً من عند أنفسهم، وهي التي يسميها القرآن «أهواءهم» ويحذّر الرسول، ويحذّر المؤمنين من اتباعها. وذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

موجز الكلام:

ويمكن أن نوجز هذا البحث في نقاط آتية:

* الاختلاف القائم بين شريعة خاتم الأنبياء، وشريعة من قبله من الرسل والأنبياء لم يكن اختلافاً جذرياً كبيراً، وإنما هو اختلاف جزئي بسيط، بحكم الظروف والبيئة، والظروف والبيئة تعمل عملها في كل زمان، وهو لا يسمى شريعة.

* الله سبحانه وتعالى لم يجعل لكل قوم شرعة ومنهاجاً، بل شرع لهم جميعاً ديناً واحداً، وشريعة واحدة، والناس في كل فترة عدلوا عن ذلك الدين، وعدلوا عن تلك الشريعة، واتخذوا لأنفسهم شرعة ومنهاجاً، حسبما أملت عليهم مصالحهم العاجلة، وأوحت إليهم أهواؤهم الهابطة.

* ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا يدل على اختلاف الشرائع، وإنما يدل على أنه ما أكرههم على الإيمان، وما أكرههم على اتخاذ تلك الشريعة، حتى يكونوا أمة واحدة، بل تركهم وشأنهم، حتى يبلو أخبارهم، ويبلوهم أيهم أحسن عملا.

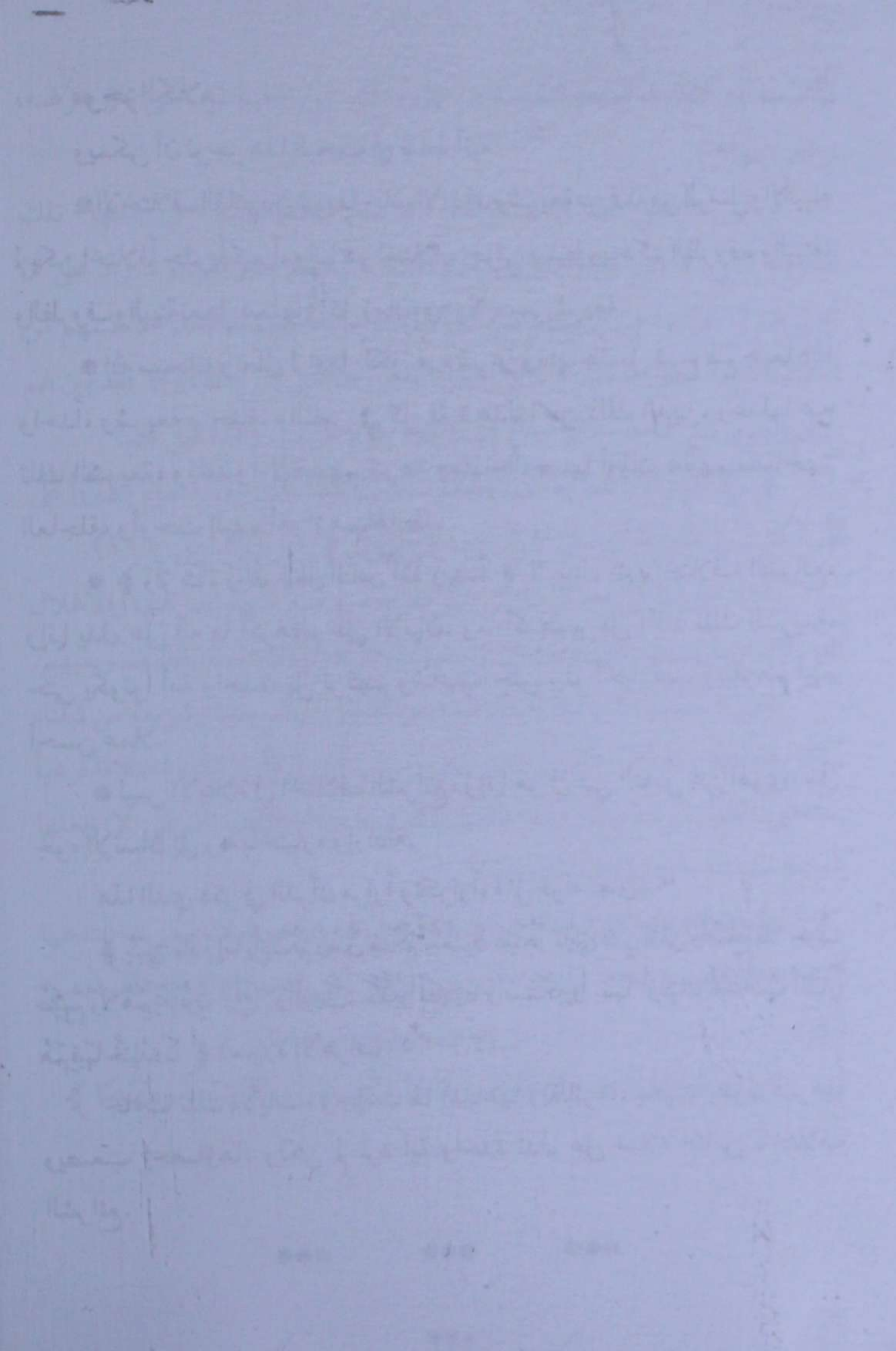
* ليس الابتلاء في اختلاف الشرائع، وإنما هو في نهي النفس عن الهوى، وفي لجوء الإنسان إلى ربه باختياره وإرادته.

هذا الذي ذكر في القرآن مراراً وتكراراً، مثل قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٣٥-٣٦).

جاءت تلك الآيات، وجاءت لها أشباهها ونظائرها، بحيث يطول ذكرها، ويصعب إحصاؤها، ولكن لم ترد آية واحدة تدل على ابتلاء الناس باختلاف الشرائع.

***　　***　　***



الضابط السادس

انسجام التأويل مع نظم الكلام، وسياقه، ولفظه وأسلوبه وروحه ومقاصده.

لا يقبل من التأويل إلا ما كان منسجماً انسجاماً كاملاً مع نظم الكلام وسياقه، ولفظه وأسلوبه، وروحه ومقاصده. مثاله قوله تعالى:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ (سورة الطلاق: ٤).

قيل في تأويل تلك الآية:

وقوله: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى: ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية.

وقد رُوي عن علي، وابن عباس، رضي الله عنهم أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهُر، عملاً بهذه الآية الكريمة، والتي في سورة "البقرة"[1].

هذا ما قيل في تأويل الآية، وهو لا ينسجم أبداً مع نظم الكلام وسياقه، ولفظه وأسلوبه، وروحه ومقاصده، ولنتنبه لما في الآية من نكات وإشارات، وهي كما يلي:

نكتة أولى:

العدّة هي المدّة المضروبة لوقوع شيء، أو تمام شيء، وهذه العدّة يكون فيها

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٨/ ١٤٩

معنى الطول وبُعْدِ الأجل، بحيث يحتاج الإنسان إلى اعتدادها، وإحصائها.

قال الزبيدي: (عِدَّةُ المَرْأَةِ) المُطَلَّقةِ والمُتوفَّى زَوْجُها: هي ما تَعُدُّه مِن (أَيَّام أَقْرائِها) أَو أَيَّامِ حَمْلِها، أَو أَربعة أَشْهرٍ وعَشْر ليالٍ. عِدَّتُها أَيضاً: (أَيامُ إِحْدادِها على الزَّوْجِ) وإِمساكِها عن الزِينةِ، شُهُوراً كان أَو أَقراءً، أَو وَضْعَ حَمْلٍ حَمَلَتْه من زَوْجِها، وقد اعتَدَّت المرأَةُ عِدَّتَها من وَفَاةِ زَوْجِها، أَو طَلاقِهِ إِيَّاها، وجَمْعُ عِدَّتِها عِدَدٌ، وأَصْلُ ذالك كُلِّه مِن العَدِّ[1].

ويفهم ذلك من قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٩).

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ ﴾

روي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قالا عن المتوفى عنها زوجها: «إنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهُر».

وقولهما أقرب إلى لفظ الآية وأسلوبها.

نكتة ثانية:

قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ ﴾ ما جاء إلا في سياق المطلقات، وتعميم الآية، وحملها على المتوفى عنها زوجها لا يكون إلا عن طريق القياس، أي: قياس حالة المتوفى عنها زوجها، على حالة المطلقة.

وقياس حالة على حالة لا يسوغ إلا إذا كانتا حالتين متشابهتين، وحالة الطلاق غير حالة الوفاة، وبينهما بُعْدٌ شاسع، فالطلاق يصرم النكاح، ويقطع

---

(١) تاج العروس للزبيدي: عدّ

أواصره، بخلاف الوفاة، فإنها تثبّت النكاح، وتؤبّده. فقياس حالة الوفاة على حالة الطلاق يكون من جنس القياس مع الفارق.

نكتة ثالثة:

القرآن يذكر للطلاق والوفاة عدّتين مختلفتين، وهذا الاختلاف في العدّة ما جاء إلا بسبب الاختلاف في مقاصدهما، فالمقصود من عدّة الطلاق إتاحة الفرصة للزوجين بعد الطلاق، حتى يفيئا إلى رشدهما، ويُصلحا بينهما صلحاً، فيُستحب للمرأة في أثناء هذه العدة أن تأخذ أسباب الزينة، وتتجمّل لزوجها الغاضب عليها، أو الراغب عنها بأحسن حليّها، وأفخر ملابسها، وتحتال لكسب ودّه، وإطفاء غضبه إن استطاعت.

وأما المتوفى عنها زوجها، فعدتها إظهار لحزنها على ما فُجِعت به من موت بعلها، ويستحب منها هذا الحزن تعظيماً وتقديراً لتلك الآصرة الكريمة المباركة التي جمعتهما في ظل الرحمة والمودة إلى أن وافاه قدر الله. ولهذا استحبّ لها في هذه الفترة أن تعيش عيشة بسيطة ساذجة، من غير أن تميل إلى أسباب الزينة، أوحالات التجمل. وذلك غير ما استحب للمطلقة في أثناء فترة العدة، واستحب لها كذلك أن تنصرف عن الحديث في شؤون الخطبة والزواج في هذه الفترة، وذلك كله تعظيماً وتقديرا لتلك الآصرة الطاهرة المباركة.

نكتة رابعة:

والقرآن حينما جعل أجل المطلّقة الحامل وضع الحمل، فليس معناه أنه نسخ (ثلاثة قروء) في حقها، فالعدّة الأصل للمطلقة ثلاثة قروء، سواء كانت حاملاً، أم غير حامل، والأجل هو مدّة بقائها في بيت الزوج بعد انتهاء العدة، وأحكامه غير أحكام العدّة.

وإنما جُعل أجل الحامل وضع الحمل رحمة بها، ورعاية لظروفها، وحلّا لمشاكلها، التي ستواجهها بسبب الحمل والولادة. فالمطلقة إذا كانت حاملاً، فهي

تقضي فترة الحمل كلها، وهي تزيد على ثلاثة قروء، ولا محالة، في بيت زوجها المطلّق بكامل حقوقها، وهو الذي يتحمل أعباءها، وعليه نفقتها، وسكناها إلى أن تضع حملها.

إذاً فهذا الأجل إضافةٌ إلى ثلاثة قروء، وزيادة عليها، وبالتالي لا يمكن أن يكون أقل منها مهما كان الأمر، فلو أن رجلاً - مثلاً - طلق امرأته في آخر أيام الحمل، ثم وضعت المرأة حملها بعد أسبوع، فوضع الحمل لا يكون عدة لها، وإنما عدتها ثلاثة قروء، أو ما يعادلها من الزمن، ولعل هذا هو السرّ في أن الله تعالى لم يذكر هذه الإضافة بلفظ العدّة، وإنما ذكرها بلفظ الأجل، حيث قال تعالى:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾ (سورة الطلاق: ٤).

فاستخدم السياقُ لنوعين من المطلقات لفظَ العدّة، دون الثالث، وهن أولات الأحمال، حيث اختار لهن لفظ الأجل. هذا الفرق في أسلوب بيان الأحكام في آية واحدة، إن دل على شيء، فإنما يدل على أن هناك فرقاً واضحاً بين مفهوم الأجل، وبين مفهوم العدّة. فالعدة هي العدة، والأجل غير العدة. وهو لا يكون بمعنى العدة.

نكتة خامسة:

المطلقات أولات الأحمال كنّ بحاجة ماسة إلى أجل يضعن فيه حملهن، إضافة إلى ثلاثة قروء، فربهنّ جعل لهن أجلا يضعن فيه حملهنّ، وأما اللاتي توفي عنهن أزواجهن، فلم تكن بهن حاجة إلى إضافة الأجل، لأنهن إن كن أولات أحمال، فأمامهن حول كامل ما عدا عدتهنّ، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام، حيث قال تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن

مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة البقرة: ٢٤٠).

فأربعة أشهر وعشرة أيام عدتهن، سواء كنّ حاملات، أم حائلات، وبعد ذلك حول كامل يكون لهن فيه الخيار، سواء كن حاملات أم حائلات، فلهن أن يضعن حملهن في بيت الزوج، ويقضين فيه تمام هذا الحول، ولهن أن يقضين فيه جزءاً منه حسبما تملي عليهن ظروفهن، ثم يخرجن ولا جناح عليهن.

وهذا على القول بأن تلك الآية محكمة، غير منسوخة، والنسخ ليس له دليل، غير العجز عن التوفيق بين الآيتين. ومن أراد زيادة البيان فليرجع إلى ما كتبنا في تفسير هذه الآية في كتابنا: (البرهان في نظام القرآن)

نكتة سادسة:

عدة المطلقة تختلف عن عدة المتوفى عنها زوجها، إذا لم تكن حالات الحمل، فكيف تكون عدتهما واحدة في حالة الحمل؟ ما الذي يجمعهما في حالة الحمل، ويفصل بينهما في غير حالات الحمل؟

نكتة سابعة:

إن جعلنا وضع الحمل عدة للمطلقة، أو للمتوفى عنها زوجها نكون قد أبطلنا العدّة عن الاثنتين في كثير من الحالات، فقد تضع المطلقة الحامل حملها بعد فترة بسيطة من وقوع الطلاق عليها، وهذه الفترة قد تكون عبارة عن ساعات أو أيام، وقد تضع المتوفى عنها زوجها بعد ساعة، أو بعد ليلة، أو بعد أسبوع من وفاة زوجها، فكم تكون العدة إذاً؟ وما مفهومها؟

ومن هنا نقول: لم يكن ابن كثير، موفقاً في كلامه، ولم يصب المحزّ، حينما قال: «ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية.»[1]

---

(١) تفسير ابن كثير: ٨/ ١٤٩

فنص الآية الكريمة واضح في مدلوله، وهو يرشدنا إلى غير ما ذهب إليه، وقد فصلناه آنفاً.

وإذا كانت نظرة سيدنا علي، وسيدنا ابن عباس تختلف عن هذه النظرة، وسنبين قريباً أن سيدنا عبد الله بن مسعود أيضاً لا يمكن أن يكون من أصحاب هذه النظرة، فمَن من الصحابة يقول هذا الكلام؟

نعم، قد يكون ذلك قول جمهور العلماء من الخلف، ولكن من الصعب جداً أن يقال: إنه قول جمهور العلماء من السلف، ومن أراد أن يثبت ذلك، فمطلبه وعر، ومرتقاه كؤود.

وأما السنة النبوية، فمصدرها، ومرجعها الأول والأخير هو القرآن، فكل ما ثبت بالقرآن، نملك الجزم بكونه من سنة رسول الله، وأما ما خالف القرآن، فهو أبعد شيء عن سنة رسول الله. وهذا الذي أرادت أم المؤمنين عائشة، حينما قالت: (كان خلقه القرآن).

قد يقال: فماذا نفعل إذاً بتلك الروايات التي جاءت بهذا الخصوص، فإنها هي التي ذهبت بأهل الفقه والتفسير إلى ما ذهبوا إليه؟

نقول: إن الروايات التي جاءت بهذا الخصوص ليست من القوة والمتانة بحيث تُعارض بها الآية.

رواية البخاري ونقدها:

نأخذ على سبيل المثال ما رواه البخاري: حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس - وأبو هريرة جالس -فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال ابن عباس: آخر الأجلين. قلت أنا: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال

أبو هريرة: أنا مع ابن أخي - يعني أبا سلمة - فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتِل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها.[١]

فتلك الرواية جاءت عن طريق شيبان عن يحيى. فأما شيبان فهو شيبان بن عبد الرحمن التميمي، مولاهم النحوي، أبو معاوية البصري المؤدب.

قال عنه الساجي: صدوق، و عنده مناكير، و أحاديث عن الأعمش تفرد بها.

وقال الحافظ: قرأت بخط الذهبي: قال أبو حاتم: **لا يحتج به**. انتهى.[٢]

وقال الذهبي في الميزان: قال أبو حاتم: صالح الحديث، **لا يحتجّ به**.[٣]

وأما يحيى فهو يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليمامي.

قال أبو جعفر العقيلي: كان يذكر بالتدليس.

وقال أبو حاتم أيضاً: روى عن أنس مرسلاً وقد رأى أنساً يصلي فى المسجد الحرام رؤية ولم يسمع منه. قال يحيى بن سعيد: **مرسلات يحيى بن أبي كثير شبه الريح!**.

وقال ابن المبارك، عن همام: كنا نحدث يحيى بن أبي كثير بالغداة فإذا كان بالعشي قلبه عنّا.

وقال يزيد بن هارون، عن همام: مارأيت أصلب وجهاً من يحيى بن أبي كثير، كنا نحدثه بالغداة فيروح بالعشي فيحدثناه.[٤]

---

(١) صحيح البخاري، سورة الطلاق: ٣/ ٣٧٥/ ٤٩٠٩

(٢) تهذيب التهذيب: ٤/ ٣٢٧

(٣) ميزان الاعتدال في نقد الرجال: ٣/ ٣٩٢

(٤) تهذيب الكمال للمزي: ٨/ ٨١/ ٧٥٠٢

وقال الحافظ ابن حجر: قلت: تتمة كلام ابن حبان: كان يدلس، فكلما روى عن أنس فقد دلس عنه، لم يسمع من أنس و لا من صحابي.(١)

رواية مسلم ونقدها:

وروى مسلم بن الحجاج: حدثني أبو الطاهر، أخبرنا ابن وهب، حدثني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة: أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سُبَيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته. فكتب عُمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سَعد بن خَولة - وكان ممن شهد بدرًا - فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تَنشَب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تَعَلَّت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعكك فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك تَرجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح حتى تُمرّ عليك أربعة أشهر وعشرٌ. قالت سُبيَعة: فلما قال لي ذلك جَمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حَلَلت حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي.(٢)

جاءت تلك الرواية عن طريق يونس بن يزيد، وهو يونس بن يزيد بن أبي النجاد، ويقال: يونس بن يزيد بن مشكان بن أبي النجاد الأيلي، أبو يزيد القرشي، مولى معاوية بن أبي سفيان.

قال وكيع: رأيت يونس بن يزيد الأيلي، وكان سيئ الحفظ.

وقال أبو بكر الأثرم: أنكر أبو عبد الله على يونس، وقال: كان يجيء عن سعيد بأشياء ليس من حديث سعيد، وضعّف أمر يونس، وقال: لم يكن يعرف

---

(١) تهذيب التهذيب: ١١/ ٢٣٦

(٢) صحيح مسلم، باب انقضاء عدة المتوفى: ٤/ ٢٠٠/ ٣٧٩٥

الحديث، وكان يكتب، أرى، أول الكتاب فينقطع الكلام، فيكون أوله عن سعيد، وبعضه عن الزهري، فيشتبه عليه.

قال أبو عبد الله: ويونس يروي أحاديث من رأى الزهري يجعلها عن سعيد.

قال أبو عبد الله: يونس كثير الخطأ عن الزهري، وعقيل أقل خطأ منه.

وقال أبو زرعة الدمشقي: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: في حديث يونس بن يزيد منكرات عن الزهري.

وقال أبو الحسن الميموني: سئل أحمد بن حنبل: من أثبت في الزهري؟ قال: معمر. قيل له: فيونس؟ قال: روى أحاديث منكرة.

وقال ابن سعد: كان حلو الحديث كثيره، وليس بحجة، ربما جاء بالشيء المنكر.[1]

رواية أخرى للبخاري ونقدها:

وروى البخاري: قال سليمان بن حرب وأبو النعمان: حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن محمد - هو ابن سيرين- قال: كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى، رحمه الله، وكان أصحابه يعظمونه، فذكر آخر الأجلين، فحدّثتُ بحديث سُبَيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة، قال: فَضَمَّزَ لي بعض أصحابه، وقال محمد: ففطنت له فقلت: إني لجريءٌ أن أكذبَ على عبد الله، وهو في ناحية الكوفة. قال: فاستحيا وقال: لكن عَمّه لم يقل ذلك. فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته، فذهب يحدثني بحديث سُبَيعة، فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئاً؟ فقال: كنا عند عبد الله فقال: أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى:﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[2]

---

(١) تهذيب التهذيب: ١١/ -٣٩٦-٣٩٧

(٢) صحيح البخاري، سورة الطلاق: ٣/ ٣٧٦/ ٤٩١٠

جاءت تلك الرواية عن طريق سليمان بن حرب، وأبي النعمان، فأما سليمان ابن حرب فقال عنه أبو عبيد محمد بن علي الآجري، قال: سمعت أبا داود يقول: كان سليمان بن حرب يحدث بحديث ثم يحدث به كأنه ليس ذاك.

وقال الخطيب: كان يروي على المعنى فيغير ألفاظه.[1]

وقال الحافظ أبو بكر: كان سليمان يروي الحديث على المعنى فتتغير ألفاظه في روايته.[2]

وأما أبو النعمان، فهو محمد بن الفضل السدوسي، أبو النعمان البصري، المعروف بعارم.

قال الآجري عن أبي داود كنت عند عارم فحدث عن حماد عن هشام عن أبيه أن ماعزاً الأسلمي سأل عن الصوم في السفر فقلت له: حمزة الأسلمي. يعني أن عارماً قال هذا، وقد زال عقله. وقال أبو داود: بلغنا انه أنكر سنة ثلاث عشرة، ثم راجعه عقله، ثم استحكم به الاختلاط سنة ست عشرة.

وقال عنه النسائي: كان أحد الثقات قبل أن يختلط.

وقال ابن حبان: اختلط في آخر عمره و تغير حتى كان لا يدري ما يحدّث به، فوقع في حديثه المناكير الكثيرة، فيجب التنكب عن حديثه فيما رواه المتأخرون، فإن لم يعلم هذا من هذا، ترك الكل و لا يحتجّ بشىء منها.[3]

أيّ الآيتين تغليظ؟ وأيّهما رخصة؟

ثم إذا رأينا إلى الرواية من ناحية مضمونها، فما معنى الكلام الذي نسب إلى عبدالله بن مسعود، وهو: «أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة؟»

---

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٤/ ١٥٨

(٢) تهذيب الكمال، يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي: ٣/ ٢٧٠/ ٢٤٨٦

(٣) تهذيب التهذيب: ٩/ ٣٥٨-٣٥٩

فأيّ الآيتين تغليظ؟ وأيهما رخصة؟ وهل يقال: إن آية عدة المتوفى عنها زوجها تغليظ عليها؟ وما ظنك بربك الرحيم الكريم الودود؟ أتظنه قد جعل على المرأة المسكينة المحزونة المصاب في بعلها التغليظ، حينما جعل لها عدة الوفاة؟

هل يجعل ربها عليها التغليظ، وهي أحوج ما تكون إلى اللطف، والسهولة، والرحمة؟

إن عدة الوفاة ليست تغليظاً على المرأة المفجوعة في بعلها، وإنما هي استجابة لدواعي فطرتها، وتلبية لما تقتضيه ظروفها.

إن هذا الكلام الذي قيل، لا يمكن أن يقوله عبدالله بن مسعود، وهو الرجل القرآني الفقيه، فهو أجلُّ منه وأعقل. وإنما هو كلام عِمِّيٌّ أُلصق به إلصاقاً، وهو منه بريء.

ولا يستبعد أن يكون ذلك نتيجة لما أصيب به الراوي من اختلاط في عقله، كما ذكر في أحواله.

وعلى أية حال، فتلك بعض الروايات التي اعتمد عليها الناس في عدّة المتوفى عنها زوجها، إذا كانت حاملاً، وهي من ناحية أسانيدها كما رأينا وعرفنا، والروايات الأخر، التي لم نذكرها، ليست أحسن حالاً مما ذكرناها.

لا نترك كتاب الله:

فما موقف الباحث إذاً من تلك الروايات، وفيها ما فيها؟ وما موقفه من آيات الله، وهي واضحة في حكمها، ودلالاتها؟

أليس لنا العبرة فيما فعله سيدنا عمر، حينما بلغه حديث فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ لم يجعل لها سكنى ولا نفقة؟

قال رضي الله عنه: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا - عليه الصلاة والسلام - لقول امرأة لا ندري، لعلها حفظت أو نسيت! لها السكنى والنفقة. قال الله عز

وجل: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[1]

ولذلك، فلا يقبل من تأويل الآية إلا ما كان منسجماً انسجاماً كاملاً مع نظم الكلام وسياقه، ولفظه وأسلوبه، وروحه ومقاصده.

مثال آخر:

قال ربنا تبارك وتعالى في سورة الأنعام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ٧٤-٨٣)

للناس في تأويل تلك الآيات مذهبان، فمنهم من يقول: إن قصة إبراهيم مع الشمس والقمر والكوكب كانت قبل النبوة، في وقت لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وهناك من يقول: هذا الكلام كله كان بعد النبوة، وكان ذلك من أساليبه

---

(١) صحيح مسلم، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة: ٤/ ١٩٨/ ٣٧٨٣

الحكيمة لدعوة القوم إلى الله، وتنفيرهم عن عبادة الشمس والقمر والكواكب؛ فإن قومه كانوا غارقين في الشرك، وكانوا عن آخرهم يعبدون تلك الأشياء.

ثم الذين قالوا إن تلك القصة كانت قبل النبوة، اختلفوا فيما إذا كانت في طفولته الباكرة، حينما كان في سن الرضاعة، أي: ابن خمسة عشر شهراً، كما ورد في الرواية، أم كانت حينما آض شيظماً، وبلغ مبلغ الرجال.

ما قيل في تأويل الآيات:

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«قد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ (الأنعام: ٧٧)

وقال رحمه الله:

والحق أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبَيَّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة،

لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم.

ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون.[1]

ذانك موقفان لأهل التفسير في تأويل تلك الآيات، ولعل الصواب في كفّ من يرى أن هذا الكلام من سيدنا إبراهيم كان بعد ما اصطفاه الله، واختاره للنبوة والرسالة، ولم يكن المقصود من هذا الكلام إلا تبليغ الرسالة وإقناع القوم بعدم كفاءة تلك الأجرام السماوية لمكان الربوبيّة والإلهيّة، وكان ذلك أسلوباً عالياً موفّقاً غير مسبوق للدعوة إلى الله، فالسياق والسباق ونظم الآيات كله يقودنا إلى هذا الأمر. وذلك من عدّة وجوه:

الوجه الأول:

سبق تلك الآيات، من غير فاصل يفصلها، ما يدل على أن سيدنا إبراهيم لم يعُد في طور النظر والبحث عن الحقيقة، بل تجاوز الآن تلك المرحلة، وتم اختياره واصطفاؤه لمهمّة الرسالة، وبدأ يدعو الناس إلى عبادة الله، وبدأ يندّد بعبادة الأصنام.

وأسلوب خطابه، بما فيه من شدة الإنكار وحدّة الملام، يدل على أنه لم يعُد حديثَ العهد بالرسالة، بل مضى عليه زمان، وسبقت له جهود ومحاولات، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٧٤)

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩١-٢٩٢

الوجه الثاني:

إن قلنا: إن هذه القصة كانت قبل النبوة، وكانت تجربة شخصية مرّ بها إبراهيم في حياته الخاصة، فما وجه ذكرها هنا؟ وما الفوائد التي تستفاد منها؟

ماذا يستفيد منها الباحث غير أن يحني رأسه أمام عبقرية إبراهيم، وذكائه الخارق؟ حيث وصل قبل أن ينزل عليه الوحي إلى ما لم يصل إليه الأنبياء والرسل الآخرون إلا بعد نزول الوحي، فقد قال الله سبحانه وتعالى عن نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾(سورة والضحى: ٧).

وجه ثالث:

يظهر من لحن قوله في تلك المكالمة أنه ليس في حيرة ولا في ظلمة، بل هو على نور من ربه وبصيرة، فلننظر في قوله بعد أفول القمر: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ ، ففيه إيماء واضح إلى أن له رباً آخر غير هذا القمر، وهو الذي يهديه ويرشده.

ثم قال بعد أفول الشمس: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ فهو لا ينسب الشرك إلى نفسه، بل ينسبه إلى قومه، وفيه دليل واضح على أنه لم ينطق بربوبية تلك السيارات، أو الأجرام السماوية إلا لأن يستميل القوم إلى عبادة ربهم، وإلا فهو حنيف قانت لم يقع في وحل الشرك للحظة من اللحظات.

ثم قال: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام: ٧٩) وهذا الكلام يدل على أنه على علم وبصيرة بمن فطر السماوات والأرض، فليس لشيء فيهما من شرك، وماله من ندّ ولا ظهير.

وبعده مباشرة جعل القومُ يحاجّونه في عبادة الله أشدّ حجاج، وجعلوا يخوّفونه بطش آلهتهم إن عدل عنهم، وخرج من عبادتهم، وهو يردّ عليهم ردّ المؤمن القوي البصير، المعتزّ بعبادة ربه العزيز الجليل، وذلك قوله تعالى:

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٠-٨١)

وجه رابع:

وكانت نهاية هذه القصة قوله تعالى:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ٨٣).

والمراد بتلك الحجة، بدليل السياق، هي الحجة التي احتج بها إبراهيم على قومه، حيث بين لهم أن ما يعبدونه من الشمس والقمر والكوكب، كله آفل زائل، وماذا يستفيد الإنسان من عبادة الآفل الزائل؟ وإن كان في رأسه ذرة من عقل فلن يحني رأسه أمام الآفل الزائل؛ فإن الآفل الزائل لا يزيده إلا اخساراً، ولا يفيده غير الخزي والخذلان! وهل يمكن أن يستجيب له إذا دعاه، وهو في حالة الأفول، أو في حالة الزوال؟

فتلك الحجة الساطعة الظاهرة، التي ألقاها إبراهيم على قومه، ثم ما أتبعها من حجج دامغة حينما حاجوه في ربه،كلها لم تكن من إبراهيم، وإنما كانت من الله، آتاها إبراهيم على قومه، ورفعه بها درجات.

فالكلام كله كلام واحد، آخذٌ بعضهُ بأعناق بعض، وهذا الذي ملأه قوة، وروعة، وبلاغة، وإن فرّقناه إلى أجزاء ذهب عنه حسنه وبهاؤه، وزالت عنه قوته وبلاغته.

وهكذا يكشف السياق والسباق ونظم الآيات، وطبيعة الموقف أن قصة إبراهيم لم تكن في طفولته، ولا في شبابه قبل النبوة، وإنما كانت بعد ما اصطفاه الله للرسالة، وألهمه تلك الحجة.

مثال ثالث:

قال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (سورة مريم: ٧١).

ما قيل في تأويل الآية:

قال الإمام البغوي في تأويل تلك الآية:

«واختلفوا في معنى الورود هاهنا، وفيما تنصرف إليه الكناية في قوله: (وَارِدُهَا) قال ابن عباس رضي الله عنهما وهو قول الأكثرين؛ معنى الورود هاهنا هو الدخول والكناية راجعة إلى النار، وقالوا: النار يدخلها البر والفاجر ثم ينجي الله المتقين، فيخرجهم منها.

والدليل على أن الورود هو الدخول: قول الله عز وجل حكاية عن فرعون: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ وروى ابن عيينة عن عمرو بن دينار أن نافع بن الأزرق مارى ابن عباس رضي الله عنهما في الورود، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الدخول. وقال نافع: ليس الورود الدخول، فتلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ أدخلها هؤلاء أم لا؟ ثم قال: يا نافع أما والله أنت وأنا سنردها، وأنا أرجو أن يخرجني الله منها، وما أرى الله عز وجل أن يخرجك منها بتكذيبك.

وقال قوم: ليس المراد من الورود الدخول، وقالوا: النار لا يدخلها مؤمن أبداً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ (الأنبياء: ١٠١-١٠٢)

وقالوا: كل من دخلها لا يخرج منها. والمراد من قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ الحضور والرؤية، لا الدخول كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ ﴾ أراد به الحضور.

وقال عكرمة: الآية في الكفار فإنهم يدخلونها ولا يخرجون منها.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ يعني: القيامة والكناية راجعة إليها.

والأول أصح وعليه أهل السنة أنهم جميعاً يدخلون النار ثم يخرج الله عز وجل منها أهل الإيمان بدليل قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [1] (مريم: ٧٢).

ذلك ما قيل في تأويل الآية، والموقف ينمّ عما واجهه أئمة التفسير في تأويل الآية من حيرة وكلال.

وهم اختلفوا في معنى الورود على خمسة أقوال، فمنهم من شرّق، ومنهم من غرّب، وشتان بين مشرّق ومغرّب!

وتحيروا فيمن عُني بهذا الخطاب، فمنهم من خصّص، فجعل وجه الخطاب إلى الكفار، ومنهم من عمّم، فجعل وجه الخطاب إلى الكفار والمؤمنين جميعاً، وقال: الكفار والمؤمنون جميعاً يدخلون النار، لا ينجو منها أحد، ثم يخرج الله المؤمنين منها، ويذر الظالمين فيها جثيّاً.

والعجيب في الأمر أن هذا المفهوم الأخير هوالذي حظي بالقبول عند الجمهور، على الرغم مما فيه من ضعف وخلل، حتى قال البغوي:

«والأول أصح، وعليه أهل السنة، أنهم جميعاً يدخلون النار، ثم يخرج الله عز وجل منها أهل الإيمان.»

سؤال وإشكال:

هنا يثور سؤال:

كيف يكون هذا الرأي أصح؟ وهو يخالف صريح القرآن، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ

---

(١) البغوي - معالم التنزيل: ٥/ ٢٤٦-٢٤٧

حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠١-١٠٢).

فهذا وعد من الله أنه يبعد المؤمنين من النار، ويجعل بينهم وبينها مسافة سحيقة حيث لا يسمعون حسيسها، فكيف يصح القول بأنهم يدخلونها، ثم يخرجون منها؟

وكيف يكون هذا الرأي أصح؟ وهو يخالف سياق الآية، ويخالف جوّ السورة، فقد سبقها قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾ (مريم: ٦٦-٧٠)

وهو كلام يتعلق كلّه بالكفار، حيث يصف إنكارهم للبعث بعد الموت، ثم يوبّخهم على هذا الإنكار والاستهزاء، ويصف وضعهم السيئ المخزي يوم القيامة، ثم تأتي تلك الآية:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم: ٧١)

أسلوب الآية، وجوّ السورة:

علماً بأن تلك الآية ما جاءت على أسلوب الخبر، وإنما جاءت على أسلوب الوعيد والتهديد، وهذا الوعيد ليس كأيّ وعيد، بل هو وعيد له أزيز كأزيز الرعد، يرتجف له القلب، وتذوب له النفس!

فما معنى توجيه مثل هذا الوعيد والتهديد إلى المؤمنين؟

واستمرّ بعدها الكلام عن مواقف المجرمين، وأقوالهم وأحوالهم بأسلوب يرمي بشرر كالقصر، إلى أن ختمت السورة بتلك الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم

مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (مريم: ٩٦-٩٨)

والسورة كما ختمت بتبشير المتقين، وأنه سيجعل لهم الرحمن ودّا، فكذلك بُدئت بذكر الرحمة، حيث قال تعالى:

﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (مريم: ١-٣)

ثم مضامين السورة كلها تحمل البشرى بالإنعام والإكرام لعباد الله المتقين، كما تحمل الإنذار للطغاة المستكبرين.

فسياق الكلام، وجوّ السورة، وجرس الكلمات، ولهيب الأسلوب كله لايقبل أبداً أن نعمّم الخطاب، ونجعله للكفار والمؤمنين سواء، ونقول إن المؤمنين بأنبيائهم ورسلهم يدخلون النار!! كما يدخل الكفار، ثم يَخرجُ منها المؤمنون، ويُترك فيها الكافرون.

الورود ومشتقّاته في القرآن:

ومما يجدر له الانتباه أن القرآن استعمل لفظ الورود للورود في الدنيا، مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ (القصص: ٢٣).

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (يوسف: ١٩).

كما استعمله للورود في الآخرة، ولكنه فرّق بين الاستعمالين، فكلّما استعمله للآخرة لم يستعمله إلا في سياق العصاة والطغاة، مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ

وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ (هود: ٩٦-٩٨).

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ٩٨-٩٩).

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ (مريم: ٨٥-٨٦).

وهنا أصبح هذا الفرق واضحاً جداً حيث استعمل للمتقين (وفداً) واستعمل للمجرمين (ورداً) مع أن السياق نفس السياق.

زد إلى هذه الآيات تلك الآية التي نتحدث عنها:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (مريم: ٧١)

تلك الاستعمالات للفظ الورود، ومشتقاته إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الخطاب في الآية التي نتحدث عنها، ليس موجهاً إلى المتقين، بل هو موجّه إلى المنكرين المجرمين.

معنى التنجية في القرآن:

قد يقال: إذا كان المؤمنون لا يدخلون النار، فما معنى قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (مريم: ٧٢)

نقول: إن التنجية لا تحمل دائماً معنى الإنقاذ من المصيبة التي وقع فيها الإنسان، بل كثيراً ما تفيد معنى إبعاد الإنسان من موقع العذاب، أو من موقع الخطر قبل أن يقع فيه.

والقرآن استعمل تلك الكلمة في المعنيين، فمن شواهد المعنى الثاني قوله تعالى:

** ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (سورة طه: ٤٠).

** ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (سورة هود: ٥٨).

** ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾(سورة فصلت: ١٧-١٨).

** ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (سورة الزمر: ٦٠-٦١).

** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (سورة الصف: ١٠).

فتلك الآيات واضحة في أنه استعمل فيها لفظ الإنجاء والتنجية بالمعنى الذي أشرنا إليه، وهو إبعاد العبد من موقع الخطر قبل أن يقع فيه. والقرائن كلها تدل على أنه هو المراد في الآية التي نتحدث عنها.

فربنا سبحانه وتعالى يحشر المتقين إلى الرحمن بكل إعزاز وإكرام، ويجعلهم على بعد شاسع من النار، حيث لا يسمعون حسيسها، ويسوق المجرمين إلى جهنم مثل المواشي والأنعام، حيث ترهقهم ذلة، ويجللهم الخزي والهوان.

*** *** ***

الضابط السابع
لا يخالف القرآن بعضه بعضا

القرآن كله كلام الله، ولا يخالف بعضه بعضاً، فإن كان تأويل يجعل بعضه يخالف البعض الآخر، فهو تأويل مرجوح، غير صحيح. مثاله قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ (عبس: ١-١٠).

فما معنى (عبس وتولى) في الآية؟ لا بد أن نتأكد من دلالات هذين اللفظين، ولا بد أن نلم بمواقع استعمالهما، حتى نقدر على التوصل إلى صحيح التأويل.

وهذا يفرض علينا أن نرجع أولاً إلى أئمة اللغة، وننظر ماذا يقولون؟

معنى: عبس وتولى:

قال الزبيدي:

عَبَسَ وَجْهُهُ يَعْبِسُ عَبْساً وعُبُوساً، من حَدِّ ضَرَبَ: كَلَحَ، كعَبَّسَ تَعْبِيساً. وقِيلَ: عَبَسَ وَجْهه عَبْساً وعَبَّس: قَطَّبَ ما بَيْنَ عَيْنَيْهِ. ورجُلٌ عابِسٌ. وعَبَّسَ تَعْبِيساً فهو مُعَبِّسٌ وعَبَّاسٌ، إذا كَرَّهَ وَجْهه. شُدِّدَ للمُبالَغَةِ، ومنه قِراءَةُ زَيْدِ بنِ عَلِيٍّ: عَبَّسَ وتَوَلَّى فإِنْ كَشَرَ عن أَسْنانِه فهو كالِحٌ، وقيل: العَبَّاسُ: الكَرِيهُ الملْقَى والجَهْمُ المُحَيَّا.[1]

وقال الصاغاني:

عَبَسَ الرجل وَجْهَه يَعْبِسُه - بالكسر - عَبْساً وعُبُوْساً: إذا كَلَحَ، قال الله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾، والعابِس والعَبُوْسُ والعَبّاس: الأسَد، وُصِفَ بذلك لِكُلُوح

---

(١) تاج العروس: عبس

وَجهِه، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمًا عَبُوسٗا﴾ أي كريهاً تُعَبَّسُ منه الوجوه. وعَبَّسَ وَجْهَه: شُدِّدَ للمبالغة، ومنه قراءة زيد بن علي: (عَبَّسَ وتَوَلَّى) بتشديد الباء على إرادة أنَّه دام ذلك إلى انْصِرافِه؛ فكأنَّه تكَرَّرَ. والتَّعَبُّس: التَّجَهُّم.

والتركيب يدل على تكَرُّهٍ للشَّيْءِ[1].

هذا معنى (عبس)، وأما معنى (تولى)، فهو كما يلي:

قال ابن منظور:

تَوَلَّى عنه: أَعْرَضَ، و وَلَّى هارباً أي: أَدبر.

وقد وَلَّى الشيءُ و تَوَلَّى: إذا ذهب هارِباً ومُدْبِراً. و تَوَلَّى عنه: إذا أَعْرَضَ.[2]

وقال الزبيدي: ولَّى (عنه) : أي (أَعْرَضَ و نَأَى)، وكَذلكَ !تَوَلَّى عنه[3].

هذا هو معنى العبوس والتولي عند أهل اللغة، وإذا اقترن بعضهما ببعض، كما نرى في الآية، ازدادا قوة وشدة في مدلولهما، حيث يستمدّ كلاهما القوة والشدة من الآخر.

فمن الذي عبس وتولى، حينما جاءه الأعمى؟

ما قيل في تأويل الآية:

قال صاحب الكشاف في تأويل تلك الآيات:

أتى رسول الله ﷺ ابن أمّ مكتوم، وأمّ مكتوم أمّ أبيه، واسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري، من بني عامر بن لؤي، وعنده صناديد قريش: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم. فقال:

---

(١) الصاغاني، العباب الزاخر: عبس

(٢) لسان العرب: ولي

(٣) تاج العروس: ولي

يا رسول الله، أقرئني وعلمني مما علمك الله، وكرر ذلك، وهو لا يعلم تشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه.

وقال: وفي الإخبار عما فرط منه، ثم الإقبال عليه بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار، كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه، ثم يقبل على الجاني إذا حمي في الشكاية مواجهاً له بالتوبيخ وإلزام الحجة. وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك، كأنه يقول: قد استحق عنده العبوس والإعراض لأنه أعمى، وكان يجب أن يزيده لعماه تعطفاً وترؤفاً وتقريباً وترحيباً.[1]

تقويم ما قيل:

هذا ما قاله صاحب «الكشاف» في تأويل تلك الآيات، وبمثل قوله قال الآخرون، ولكن ماذا يمكن أن يقال، إذا سأل سائل:

هل من المعقول أن نبينا عليه الصلاة والسلام عبس في وجه الأعمى، وتولى عنه؟

هل من المعقول أنه كرّه وجهه، وقطّب ما بين عينيه، وكشر عن أسنانه، وأعرض عنه، ونأى بجانبه، كما يذكره أئمة اللغة في شرح معنى العبوس، والتولي؟

ولم يكن أهل اللغة مبالغين في تصوير الشدّة في مفهوم الكلمتين؛ فإن القرآن استعمل الكلمتين في المعنى الذي ذكروه أكثر من مرة. قال تعالى في سورة المدثّر:

﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ (المدثر: ١٨-٢٥)

وقال تعالى في سورة الإنسان:

﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ١٠).

وقال تعالى:

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل: ٤/ ٧٠٠-٧٠١

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ (سورة البقرة: ٢٠٥)

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٣٣-٣٤)

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ (سورة طه: ٦٠)

فنرى الآية الأولى جاء فيها لفظ (عبس) لصناديد الكفر، وجاء مقروناً بلفظ (بسر)، وهو يصوّر معاني الامتعاض، والاشمئزاز، والكراهية، والاستكبار، التي يحملها لفظ (عبس)، ثم الآية الثانية جاءت بلفظ (عبوساً) مقروناً بلفظ (قمطريرا) وبذلك شخّصت معنى العبوس، بحيث يمتلئ الإنسان رعباً، ويذوب خوفاً وكمداً.

فهل يَصْدُقُ هذا اللفظ الرهيب على ذلك الوجه الوضيئ المشرق، الكريم، الذي كان يفيض دائماً بالمودّة والبشاشة، والحب والحنان. والذي شهد برأفته، ورحمته ربه الرحيم الرحمن؟

حيث قال تعالى:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة براءة: ١٢٨).

والذي أثنى عليه ربه، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة القلم: ٤).

وهل كان ربه ليشهد له بالخلق العظيم، لو أنه كان يعبس في وجه الأعمى المسكين؟

فالذي يعبس في وجه العميان والضعفاء لا يكون له خُلق، فكيف بالخلق العظيم!

ومن هنا قيل: المُؤْمِنُ دَعِبٌ لَعِبٌ، والمنافِقُ عَبِسٌ قَطِبٌ. فالعبوس في وجه الناس، ولا سيما في وجه الضعفاء ليس من شِمال المؤمن، فضلاً عن شِمال من بُعث رحمة للعالمين.

علماً بأن الراجح في سورة القلم أنها نزلت قبل سورة عبس، فهل يتصور أن يظهر من رسول الله شيء يخالف الخلق العظيم، بعد ما شهد عنه ربه بأنه على خلق عظيم؟

وأما الآية الثالثة والرابعة والخامسة، فجاء فيها لفظ (تولى) لفرعون، ومَنْ كان على شاكلته، فهل يصلح هذا اللفظ لنبينا عليه الصلاة والسلام؟

هل يصلح أن يستعمل لرسول الله لفظ يُستعمل لفرعون وأشباه فرعون؟

إنْ حدث هذا في أيّة لغة من اللغات، فلن يحدث في اللغة العربية الثرية الغنية، التي تحمل لكل شيء ما يناسبه ويستوي عليه من الألفاظ والأسماء. وما وقع عليها الاختيار حتى تكون لغة كتاب الله الخالد إلا لهذه الميزة التي لا تجاريها فيها أي لغة.

فإذا كان هذا التأويل، الذي ذهبوا إليه، يخالف الآيات الأخر، التي جاءت في شأن الرسول الكريم، فهو تأويل مرجوح غير سليم.

ولا بد أن نلتمس للآية تأويلاً لايخالف الآيات الأخر، بل ينسجم معها انسجاماً كاملاً.

فما هو ذلك التأويل يا ترى؟

تأويل الآية كما يرشد إليه الموقف:

التأمل في الآيات مع رعاية الموقف، ورعاية الجوّ الذي يحيط بها، يرشدنا إلى أن العبوس والتولي ما كان من نبي البِشْر والرحمة، وإنما كان من صناديد قريش، الذين كانوا في حوار أو نقاش أو جدال مع رسول الله.

ويبدو أن هذا الحوار أوالنقاش أو الجدال كان في مكان معهود للرسول، أي: كان الناس يعرفون أن رسول الله يوجد عادة في ذلك المكان.

ويبدو كذلك أن هذا الأعمى لم يكن على صلة سابقة برسول الله، وإنما جاء اليوم لأول مرة حتى يسعد بنعمة الإسلام، ورسول الله لم يعلم أنه جاء يطلب الهدى والتزكّي، وأن حادي الشوق إلى الإسلام هو الذي حداه إليه، كما يعلم من قوله تعالى:

﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ (سورة عبس: ٣-٤).

وأما ما ورد في بعض الروايات أنه جاء يستقرئ النبي ﷺ آية من القرآن، أو قال: "يا رسول الله علمني مما علمك الله"، أو قال: "يا رسول الله أرشدني". فهذه كلها من زيادات الرواة، وليس لها سند صحيح.

والذي ذكره القرآن غير ما وردت به الروايات. ولو علم رسول الله أن الرجل جاء ليزّكّى، لأقبل إليه بوجهه، وما كان ليشغله عنه شيء، كما لا يشغل الظمآن عن الماء العذب شيء، فهي بغيته التي يبغيها، وغايته التي يرهق نفسه للوصول إليها.

وصناديد قريش حينما رأوا هذا الأعمى مقبلاً إلى رسول الله، ورسول الله معهم، عبسوا، وكلحوا، ونأوا عنه، وأعرضوا. وتغير الجوّ من حوار ونقاش إلى استنكار، واستنكاف!

وهو من دأب الكفار المستكبرين منذ قديم، حيث لا يرتاحون لرؤية الضعفاء والمكفوفين، كما قال تعالى:

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ (سورة هود: ٢٧).

وهنا لا يستبعد أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام قد استاء لمجيء الأعمى، ولم يفرح به، ولم يستقبله كعادته الكريمة مع الضعفاء، لأنه كان في محاولة لتقريب هؤلاء الصناديد إلى الإسلام، ومجيء الأعمى في ذلك الوقت أفسد عليه الأمر، وأفسد عليه الجو.

ووجد الوحي فيما حدث فرصة سانحة للتعليم، والتوجيه، والترشيد فجاءت تلك الآيات.

فالضمير الفاعلي في (عبس وتولى) يرجع إلى الصناديد الذين كانوا في حوار مع رسول الله، يرجع إلى كل واحد منهم على سبيل الانفراد. واستعمال صيغة المفرد للجماعة أسلوب شائع في كلام العرب، وهو يزيد الكلام قوة وتأكيداً، وعليه جاء كثير من الآيات.

والضمير المنصوب في (جاءه) يرجع إلى رسول الله.

أي: عبس وتولى كل واحد من تلك الصناديد بسبب أن جاء إلى رسول الله ذلك الأعمى.

مورد العتاب في تلك الآيات:

والعتاب في تلك الآيات شديد، ويبدو للوهلة الأولى أنه على رسول الله، ولكنه في الواقع منصبّ على من عبس وتولى من صناديد قريش، ولهذا جاء بصيغة الغائب زيادة في الإنكار.

قال ابن عطية:

(العبوس) تقطب الوجه واربداده عند كراهية أمر، وفي مخاطبته بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب، لأن في ذلك بعض الإعراض.[1]

أقول: ليس فيه بعض الإعراض، بل فيه كل الإعراض، وإنما قال ابن عطية بعض الإعراض، لأنه ظنّ مثل الآخرين، أن هذا العتاب متوجه إلى رسول الله، فأراد أن يخفف من شدته.

والعتاب على رسول الله ما جاء أبداً بصيغة الغائب، بل جاء، كلما جاء، بصيغة الخطاب، وجاء بأسلوب حلو، ليّن، رقيق، ولا بأس بأن نذكر هنا بعض الأمثلة، قال تعالى:

---

(١) المحرر الوجيز: ٨/ ٥٣٦

* ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (سورة براءة: ٤٣).

* ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (سورة الكهف: ٦)

* ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الشعراء: ٣)

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة التحريم: ١).

فتلك الآيات فيها عتاب على رسول الله، ولكنه ليس كما في قوله تعالى:

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾

بل هو عتاب فيه من الرقّة والحلاوة ما لا يخفى على المتذوّق.

وإذا أردنا أن ندرك وجه الخطاب في قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾. وأردنا أن نعرف مدى شدته، فيكفينا أن نمعن النظر في تلك الآيات:

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ (عبس: ٥-٧)

﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ (عبس: ١١-١٢)

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ (عبس: ١٧-٢٣)

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ (عبس: ٤٠-٤٢)

قد يقال، فماذا نقول في قوله تعالى:

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ (عبس: ٥-١٠)

أليس في هذه الآيات عتاب على رسول الله؟

نقول: لا شك أن تلك الآيات وُجِّه فيها الخطاب إلى رسول الله، وجاء هذا الخطاب يحمل طابع اللوم والغلظة والخشونة، ولكن المقصود بهذا كله هم صناديد قريش، وليس رسول الله.

ولم يكن هؤلاء الصناديد، بسبب عنجهيتهم واستكبارهم، بحيث يوجّه إليهم الخطاب مباشرة، فأعرض عنهم السياق أولاً بحيث صبّ عليهم اللوم والتقريع بصيغة الغائب: عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى.

ثم وجه إليهم اللوم عن طريق رسول الله، وفيه أيضاً إعراض عنهم، وفي نفس الوقت هو يحمل معنى التكريم لرسول الله، حيث جعله واسطة بينه وبين أعدائه.

فهذا اللوم والتوبيخ موجّه في ظاهره إلى رسول الله، ولكنه مصبوب كله على رؤوس الصناديد. وهو نوع من التوبيخ عجيب، ففيه إعراض، وفيه استغناء، وفيه تقريع!

ماذا فعل رسول الله حتى يعاتب؟

وأما إذا قلنا: فيه عتاب على رسول الله، فهنا يأتي سؤال: ماذا فعل رسول الله، حتى يتوجه إليه العتاب؟

فإنه إن كان مشغولاً بصناديد قريش، وكان يدُقّ ضميرهم، ويخطب ودّهم، ويستميلهم إلى الإسلام، فهي مهمته، وتلك مسؤليته، فهو رسول الله إلى الجميع، ولا بد أن يبلغ رسالته إلى الصناديد، وإلى السلاطين، كما يبلغها إلى العبيد والضعفاء والمساكين.

ولا بد أن يبلغ رسالته إلى من استكبر واستغنى، كما يبلغ رسالته إلى من جاءه يسعى، وهو يخشى.

وإذا لم يستقبل الأعمى حينئذ، فليس عليه فيه ذنب، فإنه ليس في استطاعة رسول الله أن يستقبل الجميع في وقت واحد.

وإن جاءه الأعمى يسعى، وهو يخشى، فخشيته ولهفته كانت في قلبه، ورسول الله ما كان عالماً بما في قلبه، حتى يعاتب على عدم استقباله.

فليس هناك ذنب إلا العبوس في وجه الأعمى استنكافاً، والتولي عن الحق استكباراً، فجاء التقريع والتعنيف على من تلبس بهما. وأما رسول الله، فهو براء من الأمرين، وبراء مما ترتب عليهما.

وبالجملة، فهذا التأويل الذي مال إليه كثير من أهل التفسير يخالف الآي الأخر، التي جاءت في شأن رسول الله، وهو دليل على كونه مرجوحاً غير صحيح.

مثال آخر:

نأتي إلى مثال آخر. قال تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٩)

قال ابن الجوزي في تأويله:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ سبب نزولها أن أصحاب رسول الله ﷺ لما انهزموا يوم أحد أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين، يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبي ﷺ: اللهم لا يعلون علينا! اللهم لا قوة لنا إلا بك! فنزلت هذه الآيات قاله ابن عباس.

قال ابن عباس، و مجاهد: ولا تهنوا أي ولا تضعفوا.

وفيما نهوا عن الحزن عليه أربعة أقوال:

أحدها: أنه قتل إخوانهم من المسلمين. قاله ابن عباس.

والثاني : أنه هزيمتهم يوم أحد، وقتلهم. قاله مقاتل.

والثالث: أنه ما أصاب النبي صلى الله عليه و سلم من شجّه وكسر رباعيته. ذكره الماوردي.

والرابع : أنه ما فات من الغنيمة. ذكره علي بن أحمد النيسابوري[1]

فكرة لا يقرّها القرآن:

نقول: فكرة هزيمة المسلمين في أحد فكرة لا يقرّها القرآن، فهناك آيات كثيرة تردّ هذه الفكرة، مثل قوله تعالى في سورة الأنفال:

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١٨-١٩)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٦)

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الأنفال: ٣٨-٤٠)

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٩)

تلك آيات من سورة الأنفال، نزلت بعد غزوة بدر، وهي تَعِظُ المشركين أن يعتبروا، ويتّعظوا بما رأوا من بطش الله في غزوة بدر، وبما ذاقوا من عذاب الله، وتعظهم أن ينتهوا عن كفرهم، وينتهوا عن طغيانهم ومناوأتهم لله والرسول، وإلا فالله موهن كيدهم، وهم سيُضربون، ثم يُغلبون لا محالة.

ثم تأتي سورة آل عمران، وهي تنذرهم قبل غزوة أحد إنذاراً صارخاً:

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير، سورة آل عمران، رقم الآية: ١٣٩

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران: ١٢-١٣)

وبعد ذلك بفترة قصيرة وقعت غزوة أحد، فإن انجلت تلك الغزوة بانتصار المشركين، وهزيمة رسول الله وجنوده المؤمنين، فما تفسير تلك الإنذارات التي سبقت تلك الغزوة؟ ألا يكون ذلك حجة لأعداء الله ضدّ رسول الله؟ ثم ألا يكون ذلك صدمة عنيفة للمؤمنين المتوكلين على الله؟

ثم ماذا نقول عن الآيات التي نزلت في مكة، وهي تجعل غلبة المرسلين، وغلبة جنودهم المؤمنين من سنن الله الثابتة، حيث قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الصافات: ١٧١-١٧٥).

ثم جاء التذكير بتلك السنة الإلهية الثابتة مرة ثانية في سورة مدنية:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (سورة المجادلة: ٢٠ -٢١).

فتلك سنة الله التي قد خلت في رسله وجنوده، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والتاريخ لا يذكر لنا أيّ رسول نزل بجنوده في معركة القتال، ثم باء بالهزيمة أمام أعداء الله.

وإن تعجب فعجب قولهم: إن خاتم الأنبياء وجنوده الأشداء باؤوا بالهزيمة في غزوة أحد. علماً بأن القرآن لا يشير إليه من قريب ولا من بعيد، وإنما يذكر مَسّ القرح فقط. ومن أراد التوسع في الموضوع، فليرجع إلى كتابنا (البرهان في نظام

القرآن)[1] في ضمن تأويل الآية(١٣٩) من سورة آل عمران.

وبالجملة، فهذا التأويل يتعارض مع كثير من الآيات، ويتعارض مع سنة الله في رسله، فهو تأويل مرجوح بدون شك.

وشيوعه، ورواجه عند أهل التفسير، أو أهل التاريخ لا يُكسبه أيّ وجاهة.

ولا ندري، أين نبتت هذه الفكرة، ثم نشأت، وانتشرت مثل النار في يبيس العرفج! وتلك من الأباطيل التي يجب أن تمحى!.

مثال ثالث:

قال ربنا سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (آل عمران: ٢٨)

ما قيل في تأويل الآية:

قال صاحب مدارك التنزيل:

﴿ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ ﴾ نهوا أن يوالوا الكافرين لقرابة بينهم أو لصداقة قبل الإسلام أو غير ذلك، وقد كرر ذلك في القرآن، والمحبة في الله والبغض في الله باب عظيم في الإيمان. ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني أن لكم في موالاة المؤمنين مندوحة عن موالاة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ أي: ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان. ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه، أي: إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك، فحينئذ يجوز لك إظهار الموالاة وإبطان المعاداة ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ أي ذاته

---

(١) ((كتاب البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران)) طبع دار عمار، الأردن.

فلا تتعرضوا لسخطه بموالاة أعدائه، وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي مصيركم إليه، والعذاب معدّ لديه، وهو وعيد آخر[1].

وقال الشوكاني:

وفي ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم، ولكنها تكون ظاهراً لا باطناً. وخالف في ذلك قوم من السلف، فقالوا: لا تقيّة بعد أن أعزّ الله الإسلام.[2]

فمن علماء التأويل من أباح التقيّة، وأباح موالاة الكافرين، إذا كانت الظروف تقتضيها، ومنهم من منعها وأنكرها بعد أن أعزّ الله الإسلام وأهل الإسلام، والذين أباحوها هم الذين يشكلون أغلبية ساحقة.

تأويل تحفّ به إشكالات:

ولعل الذين أباحوا التقيّة، وأباحوا موالاة الكفار في وقت الضرورة ما أصابوا كبد الحقيقة، حيث لم يمعنوا النظر في نظائر تلك الآية وأشباهها، ولم ينعموا النظر في جو الآية وسياقها، ولم يدققوا النظر في أسلوبها وصياغتها.

فنأتي أولاً إلى نظائر تلك الآية، قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (سورة النساء: ١٤٤-١٤٥).

فالذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين يخرجون من ذمة الله، ويعرّضون أنفسهم لسخط الله، ويدخلون في أشدّ حالات النفاق، الذي يقذف الإنسان في الدرك الأسفل من النار!

---

(١) أبو البركات عبد الله النسفي - مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١/ ١٥٢-١٥٣

(٢) فتح القدير: ١/ ٤٢١

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ (سورة المائدة: ٥١-٥٢).

فالذي يتخذ اليهود والنصارى أولياء، يُحسَبُ منهم، ويُحشر معهم!

وهذا حكم عامّ يعمّ جميع من يتخذهم أولياء، من غير استثناء.

والذين كانوا يوالون هؤلاء الكفار لم يكونوا يوالونهم إلا بدليل خشية الدائرة، حيث كانوا يقولون ﴿ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ ﴾ فما ذنبهم إذا كانت الموالاة مباحة في حالة الخوف؟ ولماذا صُبّ عليهم هذا اللوم والتقريع؟

وأما جوّ الآية وسياقها، فهو يأبى هذا التأويل، التأويل الذي يبيح موالاة الكفار في حالة الخوف، فقد سبقها قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ (سورة آل عمران: ٢٦-٢٧)

فإذا كان الله مالك الملك، وهو الذي يؤتي الملك وينزع الملك، وهو الذي يذل من يشاء، ويعزّ من يشاء، وهو الذي يحكم هذا الكون، ويحكم الليل والنهار، وهو الذي يملك الموت والحياة، وهو الذي يملك مقاليد الخير ومفاتيح الرزق، فماذا في يد الأعداء حتى يخاف منهم المسلم، ويتخذهم أولياء؟ وحتى يلجأ إلى ما يسمّونه (التقيّة)!

فإباحة موالاة الأعداء بحجّة خوف الضرر منهم لا يوجد لها دليل في القرآن، بل الأمر على العكس، حيث توجد في القرآن آيات تنقض هذا المفهوم نقضاً، وتحذّر عواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

تأويل الآية في ضوء سياقها وأسلوبها:

وهنا يأتي سؤال: فما تأويل الآية إذاً؟

إذا تدبرنا الآية في ضوء أسلوبها وسياقها، فهي تفيد أنه لا يجوز للمؤمنين بحال من الأحوال أن يوالوا الكفار من دون المؤمنين، ومن يوال الكفار من دون المؤمنين فلا مكان له عندالله.

وقيل: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنه لا يمكن اجتماع موالاة المؤمنين مع موالاة أعداء الله، أعداء المؤمنين. فالمؤمن إما أن يكون موالياً للمؤمنين، أو يكون موالياً للكافرين، فإن كان موالياً للكافرين فلا يمكن أن يكون موالياً للمؤمنين، ومن كان موالياً للكافرين من دون المؤمنين، فليس من الله في شيء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ ليس إذناً في موالاة الكفار، وإنما هو تأكيد لما سبقه من النهي، والاستثناء لا يكون دائماً بمعناه المعروف، بل كثيراً ما يأتي ليفيد معنى التأكيد، ويأتي لتعزيز المعنى السابق، مثاله قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة الكهف: ٢٣-٢٤).

فقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ماجاء إلا تأكيداً للنهي السابق، ويكون تقدير الكلام هكذا:

(لاتقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً، إنك لست فاعلاً شيئاً إلا أن يشاء الله)

ومثله قوله تعالى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة الأعلى: ٦-٧).

فقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما جاء بمعنى الاستثناء، وما جاء لإثبات النسيان، وإنما جاء لتعزيز المعنى السابق، وجاء لنفي احتمال النسيان، ويكون تقدير الكلام هكذا:

(سنقرئك فلا تنسى، لا تنسى إلا ما شاء الله، ولن يشاء الله أن تنسى ما أقرأك من القرآن، فالإقراء يكون للحفظ لا للنسيان)

فهو تطمين لرسول الله بنفي احتمال النسيان لما أنزل إليه من القرآن، وليس إثباتاً لظاهرة النسيان.

ومنه قوله تعالى:

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ (سورة النبأ: ٢٤-٢٥).

فقوله تعالى: ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ ما جاء إلا لتأكيد الجملة السابقة، ويكون تقدير الكلام كما يلي:

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾

وهكذا الأمر في الآية التي نتحدث عنها، ويكون تقدير الكلام نحواً مما يلي:

(لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ليس لكم إلا أن تتقوا منهم تقاة).

هذا على تقدير أن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ جاء اعتراضا.

وإن قلنا إنه من صلب الكلام، وليس اعتراضاً، كان تقدير الكلام هكذا:

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ ليس لكم سبيل إلى الله إلا أن تتقوا منهم تقاة.

معنى الاتقاء من الشيء:

ولا يعزبنّ عن بالنا أن هناك فرقاً بين (اتقاء الشيء) وبين (الاتقاء من الشيء) فلفظ الاتقاء إذا تعدى إلى مفعول، يفيد معنى الخوف منه، وإذا تعدى بصلة (من) فإنه يفيد معنى الخوف، مع معنى الابتعاد منه.

ومنه قول فاطمة بنت الأحجم الخزاعية، وهي ترثي ابنها قيس بن زياد، وهو من تلك الأبيات التي كانت تتمثل بها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام:

قد كنتَ ذات حمية ما عشتَ لي أمشي البراز وكنت أنت جناحي

فاليوم أخضع للذليل وأتقي منه وأدفع ظالمي بالراح

أي: فاليوم أخضع للذليل، وأبتعد منه مخافة شره، وإن ظلمني ظالم، أدفعه بالراح، لا بالسلاح.

ومن الناس من وهِم أن إباحة التقية، وإباحة موالاة الكفار في حالة الخوف يؤيدها قوله تعالى:

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ (سورة النحل: ١٠٦).

والأمر على العكس، فحالة الخوف غير حالة الإكراه، ولا يصحّ أبداً أن نحمل الآيتين محملاً واحداً. ففي حالة الإكراه لا يملك المرء نفسه، ولا يملك أمره، ويقول كلمة الكفر على رغم أنفه، ولا يقولها إلا وقلبه مطمئن بالإيمان.

وأما موالاة الكفار، فهي لا تكون كَرهاً، ولا تكون إلا نتيجة النفاق وضعف الإيمان، ولا تكون إلا ببذل الحب والنصح والمودة لهم، وليس من طبيعة الحب والنصح أن يكون كَرهاً.

والموالاة غير المجاملة، وغير المداراة، فلندرك الفرق بين تلك الكلمات، ولا نخلط بعضها ببعض!

***　　***　　***

الضابط الثامن

لا تصرف الآية عن ظاهر معناها لما يسمّونه (الدليل العقلي)

لا تُصرف الآية عن ظاهر معناها لأيّ دليل عقلي، ويكون ظاهر الآية أولى بالتمسك، وأحرى بالاهتمام، ويكون حجة على غيره.

ولنضرب لذلك مثلاً قوله تعالى:

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦).

تأويل الآية عند الإمام الرازي:

قال الفخر الرازي رحمه الله في تأويله:

«المعتزلة عَوَّلُوا على هذه الآية في أنه تعالى لا يكلف العبد ما لا يطيقه ولا يقدر عليه، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾ وقالوا: هذه الآية صريحة في نفي تكليف ما لا يطاق".

ثم عاد إليه فقال: «دلّت الدلائل العقلية على وقوع التكليف على هذا الوجه، فوجب المصير إلى تأويل هذه الآية.

فلنعلم أن الدلائل العقلية لا تكون قاضية على القرآن، وإذا كان تعارض بين القرآن والدلائل العقلية، فالدلائل العقلية أحرى أن يعاد فيها النظر، وأحرى أن يُزال ما فيها من سقم وخلل؛ فإن العقل السقيم المدخول هو الذي يتعارض مع كتاب الله، وأما إذا كان العقل سليماً ثاقباً، فهو لا يسكن، ولا يطمئن إلا إلى كتاب الله.

دلائل منطقية وليست عقلية!

وتلك الدلائل أحرى أن تسمى دلائل منطقية، لا دلائل عقلية، ولا حرج إن سميناها دلائل يونانية؛ فإنها تعتمد تماماً على منطق اليونان، ومنطق اليونان لا يجتمع بالعقل إلا كما يجتمع الأروى بالنعام، وهو منهلُ مِلْحٍ أُجاج، لا يزداد وارده إلا ظمأ، ولا يزداد قاصده إلا حيرة وعمىً!

ومن كان يشك فيما نقول، فلينظر إلى ما يستدل به الإمام الرازي رحمه الله على وقوع التكليف بما لا يطاق، ويسميه الدلائل العقلية، وهي كما يلي:

«الحجة الأولى: أن من مات على الكفر ينبىء موته على الكفر أن الله تعالى كان عالماً في الأزل بأنه يموت على الكفر ولا يؤمن قط، فكان العلم بعدم الإيمان موجوداً، والعلم بعدم الإيمان ينافي وجود الإيمان على ما قررناه في مواضع، وهو أيضاً مقدم بينة بنفسها، فكان تكليفه بالإيمان مع حصول العلم بعدم الإيمان تكليفاً بالجمع بين النقيضين، وهذه الحجة كما أنها جارية في العلم، فهي أيضاً جارية في الجبر.

الحجة الثانية: أن صدور الفعل عن العبد يتوقف على الداعي، وتلك الداعية مخلوقة لله تعالى ومتى كان الأمر كذلك كان تكليف ما لا يطاق لازماً، إنما قلنا: إن صدور الفعل عن العبد يتوقف على الداعي، لأن قدرة العبد لما كانت صالحة للفعل والترك، فلو ترجح أحد الجانبين على الآخر من غير مرجح لزم وقوع الممكن من غير مرجح وهو نفي الصانع، وإنما قلنا: إن تلك الداعية من الله تعالى لأنها لو كانت من العبد لافتقر إيجادها إلى داعية أخرى ولزم التسلسل، وإنما قلنا: إنه متى كان الأمر كذلك لزم الجبر، لأن عند حصول الداعية المرجحة لأحد الطرفين صار الطرف الآخر مرجوحاً، والمرجوح ممتنع الوقوع، وإذا كان المرجوح ممتنعاً كان الراجح واجباً ضرورة أنه لا خروج عن النقيضين، فإذن صدور الإيمان من الكافر يكون ممتنعاً وهو مكلف به، فكان التكليف تكليف ما لا يطاق.

الحجة الثالثة: أن التكليف إما أن يتوجه إلى العبد حال استواء الداعيين،

أو حال رجحان أحدهما، فإن كان الأول فهو تكليف ما لا يطاق، لأن الاستواء يناقض الرجحان، فإذا كلف حال حصول الاستواء بالرجحان، فقد كلف بالجمع بين النقيضين، وإن كان الثاني فالراجح واجب، والمرجوح ممتنع، وإن وقع التكليف بالراجح فقد وقع بالواجب، وإن وقع بالمرجوح فقد وقع بالممتنع.

الحجة الرابعة: أنه تعالى كلف أبا لهب بالإيمان، والإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه، وهو مما أخبر أنه لا يؤمن، فقد صار أبو لهب مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وذلك تكليف ما لا يطاق.

الحجة الخامسة: العبد غير عالم بتفاصيل فعله، لأن من حرك أصبعه لم يعرف عدد الأحيان التي حرك أصبعه فيها، لأن الحركة البطيئة عبارة عند المتكلمين عن حركات مختلطة بسكنات، والعبد لم يخطر بباله أنه يتحرك في بعض الأحيان، ويسكن في بعضها، وأنه أين تحرك وأين سكن، وإذا لم يكن عالماً بتفاصيل فعله لم يكن موجداً لها، لأنه لم يقصد إيجاد ذلك العدد المخصوص من الأفعال، فلو فعل ذلك العدد دون الأزيد ودون الأنقص فقد ترجح الممكن لا لمرجح وهو محال، فثبت أن العبد غير موجد، فإذا لم يكن موجداً كان تكليف ما لا يطاق لازماً على ما ذكرتم.

فهذه وجوه عقلية قطعية يقينية في هذا الباب، فعلمنا أنه لا بد للآية من التأويل وفيه وجوه.»

نقول: تلك وجوه منطقية، وليست عقلية. وكلها ظنية، وليست قطعية. وكلها وهمية، وليست يقينية. ولا مبرر لأن نجعل تلك الوجوه قواعد ثابتة، وهي متأرجحة متقلقلة، ثم نُقبل إلى الآية لأن نلوي عنقها، ونؤولها إلى معنى لا تحتمله.

تأويلات تنقصها الوجاهة:

ولننظر إلى الوجوه التي لجأ إليها الإمام الرازي في تأويل الآية، وهي كما يلي:

«الأول: وهو الأصوب: أنه قد ثبت أنه متى وقع التعارض بين القاطع العقلي،

والظاهر السمعي، فإما أن يصدقهما وهو محال، لأنه جمع بين النقيضين، وإما أن يكذبهما وهو محال، لأنه إبطال النقيضين، وإما أن يكذب القاطع العقلي، ويرجح الظاهر السمعي، وذلك يوجب تطرق الطعن في الدلائل العقلية، ومتى كان كذلك بطل التوحيد والنبوّة والقرآن، وترجيح الدليل السمعي يوجب القدح في الدليل العقلي والدليل السمعي معاً، فلم يبق إلا أن يقطع بصحة الدلائل العقلية، ويحمل الظاهر السمعي على التأويل، وهذا الكلام هو الذي تعول المعتزلة عليه أبداً في دفع الظواهر التي تمسك بها أهل التشبيه، فبهذا الطريق علمنا أن لهذه الآية تأويلاً في الجملة، سواء عرفناه أو لم نعرفه، وحينئذ لا يحتاج إلى الخوض فيه على سبيل التفصيل.

الوجه الثاني في الجواب: هو أنه لا معنى للتكليف في الأمر والنهي إلا الإعلام بأنه متى فعل كذا فإنه يثاب، ومتى لم يفعل فإنه يعاقب، فإذا وجد ظاهر الأمر فإن كان المأمور به ممكناً كان ذلك أمراً وتكليفاً في الحقيقة، وإلا لم يكن في الحقيقة تكليفاً، بل كان إعلاماً بنزول العقاب به في الدار الآخرة، وإشعاراً بأنه إنما خلق للنار.

والجواب الثالث: وهو أن الإنسان ما دام لم يمت، وأنا لا ندري أن الله تعالى علم منه أنه يموت على الكفر أو ليس كذلك، فنحن شاكون في قيام المانع، فلا جرم نأمره بالإيمان ونحثه عليه، فإذا مات على الكفر علمنا بعد موته أن المانع كان قائماً في حقه. فتبين أن شرط التكليف كان زائلاً عنه حال حياته، وهذا قول طائفة من قدماء أهل الجبر.

الجواب الرابع: أنا بينا أن قوله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ليس قول الله تعالى، بل هو قول المؤمنين، فلا يكون حجة، إلا أن هذا ضعيف، وذلك لأن الله تعالى لما حكاه عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم، فبسبب هذا الكلام وجب أن يكونوا صادقين في هذا الكلام، إذ لو كانوا كاذبين فيه لما جاز تعظيمهم بسببه، فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في هذا الموضع ونسأل الله العظيم أن يرحم عجزنا وقصور فهمنا، وأن يعفو عن خطايانا، فإنا لا نطلب إلا الحق،

ولا نروم إلا الصدق.»

رحم الله الإمام الرازي، فقد جاء للآية بتأويلات كلها أوهن من بيت العنكبوت، وكلها تصحبها إشكالات عضال:

الإشكال الأول:

* فما معنى قوله: فبهذا الطريق علمنا أن لهذه الآية تأويلاً في الجملة، سواء عرفناه أو لم نعرفه، وحينئذ لا يحتاج إلى الخوض فيه على سبيل التفصيل؟

كيف نقول إن لهذه الآية تأويلاً بدون أن نعرفه؟ ولماذا لا نحتاج إلى الخوض فيه على سبيل التفصيل؟

الإشكال الثاني:

* ما معنى قوله: لم يكن في الحقيقة تكليفاً، بل كان إعلاماً بنزول العقاب به في الدار الآخرة، وإشعاراً بأنه إنما خلق للنار؟

ما خلق الله أحداً للنار، وإنما خلق الخلق كلهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يجازيهم بما عملوا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وما ننسَ، لا ننسَ قول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٤٧).

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (سورة يس: ٣٠).

ولا ندري كيف نعبّر لك عما تفيض به الآيتان، من رحمة الله ورأفته بعباده.

ولا ندري كيف نُفصح لك عما نجد فيهما من حلاوة الحب والحنان! حلاوة يمتلئ بلذّتها الجنان، ويعجز عن حكايتها اللسان!

وهيهات، هيهات أن يخلق ذلك الرحيم الودود خلقاً للنار!

إشكال ثالث:

ما معنى قوله: فإذا مات على الكفر علمنا بعد موته أن المانع كان قائماً في حقه. فتبين أن شرط التكليف كان زائلاً عنه حال حياته؟

فالمانع لا يكون قائماً في حق أي إنسان، حيث قال تعالى:
﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (سورة الكهف: ٢٩).

فربنا سبحانه وتعالى أنزل الحق للناس جميعاً، وخلق فيهم الإرادة والاختيار، ثم ألقى لهم الحبل على الغارب، فليؤمنوا إن شاؤوا، وليكفروا إن شاؤوا، وليعرفوا أنهم في ابتلاء، ولا بد أن يواجهوا بعد ذلك نتائج أعمالهم.

فالإنسان هو الذي يتخذ إلهه هواه، ويمتنع عن سبيل الله، بدون أن يكون هناك مانع من الله، ولم نطلع على أي دليل معقول من الكتاب والسنة، على زوال شرط التكليف في حال الحياة.

إشكال رابع:

ما معنى قوله: إنا بينا أن قوله ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ليس قول الله تعالى، بل هو قول المؤمنين، فلا يكون حجة، إلا أن هذا ضعيف؟

فالموقف لا يحتمل أن يكون ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ من قول المؤمنين، وإن كان ذلك مما قيل في تأويل الآية، فهو قول لا يقبله السياق، ولا يقبله الأسلوب، والأوجه الراجح فيه أنه من قول الله سبحانه وتعالى. قال أبو حيان:

«ظاهره أنه استئناف خبر من الله تعالى أخبر به أنه لا يكلف العباد من أفعال القلوب والجوارح إلاّ ما هو في وسع المكلف، ومقتضى إدراكه وبنيته.»[1]

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٢/ ٢٧٨

وقال الشوكاني:

«وهذه جملة مستقلة جاءت عقب قوله سبحانه: ﴿ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ الآية لكشف كربة المسلمين ودفع المشقة عليهم في التكليف بما في الأنفس وهي كقوله سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾»[1]

موقع: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

قد يقول قائل: إن كانت تلك الجملة من الله سبحانه وتعالى فلماذا وضعها الله في أثناء تلك الدعوات الضارعة من الرسول وأصحابه المؤمنين؟ ولماذا لم يجعل لها مكاناً قبل تلك الدعوات، أو بعدها؟

هذا سؤال جميل ووجيه، وهو حقيق بأن يشغل بال الباحثين.

ونحن أنعمنا النظر في تلك الآيات، والحمدلله، فعنّ لنا بعد التأمل فيها، كأن السياق أراد بهذا النظم أن يوحي إلى هؤلاء المؤمنين المحسنين، أن قلوبهم الصادقة المؤمنة لما هاجت، وفاضت بتلك الأدعية الخاشعة الضارعة، أسرعت إليهم الاستجابة، قبل أن تصل تلك الأدعية إلى شفاههم،وتنطق بها ألسنتهم.

فقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ ليس رفعاً أو نسخاً لحكم سابق، كما قيل، وإنما وضع هذا القول حيث وضع، تطييباً لخاطر هؤلاء المؤمنين، وتطميناً لنفوسهم، أن الدعوات التي خفقت بها قلوبهم، نالت الاستجابة قبل أن تنطق بها شفاههم!

فهم سينالون المغفرة عند ربهم، ولا يؤاخذون على خطأ أو نسيان، ولا يحمل عليهم ربهم إصراً، كما حمله على من قبلهم، ولا يحمّلهم ما لا طاقة لهم به، وهم سينالون العفو والمغفرة و الرحمة، وسينتصرون على القوم الكافرين، فليفرحوا بذلك وليطمئنوا.

*** *** ***

---

(١) فتح القدير: ١/ ٣٩١

الحديث عن سورة المسدّ:

هذا، ثم يعود الإمام الرازي رحمه الله إلى كلامه السابق، وهو وقوع التكليف بما لا يطاق، في تفسير سورة المسد، فيقول:

المسألة الرابعة: احتج أهل السنة على وقوع تكليف ما لا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار، فقد صار مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال.[1]

سبب نزول السورة:

وهذا الدليل يعتمد على ما رووه في سبب نزول سورة المسدّ، فقد روى البخاري:

حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش حدثنا عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ورهطك منهم المُخلَصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف (يا صباحاه). فقالوا: من هذا فاجتمعوا إليه فقال: (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ). قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). قال أبو لهب: تباً لك! ما جمعتنا إلا لهذا! ثم قام. فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾. وقد تب. هكذا قرأها الأعمش يومئذ.[2]

روى البخاري عدة روايات متشابهة من هذا القبيل، منها هذه التي أثبتناها هنا.

---

(١) الفخر الرازي- مفاتيح الغيب: ٣٢/ ٣٥٣

(٢) صحيح البخاري، سورة المسد: ٣/ ٤٠٩/ ٤٩٧١

وروى مسلم أيضاً مثل ما روى البخاري، وروى أصحاب السنن أيضاً مثل ما روى الشيخان.

دراسة السند:

وتلك الروايات كلها جاءت عن طريق الأعمش، ومن الأعمش؟

قال ابن حبان:

سليمان بن مهران الأعمش مولى بني كاهل كنيته أبو محمد كان أبوه من سبي دبنا، وقد رأى أنسَ بن مالك بواسط، ومكة، روى عنه شبيهاً بخمسين حديثاً، ولم يسمع منه إلا أحرفاً معدودة، وكان مدلساً.(١)

حدثنا عبد الرحمن نا حماد بن الحسن بن عنبسة ثنا أبو داود عن زائدة قال كنا نأتي الاعمش فيحدثنا فيكثر ونأتي سفيان الثوري فنذكر تلك الأحاديث له فيقول: ليس هذا من حديث الاعمش، فنقول: هو حدثنا به الساعة، فيقول: اذهبوا فقولوا له إن شئتم، فنأتي الاعمش فنخبره بذلك، فيقول: صدق سفيان، ليس هذا من حديثنا.(٢)

قال الذهبي: سليمان بن مهران الأعمش ثقة جبل، ولكنه يدلس. قال وهب ابن زمعة: سمعت ابن المبارك يقول: إنما أفسد حديث أهل الكوفة الأعمش وأبو إسحاق.

وقال جرير: سمعت مغيرة يقول: أهلك أهل الكوفة أبو اسحاق وأعمشكم هذا، كأنه عنى الرواية عمن جاء.(٣)

وقال علي بن سعيد النسوي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: منصور أثبت

---

(١) الثقات لابن حبان، رقم التذكرة: ٣٠١٤

(٢) الجرح والتعديل: ١ / ٧١

(٣) المغني في الضعفاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: ١ / ٤٠٧-٤٠٨

أهل الكوفة، ففي حديث الاعمش اضطراب كثير!

وقال ابن المديني: الأعمش كان كثير الوهم في أحاديث هؤلاء الضعفاء.[1]

وإذا كان هذا هو الأعمش، فنحن نملك الجزم، ولا حرج، بأن الروايات التي وردت في سبب نزول سورة المسد، كلها لا تخلو من وهم؛ فإنها كلها جاءت عن طريق الأعمش، وكان كثير الوهم.

زد إلى ذلك أن السورة بمضمونها تأبى ذلك السبب، كما أن الأسلوب العام للقرآن يأباه إباء، فإنه ليس من عادة القرآن، أن يقابل الشتم بالشتم، وإنما طريقته أن يدفع السيئة بالتي هي أحسن.

ومَنْ أبولهب! حتى يُعِيره ربُّ الكون هذا الاهتمام، وينزل في شأنه سورة في القرآن؟

وكم من الأعداء كانوا يسبون رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن الوحي ما كان يعيرهم أيّ اهتمام، والرسول ما كان يعبأ بهم، ولا يلتفت إليهم، ويستمر في دعوته كأن لم يكن شيء.

تلك هي شيمة الكرام، ويكون لها وقع طيب في النفوس. والعرب يدركون ذلك جيداً، ويذكرونه في شعرهم.

قال المؤَمل بن أُمَيل المُحارِبِيّ:

وكَمْ منْ لَئِيمٍ وَدَّ أنيِّ شَتَمْتُهُ وَإنْ كانَ شَتْمِي فِيهِ صَابٌ وعَلْقَمُ

ولَلكَف عَنْ شَتْمِ اللَّئِيمِ تَكَرُّمًا أضرُّ لَهُ مِنْ شَتْمِهِ حِينَ يُشْتَمُ[2]

---

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال: ٢ / ٢٢٤

(٢) أبو تمام، ديوان الحماسة، باب الأدب: ٢ / ١٧

وقال أرطأة بن سهية المري:

تَمَنَّتْ وذاكم من سفاهة رأيها لأهجوها لما هجتني محارب

معاذ الإله إنني بقبيلتي ونفسي عن ذاك المقام لراغب[1]

وإذاً، فسورة المسد ما نزلت جواباً لأبي لهب، ولا علاقة لها بشتم أبي لهب، أو لعن أبي لهب.

زمن نزول السورة:

مضمونها يوحي أنها ما نزلت في أوائل الدعوة، فأوائل الدعوة يكون فيها إنذار وتبشير، ويكون فيها نصح وموعظة، ويكون فيها إقناع وحجة، ولا يغلق دون شخص باب التوبة والإيمان، ولو بلغ كفره وفجوره عنان السماء، حتى يستوفي ما كتب الله له من مهلة العمل. ومهلة العمل هي التي يقدر فيها الإنسان على أن يصلح فيها ما فسد من أمره.

ثم إن قال أبولهب ما قال، فهل امرأته أيضا قالت مثل ما قال؟ وإن لم تقل امرأته حينئذ مثل ما قال أبولهب، فكيف تؤخذ المرأة بجريرة زوجها؟ وكيف تصير إلى ما صار إليه زوجها؟ هذا خلاف سنة الله، التي ذكرت في كتابه، حيث قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ (سورة النجم: ٣٦-٤١).

---

(١) أبو تمام، ديوان الحماسة، باب الهجاء: ٢/ ١٧٧

مكان نزول السورة:

التأمل في مضمون السورة، وجوّ السورة يوحي إلينا أنها ما نزلت في مكة، وإنما نزلت بالمدينة، وما نزلت إلا حينما اشتدّ ساعد الإسلام، وانكسر جناح الكفر، وذلك بعد غزوة بدر، وقد مات أبو لهب بعدها بسبع ليال، أوعشر ليال، كما تذكره مصادر السيرة، ومات شر ميتة، وقد خذله بنوه، وخذله الجميع، ولم تنفعه أمواله، وكان عبرة للناس!

ذكر ابن إسحاق أن أبا لهب حين ضربته أم الفضل بالعمود على رأسه قام منكسراً، ولم يلبث إلا يسيراً، حتى رماه الله بالعدسة فقتله. وذكر الطبري في كتابه أن العدسة قرحة كانت العرب تتشاءم بها، ويرون أنها تعدي أشد العدوى، فلما رمي بها أبو لهب تباعد عنه بنوه، فبقي ثلاثاً، لا تقرب جنازته، ولا يدفن. فلما خافوا السبّة دفعوه بعود في حفرته، ثم قذفوه بالحجارة من بعيد، حتى واروه![1]

وصدق قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد: ١-٢)

أسلوب السورة:

وأسلوب السورة أسلوب الإخبار، دون الذمّ أو الدعاء، فهي تخبر بما حدث اليوم حينما مات أبو لهب، وتخبر بما سيحدث معه غداً حينما يبعث يوم القيامة، حيث هلك أبولهب، وهلك أنصاره، وما أغنى عنه ماله وأولاده، وسيصلى ناراً ذات لهب، وتصلى النار امرأته كذلك، فإنها كانت مع زوجها في كل فتنة يثيرها، وفي كل نار يوقدها.

تلك سورة المسدّ، وتلك دلالاتها، وإيحاءاتها، فهل فيها شيء يحتجّ به في إثبات التكليف بما لا يطاق؟ وبالعكس من ذلك، فالقرآن يكرر القول بأن الله لا يكلف

---

(١) السهيلي - الروض الأنف: ٣/ ٩٦

نفساً إلا وسعها، ولا يكلف نفساً إلا ما آتاها.

مثال آخر:

قال الإمام الرازي في تأويل قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (البقرة: الآية: ٧)

«اتفق المسلمون على أنه يحسن من اللهّ تعالى تعذيب الكفار ، وقال بعضهم لا يحسن، وفسروا قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ بأنهم يستحقون ذلك، لكن كرمه يوجب عليه العفو، ولنذكر هاهنا دلائل الفريقين:

أما الذين لا يجوّزون التعذيب فقد تمسكوا بأمور.

شبهات حول عذاب الآخرة:

أحدها: أن ذلك التعذيب ضرر خالٍ عن جهات المنفعة، فوجب أن يكون قبيحاً، أمّا أنه ضرر فلا شك، وأما أنه خال عن جهات المنفعة، فلأن تلك المنفعة إما أن تكون عائدة إلى الله تعالى، أو إلى غيره، والأول: باطل، لأنه سبحانه متعال عن النفع والضرر، بخلاف الواحد منا في الشاهد، فإن عبده إذا أساء إليه أدبه، لأنه يستلذ بذلك التأديب لما كان في قلبه من حب الانتقام، ولأنه إذا أدبه فإنه ينزجر بعد ذلك عما يضره. والثاني: أيضاً باطل، لأن تلك المنفعة إما أن تكون عائدة إلى المعذب أو إلى غيره أما إلى المعذب فهو محال، لأن الإضرار لا يكون عين الانتفاع وأما إلى غيره فمحال، لأن دفع الضرر أولى بالرعاية من إيصال النفع، فإيصال الضرر إلى شخص لغرض إيصال النفع إلى شخص آخر ترجيح للمرجوح على الراجح، وهو باطل وأيضاً فلا منفعة يريد الله تعالى إيصالها إلى أحد إلا وهو قادر على ذلك الإيصال من غير توسيط الإضرار بالغير، فيكون توسيط ذلك الإضرار عديم الفائدة. فثبت أن التعذيب ضرر خالٍ عن جميع جهات المنفعة وأنه معلومُ القُبح ببديهة العقل، بل قبحه أجلى في العقول من قبح الكذب الذي لا يكون

ضاراً، والجهل الذي لا يكون ضاراً، بل من قبح الكذب الضار والجهل الضار، لأن ذلك الكذب الضار وسيلة إلى الضرر وقبح ما يكون وسيلة إلى الضرر، دون قبح نفس الضرر، وإذا ثبت قبحه امتنع صدوره من الله تعالى، لأنه حكيم والحكيم لا يفعل القبيح.

وثانيها: أنه تعالى كان عالماً بأن الكافر لا يؤمن على ما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (البقرة : ٦) إذا ثبت هذا ثبت أنه متى كلف الكافر لم يظهر منه إلا العصيان، فلو كان ذلك العصيان سبباً للعقاب لكان ذلك التكليف مستعقباً لاستحقاق العقاب، إما لأنه تمام العلة، أو لأنه شطر العلة. وعلى الجملة فذلك التكليف أمرٌ متى حصل حصل عقيبه لا محالة العقاب، وما كان مستعقباً للضرر الخالي عن النفع كان قبيحاً ، فوجب أن يكون ذلك التكليف قبيحاً، والقبيح لا يفعله الحكيم، فلم يبق هاهنا إلا أحد أمرين، إما أن يقال لم يوجد هذا التكليف أو إن وجد لكنه لا يستعقب العقاب، وكيف كان فالمقصود حاصل.

وثالثها: أنه تعالى إما أن يقال خلق الخلق للإنفاع، أو للإضرار، أو لا للإنفاع ولا للإضرار، فإن خلقهم للإنفاع وجب أن لا يكلِّفهم ما يؤدي به إلى ضد مقصوده مع علمه بكونه كذلك، ولما عَلِمَ إقدامهم على العصيان لو كلفهم كان التكليف فعلًا يؤدي بهم إلى العقاب، فإذا كان قاصداً لإنفاعهم وجب أن لا يكلفهم، وحيث كلفهم دل على أن العصيان لا يكون سبباً لاستحقاق العذاب، ولا جائز أن يقال. خلقهم لا للإنفاع ولا للإضرار، لأن الترك على العدم يكفي في ذلك، ولأنه على هذا التقدير يكون عبثاً، ولا جائز أن يقال: خلقهم للإضرار، لأن مثل هذا لا يكون رحيماً كريماً، وقد تطابقت العقول والشرائع على كونه رحيماً كريماً، وعلى أنه نعم المولى ونعم النصير، وكل ذلك يدل على عدم العقاب.

ورابعها: أنه سبحانه هو الخالق للدواعي التي توجب المعاصي، فيكون هو

الملجئ إليها فيقبح منه أن يعاقب عليها، إنما قلنا إنه هو الخالق لتلك الدواعي، لما بينا أن صدور الفعل عن مقدرة يتوقف على انضمام الداعية التي يخلقها الله تعالى إليها، وبينا أن ذلك يوجب الجبر، وتعذيب المجبور قبيح في العقول، وربما قرروا هذا من وجه آخر فقالوا: إذا كانت الأوامر والنواهي الشرعية قد جاءت إلى شخصين من الناس فقبلها أحدهما وخالفها الآخر فأُثيب أحدهما وعوقب الآخر، فإذا قيل لم قبل هذا وخالف الآخر؟ فيقال: لأن القابل أحب الثواب وحذر العقاب فأطاع، والآخر لم يحب ولم يحذر فعصى، أو أن هذا أصغى إلي من وعظه وفهم عنه مقالته فأطاع، وهذا لم يصغ ولم يفهم فعصى، فيقال: ولم أصغى هذا وفهم ولم يُصْغِ ذلك ولم يفهم؟ فنقول:

لأن هذا لبيب حازم فطن، وذلك أخرق جاهل غبي فيقال: ولم اختص هذا بالحزم والفطنة دون ذاك، ولا شك أن الفطنة والبلادة من الأحوال الغريزية. فإن الإنسان لا يختار الغباوة والخرق ولا يفعلهما في نفسه بنفسه؟ فإذا تناهت التعليلات إلى أمور خلقها الله تعالى اضطراراً علمنا أن كل هذه الأمور بقضاء الله تعالى وليس يمكنك أن تسوي بين الشخصين اللذين أطاع أحدهما وعصى الآخر في كل حال أعني في العقل والجهل، والفطانة والغباوة، والحزم والخرق، والمعلمين والباعثين والزاجرين، ولا يمكنك أن تقول إنهما لو استويا في ذلك كله لما استويا في الطاعة والمعصية، فإذن سبب الطاعة والمعصية من الأشخاص أمور وقعت بتخليق الله تعالى وقضائه، وعند هذا يقال: أين من العدل والرحمة والكرم أن يخلق العاصي على ما خلقه الله عليه من الفظاظة والجسارة، والغباوة والقساوة، والطيش والخرق، ثم يعاقبه عليه، وهلَّا خلقه مثل ما خلق الطائع لبيباً حازماً عارفاً عالماً، وأين من العدل أن يسخن قلبه ويقوي غضبه ويلهب دماغه ويكثر طيشه ولا يرزقه ما رزق غيره من مؤدِّب أديب ومعلِّم عالم وواعظ مبلِّغ، بل يقيض له أضداد هؤلاء في أفعالهم وأخلاقهم فيتعلم منهم ثم يؤاخذه بما يؤاخذ به اللبيب الحازم، والعاقل

العالم، البارد الرأس، المعتدل مزاج القلب، اللطيف الروح الذي رزقه مربياً شفيقاً، ومعلماً كاملًا؟ ما هذا من العدل والرحمة والكرم والرأفة في شيء!

فثبت بهذه الوجوه أن القول بالعقاب على خلاف قضايا العقول.

وخامسها: أنه تعالى إنما كلفنا النفع لعوده إلينا، لأنه قال: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] فإذا عصينا فقد فوَّتنا على أنفسنا تلك المنافع، فهل يحسن في العقول أن يأخذ الحكيم إنساناً ويقول له إني أعذبك العذاب الشديد، لأنك فوتَّ على نفسك بعض المنافع، فإنه يقال له إن تحصيل النفع مرجوح بالنسبة إلى دفع الضرر فَهَبْ أني فوتُّ على نفسي أدون المطلوبَين أفتفوت عليَّ لأجل ذلك أعظمها، وهل يحسن من السيد أن يأخذ عبده ويقول إنك قدرت على أن تكتسب ديناراً لنفسك ولتنتفع به خاصة من غير أن يكون لي فيه غرض ألبتة، فلما لم تكتسب ذلك الدينار ولم تنتفع به آخذك وأقطعُ أعضاءك إرباً إرباً، لا شك أن هذا نهاية السفاهة، فكيف يليق بأحكم الحاكمين!

ثم قالوا: هَبْ أنْ سلمنا هذا العقاب فمن أين القول بالدوام؟ وذلك لأن أقسى الناس قلباً وأشدهم غلظة وفظاظة وبعداً عن الخير إذا أخذ مَنْ بالغ في الإساءة إليه وعذبه يوماً أو شهراً أو سنة فإنه يشبع منه ويمل، فلو بقي مواظباً عليه لامَهُ كلُّ أحد، ويقال: هب أنه بالغ هذا في إضرارك، ولكن إلى متى هذا التعذيب، فإما أن تقتله وتريحه، وإما أن تخلصه، فإذا قبح هذا من الإنسان الذي يلتذ بالانتقام فالغني عن الكل كيف يليق به هذا الدوام الذي يقال!

وسادسها: أنه سبحانه نهى عباده عن استيفاء الزيادة، فقال: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠) ثم إن العبد هب أنه عصى الله تعالى طول عمره فأين عمره من الأبد؟ فيكون العقاب المؤبد ظلماً.

وسابعها: أن العبد لو واظب على الكفر طول عمره، فإذا تاب ثم مات عفا الله عنه وأجاب دعاءه وقبل توبته، ألا ترى أن هذا الكريم العظيم ما بقي في الآخرة، أو عقول أولئك المعذبين ما بقيت فلم لا يتوبون عن معاصيهم؟ وإذا تابوا فلِمَ لا يقبل الله تعالى منهم توبتهم، ولم لا يسمع نداءهم، ولم يخيب رجاءهم؟ ولم كان في الدنيا في الرحمة والكرم إلى حيث قال: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (غافر: ٦٠) ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (النمل: ٦٢) وفي الآخرة صار بحيث كلما كان تضرعهم إليه أشد فإنه لا يخاطبهم إلا بقوله: ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)

قالوا: فهذه الوجوه مما تُوجب القطع بعدم العقاب.»[1]

ردّ تلك الشبهات:

ذلك ما سجّله الإمام الرازي في تفسيره، وهو يفصّل أدلة المانعين لعذاب الله يوم القيامة، وليس هناك من شطط إذا قلنا: إنها ليست أدلة عقلية، وإنما هي شبهات منطقية يونانيّة؛ فإنها لا تمتّ بصلة إلى عقل ولا نقل، ونتعجب من الإمام الرازي كيف أفسح لها المجال في (المفاتيح) مع ركاكتها ورداءتها، وكان أولى به أن يتحاماها، ويتجافى عنها!

فليست تلك الشبهات إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

ردّ الشبهة الأولى:

أما الشبهة الأولى، فردّها أن العذاب ليس ضرراً خالياً من جهات المنفعة، وإنما هو جزاء العمل، وإذا أعلن العمل، وأعلن الجزاء، فلا بد لكل عامل أن يجزى حسب ماعمل، ولابد أن يعطى ما اختاره لنفسه.

لا بد للكفار أن يحصدوا ما زرعوا، ويذوقوا ما صنعوا، ولا بد أن يعطى سيدهم وقائدهم إبليس أكبر جائزة من النيران على نجاحه الباهر في إغواء بني آدم.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢/ ٢٩٦-٢٩٨

ردّ الشبهة الثانية:

وأما الشبهة الثانية فردّها أن علم الله هو علم الله، وعلمه ليس مانعاً للكافر من قبول الإيمان، فكل إنسان حرّ في اختياره، يملك أن يكثر سواد الكفار، ويملك أن يكثر سواد المؤمنين، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (سورة الإنسان: ٢-٣).

وإذا كان الإنسان يملك أمره تماماً، ثم استحب العمى على الهدى، واستحب الكفر على الإيمان، فما المانع من أن يذوق وبال أمره؟ وهل هناك شيء يخالف حكمة الحكيم؟

ردّ الشبهة الثالثة:

وأما الشبهة الثالثة، فردها أن الله لم يخلق الخلق للإنفاع ولا للإضرار، وإنما خلقهم لعبادته، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ سورة الذاريات: ٥٦

وخلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (سورة الكهف: ٧)

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (سورة الملك: ١-٢).

فالنفع والضرر من نتائج الفوز أو الرسوب في الابتلاء، وليس غاية الخلق، والذي نجح في الابتلاء فاز ونجا، والذي رسب في الامتحان خسر وهلك.

ردّ الشبهة الرابعة:

وأما الشبهة الرابعة فردها أن الله سبحانه وتعالى خلق دواعي الخير والشر في كل إنسان، من غير تفريق بين إنسان وإنسان، وبين قوم وقوم، وبين طبقة وطبقة، حتى يكون في نفس كل إنسان صراع بين الخير والشر، وتجاذب بين الحق والباطل فيتحقق البلاء، قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ٧-١٠).

فألهم كل إنسان الفجور وألهم كل إنسان التقوى، فمنهم من يميل إلى الفجور، ومنهم من يميل إلى التقوى، فرجلٌ ولد في بيت آذر، في بيت الكفر والشرك والفسق، وكان إمامَ المحسنين، وكان إمام الأنبياء، ورجل ولد في بيت سيدنا نوح عليه السلام، وكان إمام الطغاة، وكان إمام أعداء الله!

فالبيئة هي ليست كل شيء، فرجل يهتدي وهو في بيئة فاسدة، ورجل يهوي في الهاوية، وهو في بيئة صالحة! ورجل يُقبلُ إلى الله، وهو في أعين الناس غبيّ، ورجل يفجر أمام الله، وهو في أعين الناس عبقريّ.

وربنالم يخلق إنساناً إلا وقد منحه عقلاً يفرق بين الخير والشر، ويعرف الحق من الباطل، حتى ولو كان في بيئة فاسدة، وربنا يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويهدي إليه من أناب.

ردّ الشبهة الخامسة:

وأما الشبهة الخامسة فردها أن الله سبحانه لم يكلفنا النفع، وإنما كلفنا الإحسان، حينما قال تعالى:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسرا: ٧)، فواجبنا الإحسان؛ لأن ربنا أحسن إلينا، والإحسان لا يقابل إلا بالإحسان، فالذي يقابل الإحسان بالإحسان يستحق الزيادة، والذي يقابله بالإساءة يستحق العقوبة، حيث قال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (سورة إبراهيم: ٧).

وأما موضوع دوام العذاب، فليس فيه إشكال، وإنما يأتي هذا الإشكال بسبب قلة علمنا وقصور أفهامنا وذهولنا عن تقدير عقابيل الخطايا، ومخلفات الذنوب، فالذي يمارسه الطغاة من الظلم والفساد يرتجّ منه البرّ والبحر! وترتجّ منه السماء والأرض!

وكم مضى على فرعون وآل فرعون من القرون، وهم في عذاب، ويستمرّ عذابهم إلى يوم القيامة، ويستمرّ بعد يوم القيامة إلى ما لا يعلمه إلا الله، قال تعالى:

﴿ فَوَقَـٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾(سورة الغافر: ٤٥-٤٦).

وذلك لأن جرائمهم ملأت البرّ والبحر، وملأت السماوات والأرض، وهي كل يوم تزداد، وتُضاف إليها جرائم مَنْ سلكوا سبيلهم.

وقد لا يستحسن التعذيب إذا كان بدافع الانتقام، ولكن إذا كان من قبيل المجازاة وإقامة العدل وتوفية الحساب فليس فيه ملام؛ فهو يسر الناظرين، ويدخل البهجة في نفوس الصالحين.

ردّ الشبهة السادسة:

وأما الشبهة السادسة فردّها أن الخطايا والذنوب لا تقاس بالأعمار، فقد يقول الإنسان كلمة لا يعبأ بها، وتكون لها آثار ونتائج لم يتصورها، فقد روى أبو داود:

حدثنا مسدد ثنا يحيى عن سفيان قال حدثني علي بن الأقمر عن أبي حذيفة عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، قال غير مسدد:

تعني قصيرة. فقال: "لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته". قال الشيخ الألباني: صحيح[1].

فإذا كانت تلك الكلمة - مع تفاهتها - بحيث لو مزجت بماء البحر لمزجته، فما ظنك بناس قد ضلوا، وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل؟ وما ظنك بقوم لم يحترموا الأنبياء والرسل، ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون؟ وما ظنك بناس يسعون في الأرض ليفسدوا فيها ويهلكوا الحرث والنسل؟ وما ظنك بطغاة ظلموا العباد، وخربوا البلاد، وتركوا من الأيامى والأيتام مالا يأتي عليه العدّ؟ ثم ما ظنك بتلك الفراعنة والجبابرة الذين ذبحوا ملايين المؤمنين الأبرياء، وقتلوا نساءهم وأولادهم في ليلة وضحاها، حتى بكت عليهم السماء والأرض؟!

هل تقاس جرائمهم بأعمارهم؟ إن أعمارهم انقضت، ولكن آثارها الملعونة ما انقضت ولا تنقضي، وهي غشيت الأجيال بعد الأجيال! وامتدّت إلى قرون وقرون، وستمتدّ إلى أزمان لايعلمها إلا الله!

ردّ الشبهة السابعة:

وأما الشبهة السابعة فردها أن التوبة باللسان ليس لها اعتبار، إذا لم تتبعها الطاعات والحسنات، ولم تتبعها الأعمال الصالحة التي تمحو فسقه وفجوره. قال تعالى، وهو يذكر شروط قبول التوبة:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٤٥-١٤٦).

وقال تعالى:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

---

(١) سنن أبي داود- باب في الغيبة: ٤/ ٤٢٠/ ٤٨٧٧

حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ (سورة الفرقان: ٧٠-٧١).

فلابد لتحقق التوبة من إصلاح السلوك، والاعتصام بالله، وإخلاص الطاعة لله، فإذا تاب الكافر الفاجر يوم القيامة، لم يتب إلا بلسانه، فإنه مابقيت عنده فرصة العمل، فقد روى البيهقي عن جابر بن عبد الله، قال:

قال رسول الله ﷺ: "إن أخوف ما أتخوف على أمتي الهوى، وطول الأمل، فأما الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، وهذه الدنيا مرتحلة ذاهبة، وهذه الآخرة مرتحلة قادمة، ولكل واحدة منهما بنون، فإن استطعتم أن لا تكونوا من بني الدنيا فافعلوا، فإنكم اليوم في دار العمل ولا حساب، وأنتم غداً في دار الحساب ولا عمل.»[1]

ثم لا اعتبار للتوبة إلا إذا كانت إيماناً بالغيب، أما وقد قامت القيامة، وكُشف الغطاء، وظهرت الحقائق، وماتت الفتن، وانتهت المحن، فلا توبة ولا استغفار بعد فوات الأوان. وذلك قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (سورة النساء: ١٧-١٨).

ويزيد الإمام الرازي فيقول:

«ثم قال من آمن من هؤلاء بالقرآن: العذر عما ورد في القرآن من أنواع العذاب من وجوه:

(١) شعب الإيمان للبيهقي: ١٣/ ١٧٤/ ١٠١٣٢

وجوه العذر عما ورد في القرآن:

أحدها: أن التمسك بالدلائل اللفظية لا يفيد اليقين، والدلائل العقلية تفيد اليقين، والمظنون لا يعارض المقطوع. وإنما قلنا: إن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين، لأن الدلائل اللفظية مبنية على أصول كلها ظنية والمبني على الظني ظني، وإنما قلنا إنها مبنية على أصول ظنية، لأنها مبنية على نقل اللغات ونقل النحو والتصريف، ورواة هذه الأشياء لا يعلم بلوغهم إلى حد التواتر، فكانت روايتهم مظنونة، وأيضاً فهي مبنية على عدم الاشتراك وعدم المجاز وعدم التخصيص وعدم الإضمار بالزيادة والنقصان وعدم التقديم والتأخير، وكل ذلك أمور ظنية، وأيضاً فهي مبنية على عدم المعارض العقلي، فإنه بتقدير وجوده لا يمكن القول بصدقهما ولا بكذبهما معاً، ولا يمكن ترجيح النقل على العقل لأن العقل أصل النقل، والطعن في العقل يوجب الطعن في العقل والنقل معاً، لكن عدم المعارض العقلي مظنون، هذا إذا لم يوجد فكيف وقد وجدنا هاهنا دلائل عقلية على خلاف هذه الظواهر، فثبت أن دلالة هذه الدلائل النقلية ظنية، وأما أن الظني لا يعارض اليقيني فلا شك فيه.

وثانيها: وهو أن التجاوز عن الوعيد مستحسن فيما بين الناس، قال الشاعر:

وإني إذا أوعدته أو وعدته ... لَمخلفُ إيعادي ومنجزُ موعدي

بل الإصرار على تحقيق الوعيد كأنه يعد لؤماً، وإذا كان كذلك وجب أن لا يصلح من الله تعالى، وهذا بناءً على حرف وهو أن أهل السنة جوزوا نسخ الفعل قبل مدة الامتثال وحاصل حروفهم فيه أن الأمر يسن تارة لحكمة تنشأ من نفس المأمور به، وتارة لحكمة تنشأ من نفس الأمر، فإن السيد قد يقول لعبده افعل الفعل الفلاني غداً وإن كان يعلم في الحال أنه سينهاه عنه غداً، ويكون مقصوده من ذلك الأمر أن يظهر العبد الانقياد لسيده في ذلك ويوطن نفسه على طاعته، فكذلك إذا علم الله من العبد أنه سيموت غداً فإنه يحسن عند أهل السنة أن يقول: صل غداً إن عشت، ولا يكون المقصود من هذا الأمر تحصيل المأمور به، لأنه هاهنا محال بل

المقصود حكمة تنشأ من نفس الأمر فقط، وهو حصول الانقياد والطاعة وترك التمرد. إذا ثبت هذا فنقول: لم لا يجوز أن يقال الخبر أيضاً كذلك؟ فتارة يكون منشأ الحكمة من الإخبار هو الشيء المخبر عنه وذلك في الوعد، وتارة يكون منشأ الحكمة هو نفس الخبر لا المخبر عنه كما في الوعيد، فإن الإخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصي والإقدام على الطاعات، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما في الوعيد، وعند هذا قالوا إن وعد الله بالثواب حق لازم، وأما توعده بالعقاب فغير لازم، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم، كالوالد يهدد ولده بالقتل والسمل والقطع والضرب، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع وإن لم يفعل فما في قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته، فإن قيل فعلى جميع التقادير يكون ذلك كذباً والكذب قبيح قلنا: لا نسلم أن كل كذب قبيح بل القبيح هو الكذب الضار، فأما الكذب النافع فلا، ثم إن سلمنا ذلك، لكن لا نسلم أنه كذب، أليس أن جميع عمومات القرآن مخصوصة ولا يسمى ذلك كذباً، أليس أن كل المتشابهات مصروفة عن ظواهرها، ولا يسمى ذلك كذباً فكذا هاهنا.

وثالثها: أليس أن آيات الوعيد في حق العصاة مشروطة بعدم التوبة وإن لم يكن هذا الشرط مذكوراً في صريح النص، فهي أيضاً عندنا مشروطة بعدم العفو وإن لم يكن هذا الشرط مذكوراً بصريح النص صريحاً، أو نقول: معناه أن العاصي يستحق هذه الأنواع من العقاب فيحمل الإخبار عن الوقوع على الإخبار عن استحقاق الوقوع. فهذا جملة ما يقال في تقرير هذا المذهب.»[1]

ردّ الاعتذار:

نقول: ما ورد في القرآن لا يحتاج إلى أي اعتذار، فهو الحق، وهو القول الفصل.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢/ ٢٩٨-٢٩٩

والقول بأن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين، والدلائل العقلية تفيد اليقين، قول أقرب إلى الهزل منه إلى الجدّ، ولقد سبق منا القول بأن التي يسمّونها الدلائل العقلية، هي ليست دلائل عقلية، وإنما هي دلائل منطقية، أو دلائل يونانية، إن صح التعبير، فتلك الدلائل ليس بينها وبين العقل سبب ولا نسب، والعقل السليم لا يركن إلا إلى الحق الذي جاء به القرآن.

وليس هذا طعناً في العقل، وإنما هو طعن في منطق اليونان، الذي ينقل المرء إلى ما يشبه حالة الهذيان، وفي نفس الوقت احترام لعقل الإنسان، الذي وهبه له الرحمان حتى يستعين به في معرفة الحق، ولا يتخبط في الظلام.

ولا يوجد أي تعارض، أو أي اختلاف بين العقل والنقل، إذا كان النقل صحيحاً، والعقل سليماً. والعقل المريض هو الذي يتعارض مع كتاب الله، فإذا ابتلينا بشيء من ذلك، فليكن من همّنا علاج العقل وترشيده، لا تأويل النقل وصرفه عن معناه.

والقول بأن الدلائل اللفظية لا تفيد اليقين قول فيه خلل، وقول فيه خطر، فإن هذا القول بهذا الإطلاق يجعل كلاّ من كلام الله وكلام الرسول يفقد اعتباره، ولا تبقى لهما حجيّة.

والقواعد المسلّمة، والأساليب المعلومة في أي لغة عريقة ناضجة تعتبر حجة في فهم النصوص، وهي لا تحتاج أبداً إلى أن يبلغ رواة كل أصل، ورواة كل أسلوب إلى حد التواتر.

فالصحيح أن الدلائل اللفظية منها مظنون، ومنها مقطوع، وكلٌّ له مكانه. وليس هذا موضع تفصيله.

وأما كون التجاوز عن الوعيد مستحسناً بين الناس، ففيه تفصيل، فالوعيد إذا كان بدون سبب معقول، أو كان على أمر تافه بسيط لا يستوجب ذلك الوعيد، فالرجوع عنه شيء مستحسن من غير شك. والوعيد فيما بين الناس يكون أكثره

هكذا، فالقويّ منا يرسل الوعيد إلى الضعيف بدون سبب معقول، أو على أمر تافه بسيط، تبذّخاً بقوته وسطوته، وتبجّحاً بفخامته وكبريائه، فإذا ركع له الضعيف وسجد، هدأ وتشفّى، ثم منّ عليه أنه عفا عنه، وتجاوز عن ذنبه لغاية كرمه وسماحته!

وأما إذا كان الوعيد في محله، مثل أن يعلن الحاكم: أن (أيّ ظالم إذا ظلم شخصاً من رعيتي فلا بد أن يذوق وبال ظلمه!) فإن أعلن الحاكم هذا الإعلان ثم ترك الظالمين بدون مؤاخذة، وتجاوز عنهم بدون مبرر، فهذا يعتبر عجزاً أو مكراً من الحاكم، ولا يستحسن أبداً.

وربنا سبحانه وتعالى أعلى وأجل مما يتصف به الإنسان من ضعف وعجز ومكر، فلا يقاس كلامه وأحكامه بكلام البشر، أو أحكام البشر ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

وأما كون آيات الوعيد مشروطة بالتوبة، فهذا لا ينفي الوعيد، ولا يبطل العقوبة، والتوبة لها شروط، ولها آداب، وهي لا تقبل إلا بتلك الشروط، وتلك الآداب.

والعفو مشروط بالتوبة، حيث قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الشورى: ٢٥).

فإذا لم تكن التوبة في أوانها، ولم تكن مصحوبة بشروطها وآدابها، فمن أين يأتي العفو؟

معيار الحسن والقبح:

ويزيد الإمام الرازي، فيقول:

«وأما الذين أثبتوا وقوع العذاب، فقالوا إنه نقل إلينا على سبيل التواتر

من رسول الله ﷺ وقوع العذاب، فإنكاره يكون تكذيباً للرسول، وأما الشُّبه التي تمسكتم بها في نفي العقاب، فهي مبنية على الحسن والقبح، وذلك مما لا نقول به، والله أعلم."[1]

نقول: إنكار عذاب الآخرة تكذيب للقرآن قبل تكذيب الرسول، والقرآن واضح وضوح الشمس في وقوع عذاب الكفار في الآخرة.

وأمر الحسن والقبح ليس موكولاً إلى الإنسان، فكثيراً ما يتخبط الإنسان في معرفة الحسن والقبح، ويحسب الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، ويرى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً. قال تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (سورة الكهف: ١٠٣-١٠٤).

وقال تعالى:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (سورة فاطر: ٨).

فلا حسن إلا فيما استحسنه الله، ورضيه لنفسه أو رضيه لعباده، فأمر به في كتابه، أو أمر به على لسان رسله، ولا قبح إلا فيما استقبحه الله، ونهى عنه في كتابه، أو نهى عنه على لسان رسله.

وكل ما فعله ربنا فيما مضى حسن، وكل ما يفعله الآن حسن، وكل ما يفعله في القادم حسن، فله الأسماء الحسنى، وله المثل الأعلى.

وأما ما يسمونه «الدلائل العقلية» فهو لا يرجع إلى علم، ولا يهدي إلى رشد! ويترك الإنسان يتخبط في الظلام من غير نور يهتدي به.

---

(١) مفاتيح الغيب: ٢/ ٢٩٩

وإذاً، فلا يحل أن تصرف آية عن ظاهر معناها من جراء ما يسمونه "الدلائل العقلية"، ولا يحلّ أن تصرف عن ظاهر معناها لأي دليل من خارج القرآن، فظاهر الآية أولى بالتمسك، وأحرى بالاهتمام، وهو قاض على غيره، وليس شيء من خارج القرآن قاضيا عليه.

***   ***   ***

الضابط التاسع

لا تكن قلة القِران بين الآية ومعناها

إذا كان قلة القِران بين الآية ومعناها، أى: المعنى الذي فُسّرت به الآية، لا يستوي عليها، ويقتضي شيئاً من زيادة أو تبديل في لفظ الآية، فهو دليل على كون ذلك المعنى مرجوحاً، غير صحيح.

مثال لقلة القران:

مثاله قوله تعالى:

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٠).

قال القرطبي: والمعنى إنْ يمسسكم يوم أُحد قرح فقد مس القوم يوم بدر قرح مثله».[١]

وقال ابن عطية: والمعنى إن مسكم في أحد فقد مس كفار قريش ببدر بأيديكم[٢].

وقال أبو السعود: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يُضْعِفْ ذلك قلوبهم ولم يُثبِّطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أحق بأن لا تضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون[٣].

وقال أبوحيان: المعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر، ثم لم يضعفوا إنْ قاتلوكم بعد ذلك، فلا تضعفوا أنتم[٤].

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢١٧

(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز: ٢/ ٣٦٦

(٣) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٢/ ٨٩

(٤) أبوحيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط: ٣/ ٤٩

هذا ما ذهبوا إليه في تأويل الآية، والذي ذهبوا إليه، لا يفهم من لفظ الآية أبداً، والذي يفهم من لفظ الآية هو أن الكلام كله يدور حول غزوة أحد، وكل ما ذكر هنا حدث في ميدان أحد. ولو كان الأمر كما قالوا، لكانت الآية على غير ما هي عليه الآن، وكانت العبارة نحواً مما يلي:

(إن يمسسكم قرح في هذه الغزوة، فقد مس القوم قرح مثله في التي سبقتها)

الإشاعات كان لها دورها!

وما ذهبوا في تأويل الآية إلى ما ذهبوا إليه، إلا من أجل تلك الإشاعات التي أشيعت، وأذيعت في الآفاق، حتى ملكت النفوس، وألقت في روعهم أن القتلى والجرحى في المؤمنين في غزوة أحد كانوا أضعاف قتلى وجرحى المشركين! فلم تكن هناك أي مماثلة بين الطائفتين في القرح في غزوة أحد، ولا يستقيم هذا الكلام، أي: ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ﴾ إلا إذا وضعنا في حسابنا غزوة بدر، ونظرنا إلى مجموع القتلى في كلتا الغزوتين.

وتلك طريقة خاطئة في تأويل الآيات، فالغفلة عن عبارة الآيات، أو الغفلة عن إيحاءاتها بسبب الحكايات أو الروايات، طريق غير مأمون، وهو دائماً يؤدي إلى الخطأ في التأويل، ويوقع الباحث في حيص بيص!

هذا اللون من التأويل هو الذي هيّأ لتلك الحكايات الكاذبة سنداً من القرآن، ورسّخ في الأذهان فكرة هزيمة رسول الله وأصحابه، وبالتالي: فكرة انتصار المشركين في غزوة أحد، مع أنها فكرة ليس لها أساس، فإن غزوة أحد كانت معركة فاصلة بين الكفر والإسلام، وكانت ضربة قاصمة لظهور المشركين، وكان قتلاها من المشركين، أضعاف أضعاف القتلى من المسلمين.

والشواهد على ذلك كثيرة متوافرة، وليس هذا موضع تفصيلها، ولكن لا بأس بأن نذكر هنا نبذة منها:

شواهد على كثرة قتلى المشركين:

قال صاحب ((السيرة الحلبية)):

«قاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً، ومر به سباع بن عبد العزى، فقال له حمزة: هَلُمَّ، أي: أقبل يا ابن مُقَطِّعةِ البظور؛ لأن أمه أم أنمار مولاة شريق والد الأخنس كانت ختانة بمكة.

وفي البخاري: يا سباع يا ابن أم أنمار، مقطعة البظور أتحادّ الله ورسوله؟

وفيه: أنهم لما اصطفوا للقتال خرج سباع، فقال هل من مبارز؟ فخرج إليه حمزة فشد عليه، فلما التقيا ضربه حمزة فقتله، وفي رواية: فكان كأمس الذاهب، وكان تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة.

وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس، فعن الزبير قال: وجدتُ، أي غضبت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف الذي قال فيه: من يأخذه بحقه ثلاث مرات؟ وأنا ابن عمته فمَنعْنِيه، وأعطاه أبا دجانة. فقلت: والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته فأخذ عصابة حمراء أخرجها من ساق خُفِّه وكان مكتوباً على أحد طرفيها (نصر من الله وفتح قريب) وفي طرفها الآخر (الجبانة في الحرب عار، ومن فر لم ينج من النار) فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، لأنهم كانوا يقولون ذلك إذا تعصب بها، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان إذا كلّ ذلك السيف يشحذه أي: يحده بالحجارة، ولم يزل يضرب به العدو، حتى انحنى وصار كأنه منجل.

«وثبت مع رسول الله ﷺ جماعة من أصحابه منهم: أبو طلحة، فإنه استمر بين يدي النبي ﷺ يحوز عنه بحَجَفته، وكان رجلاً رامياً شديد الرمي، فنثر كنانته بين يدي رسول الله ﷺ، وصار يقول: نفسي لنفسك الفداء! ووجهي لوجهك الوقاء!

فلم يزل يرمي بها وكان الرجل يمر بالجعبة، بضم الجيم، من النَّبْل، فيقول ﷺ: انثرها لأبي طلحة، وكسّر ذلك اليوم قوسين أو ثلاثة.

ولا زال ﷺ يرمي عن قوسه أي المسماة بالكتوم لعدم تصويتها إذا رمى عنها حتى صارت شظايا أي ذهب منها قطع.

وفي رواية رمى عن قوسه حتى اندقت سِيَتها، والسية ما انعطف من طرفي القوس، اللذين هما محل الوتر، قال وما زال ﷺ يرمي عن قوسه، حتى تقطع وتره، وبقيت في يده منه قطعة تكون شبراً في سية القوس، فأخذ القوس عكاشة بن محصن ليوتره له، فقال: يا رسول الله لا يبلغ الوتر. فقال مُدَّه يبلغ.

قال عكاشة: فو الذي بعثه بالحق لمددته حتى بلغ، وطويت منه لفتين أو ثلاثاً على سية القوس، ورمى ﷺ بالحجارة وكان أقرب الناس إلى القوم.

وقاتل جماعة من أصحابه منهم سعد بن أبي وقاص، فإنه كان من الرماة المذكورين، رمى بقوسه، قال سعد:

لقد رأيته، يعني النبي ﷺ، يناولني النبل ويقول (ارم فداك أبي وأمي) حتى إنه ليناولني السهم ما له نَصْلٌ، فيقول: ارم به! وقد تقدم أنه رمى بسهم من تلك السهام التي لا نصلَ لها لمن رمى أم أيمن.

قال: وفي رواية عن سعد قال: أجلسني رسول الله ﷺ أمامه فجعلت أرمي وأقول: اللهم سهمك فارم به عدوك! ورسول الله ﷺ يقول: اللهم استجب لسعد، اللهم سدد رميته، وأجب دعوته. حتى إذا فرغت من كنانتي نثر رسول الله ﷺ ما في كنانته.

وفي الشرف: إن سعداً رضي الله تعالى عنه رمى يوم أحد ألف سهم ما منها سهم إلا ورسول الله ﷺ يقول له: ارم فداك أبي وأمي، ففدّاه في ذلك اليوم ألف مرة!

وممن كان مشهوراً بالرماية سهيل بن حنيف رضي الله تعالى عنه وكان ممن ثبت مع النبي ﷺ في هذا اليوم الذي هو يوم أحد. قال بعضهم: وكان بايعه ﷺ يومئذ على الموت، فثبت معه ﷺ حتى انكشف الناس عنه، وجعل ينضح بالنبل

يومئذ عن رسول الله ﷺ، وقال ﷺ: نبِّلوا سهيلا، أي: أعطوه النبل.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ﷺ في يوم أحد دفع سيفه ذا الفقار لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها، وقال: اغسلي عنه دمه، لقد صدقني اليوم!

وناولها علي كرم الله وجهه سيفه، وقال: وهذا فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم!

فقال ﷺ لعلي كرم الله وجهه: لئن صدقت القتال لقد صدق معك سهيل بن حنيف وابو دجانة!

وقتل من المشركين ثلاثة وعشرون، وقيل اثنان وعشرون.

أقول: انظر هذا مع ما تقدم من أن حمزة وحده قتل واحداً وثلاثين ![1]

ما نجا من جيشهم إلا قليل:

تلك بعض الحقائق التي تذكرها كتب السيرة والتاريخ عما جرى في غزوة أحد، وهنا لا بد للباحث أن يقف ويسأل:

إنْ صح أن النبي عليه السلام رمى عن قوسه المسمّاة بالكتوم، وما زال يرمي حتى صارت شظايا!

وإن صحّ أن سيف رسول الله صدق في يوم أحد.

وإن صح أنه صدق سيف عليّ، وصدق سيف سهل بن حنيف، وصدق سيف أبي دجانة، حتى انحنى، وصار كأنه منجل.

وإن صحّ أن حمزة وحده قتل واحداً وثلاثين في ذلك اليوم.

وإن صحّ أن سعد بن أبي وقاص رمى يوم أحد ألف سهم، وكل سهم كان مصحوبا بدعاء رسول الله، وهذا يعني أنه لم يكن هناك سهم طائش، بل كلها

---

(١) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، لصاحبها: علي بن برهان الدين الحلبي: ٢/ ٥٠١-٥٤٧

أصابت أهدافها.

وإن صح أن أبا طلحة كسر يوم أحد قوسين أو ثلاثة من كثرة ما رمي، وقد نثر كنانته بين يدي رسول الله، وقد نثر له الكنانة آخرون بأمر رسول الله، وهذا يعني أن رمايته أيضاً كانت مصحوبة بدعاء رسول الله.

إن صحت تلك الأمور كلها، فما الذي سحر علماءنا وكتّابنا حتى جعلوا يقولون ويكتبون: ما قُتل من المشركين في غزوة أحد إلا اثنان وعشرون، أو ثلاثة وعشرون؟!

وما الذي سحرهم حتى قالوا، وما زالوا يقولون: إن المسلمين انهزموا في غزوة أحد، وكان المشركون هم الغالبين؟!

فالصورة التي يستلهمها الباحث من تلك الأخبار، هي أن المشركين ما نجا منهم إلا قليل، وما عاد إلى مكة إلا فُلول الجيش، والأغلبية الساحقة منهم لقوا مصرعهم في ميدان أحد.

قد يقال: تلك الأخبار هي ليست كل شيء، فهناك أخبار أخرى تختلف منها، والأخبار فيها احتمال الخطأ.

نقول: ما اختلفنا في ذلك، فالأخبار كلها لا تخلو من احتمال الخطأ، ولكنها إذا كانت مدعومة بالقرائن، وكانت مؤيدة ببيان القرآن، زال عنها احتمال الخطأ، وأصبحت حقيقة تاريخية ثابتة.

فلننظر في قوله تعالى في سياق تلك الغزوة:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٢).

معنى: (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)

فما معنى: (إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ)؟

قال الصاغاني:

والحَسُّ: القتل. ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾، أي تقتلونهم، وتستأصلونهم.

ويقال: البَرْدُ مَحَسَّة للنَبْتِ: أي مُحرِقَةٌ له ذاهِبةٌ به.

وسَنَةٌ حَسُوس: تأكل كل شيء، من قولهم: حَسَّ البَرْدُ الكلأ يَحُسُّه. وحَسَّ البَرْدُ الجَرَادَ: قَتلَه.[1]

وقال الجوهري:

والحِسُّ أيضاً: بردٌ يُحرِق الكلأ. والحَسُّ بالفتح: مصدر قولك حَسَّ البردُ الكلأ يَحُسُّهُ، بالضم.

وحَسَسْناهُمْ، أي استأصلناهم قتلاً. وقال تعالى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾. وحَسَّ البردُ الجرادَ: قتله.[2]

وقال اللحياني:

مَرَّتْ بالقوم حَواسُّ أي: سِنُونَ شِدادٌ،

والحَسُّ: القتل الذريع.

وحَسَسْناهم أَي: استَأْصلناهم قَتْلاً،

وحَسَّهم يَحُسُّهم حَسّاً: قتلهم قتلاً ذريعاً مستأْصلاً.

وفي التنزيل العزيز: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ أَي تقتلونهم قتلاً شديداً والاسم الحُساسُ عن ابن الأَعرابي.

---

(١) الصاغاني- العباب الزاخر واللباب الفاخر: حسس

(٢) الجوهري- الصحاح في اللغة: حسس

وقال أبو إسحق: معناه: تستأصلونهم قتلاً.[1]

فالحسّ: هو القتل الذريع المستأصل، مثلما يقال: حسّ البرد الكلأ: أي: أحرقه تماماً، وحسّ البرد الجراد: أي: قتله قتلاً، ولم يُبقِ منه شيئاً . ومنه سنة حسوس: ويراد بها ذلك الجدب الذي يأكل كل شيء، ويترك الناس يموتون جوعاً.

فحينما قيل للمسلمين: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ فليس معناه إلا أن المسلمين قتلوا المشركين في ميدان أحد قتلاً ذريعاً حتى كادوا يستأصلونهم.

وهذا لا يصدق أبداً على العدد الذي ذكروه لقتلى المشركين، وهو لا يتجاوز اثنين وعشرين، أو ثلاثة وعشرين!

فهذا العدد إذا قسناه إلى عدد جيش قريش، وهو ثلاثة آلاف، فهذا العدد الضئيل القليل لا يكون شيئاً يذكر في جنب ذلك العدد الهائل الكبير، أي: إذا قتل اثنان وعشرون، أو ثلاثة وعشرون من ثلاثة آلاف، فكأنه لم يُقتل أحد.

حتى ولو وصل عدد قتلى المشركين إلى مائتين، فهذا العدد أيضاً يكون أقل مما يتطلّبه لفظ (الحسّ).

فلفظ (الحسّ) لا يصدق إلا على الوضع الذي وردت به تلك الأخبار التي أثبتها صاحب السيرة الحلبية، والتي ذكرنا نبذة منها.

ولا نستطيع أن نسترسل في الموضوع أكثر مما فعلنا، ومن كان راغباً في استيعاب الموضوع، فليرجع إلى كتابنا: (البرهان في نظام القرآن)، فسيجد هناك في ضمن هذه الآية، ما يشفيه، ويكفيه بإذن الله.

مثال آخر:

ويشبه تلك الآية قوله تعالى:

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٥).

---

(١) ابن منظور- لسان العرب: حسس

قال الزمخشري في تأويل الآية:

(أصابتكم مصيبة) يريد ما أصابهم يوم أُحد من قتل سبعين منهم.

(قد أصبتم مثليها) يوم بدر من قتل سبعين، وأسر سبعين.[١]

وقال صاحب أضواء البيان:

«فالمراد بمصيبة المسلمين، القرح الذي مسهم يوم أحد، والمراد بمصيبة الكفار بمثليها، القرح الذي مسهم يوم بدر؛ لأن المسلمين يوم أحد قتل منهم سبعون، والكفار يوم بدر قتل منهم سبعون، وأسر سبعون. وهذا قول الجمهور.[٢]

والكلام في تلك الآية مثل الكلام في أختها، وما أصيب أهل التفسير في تأويلها، إلا بما أصيبوا به في تأويل أختها، حيث بنوا كلامهم كله على السير والمغازي التي لا أصل لها! حسبما قاله الإمام أحمد.

ومما يدعو إلى العجب أن الإمام ابن جرير ذكر في تأويل الآية مثل ما ذكره الزمخشري والشنقيطي، وأضاف قائلاً:

«ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾، بعد إجماع جميعهم على أن تأويل سائر الآية على ما قلنا في ذلك من التأويل.»[٣]

فهو يدّعي الإجماع على هذا التأويل، بينما الباحث إذا تأمل فيه استغرب دعوى الإجماع على مثله، فإنه لا يخلو من إشكالات، وإذا كان التأويل تكتنفه إشكالات، تعذّر عليه الإجماع. وتلك الإشكالات كما يلي:

الإشكال الأول:

إن تأويل قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا ﴾ إلى ما حصل في غزوة بدر من قتل المشركين وأسرهم لا يخلو من تكلف، فالعبارة لا تحتمل ذلك، وليست هناك

---

(١) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل: ١/ ٤٣٦

(٢) الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ١/ ٢٠٨

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: ٧/ ٣٧٢

أية قرينة تدل عليه. والسياق كله سياق غزوة أحد. ولو كان المراد ما ذهب إليه هؤلاء الأعلام لكانت الآية على نحو مما يلي:

أو لما أصابتكم مصيبة في (أحد) قد أصبتم مثليها في (بدر) قلتم أنى هذا؟

الإشكال الثاني:

الذين خاضوا معركة بدر، وقتلو المشركين وأسروهم، كلهم كانوا من صفوة المؤمنين، من المهاجرين والأنصار، ولم يؤثر عنهم أبداً أنهم قالوا عند أي مصيبة أصابتهم ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ؟! فهذا قول يملؤه الهلع والجزع، وضعف الإيمان وقلة الصبر، ولا يمكن صدوره إلا ممن كان مصاباً بتلك الآفات، ومن يكون أولئك غير أهل النفاق؟ الذين أوضعوا خلال المؤمنين يبغونهم الفتنة!

الإشكال ثالث:

سياق الآية كله سياق لوم وتعنيف وتقريع، فليكن تأويل الآية بحيث يتلاءم مع هذا السياق.

نعم، كون مصيبة عدوهم مثلي مصيبتهم قد يهوّن الخطب، ويورث السلوة، ولكن ليس من الضروري أن يتسلى المرء دائماً، ويتعزى بهذا الأمر، وإن لم يتسلّ أحد بهذا الوضع ولم يتعزّ، فلا يستوجب الملام والتقريع.

فالمصيبة لا تقاس دائماً بعدد القتلى والجرحى، فقد تكون المصيبة في شخص واحد أكبر وأشدّ مما تكون في هلاك آلاف وآلاف! وهذا الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إثبات.

تلك أمور تصرف الباحث عما ذهب إليه الإمام ابن جرير وغيره من أئمة التفسير.

تأويل الآية كما يمليه سياقها:

فما تأويل الآية إذاً؟

إن التأمل في تلك الآية وسياقها يوحي إلينا أن الخطاب فيها ليس إلى المؤمنين الصادقين، الذين بذلوا أرواحهم لدين الله، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وإنما هو موجّه إلى المنافقين - المنافقين الذين لم يألوا المؤمنين خبالاً، فهم لعبوا دورهم المشؤوم في إفساد أمر المؤمنين، وجلبوا عليهم من المصائب والمحن ما لم يكن في الحسبان، ولما أصابتهم نفحة من تلك المصائب، صاحوا وضجّوا وصرخوا: (أَنَّى هَذَا)؟!

فجاءهم الردّ: أنتم الذين صنعتم كذا وكذا، مما جلب على إخوانكم ما جلب، ولما أصابتكم مصيبة - وهي مما اجترحته أيديكم، وأنتم السبب فيها، وقد أصبتم إخوانكم بمثلَيْ تلك المصيبة، أي: أضعافها، قلتم: من أين هذا؟!

إنما هو من عند أنفسكم، وبسوء صنيعكم، وليس من غيركم!

ومما يسرُّنا ويُدخل البهجةَ في نفوسنا أن هناك من جلة المفسرين من أشار إلى مثل هذا التأويل.[1]

مثال ثالث:

ومن مثل تلك الآيات قوله تعالى في سورة النساء:

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ١٥٩).

قال الإمام ابن جرير بعد ما ذكر الأقوال المروية في تأويل الآية:

وأَوْلى الأقوال بالصحة والصواب، قول من قال: تأويل ذلك: «وإن من أهل

---

(١) انظر :تفسير أبي السعود، سورة آل عمران: ٩٧- وروح المعاني: ٢/ ٢٨٢- ومعاني القرآن للأخفش: ١/ ٢٢٠

الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى».

وقال:.... «دلَّ الدليل على أن معنى قول الله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾، إنما معناه: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وأن ذلك في خاصٍ من أهل الكتاب، ومعنيٌّ به أهلُ زمانٍ منهم، دون أهل كل الأزمنة التي كانت بعد عيسى، وأن ذلك كائن عند نزوله.»[1]

وقال الإمام ابن كثير، وهو يوافق الإمام ابن جرير في تأويله، ويعزّز رأيه:

ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير، رحمه الله هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شُبِّه لهم فقتلوا الشبيه، وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة.

فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ أي: قبل موت عيسى، الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب[2].

مفهوم لا يستوي على الآية:

نقول: هذا المفهوم الذي ذهب إليه أهل التفسير، لا يستوي على الآية، وهو يقتضي نوعاً من تبديل أو زيادة في عبارة الآية، وبيانه كما يلي:

---

(١) تفسير الطبري: ٩/ ٣٨٨

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٥٤

التخصيص يقتضي زيادة في النصّ:

قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ ورد على أسلوب يفيد استغراق الجنس تماماً كاملاً، بدون أيّ استثناء، وله نظائر في القرآن، قال تعالى:

* ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾(سورة الإسراء: ٤٤).

* ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ (سورة مريم :٧١).

* ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة فاطر :٢٤).

* ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (سورة مريم: ٩٣).

وإذاً، فيقتضي هذا الأسلوب ألا يبقى أيّ فرد من أهل الكتاب، بعد نزول هذه الآية، إلا ويدخل في هذا الخطاب، سواء كان في عصر نزول الآية، أو بعده إلى قيام الساعة، فلا يوجد أيّ كتابيّ، في أيّ عصر، وفي أيّ قطر، إلا ويشمله هذا الخطاب.

وأما تخصيص الخطاب بأهل الكتاب المعاصرين لنزول عيسى، فهو يقتضي زيادة في النص، وهو كما يلي: «وإن من أهل الكتاب المعاصرين لنزوله إلا ليؤمنن به قبل موته».

وأسلوب الآية يأبى هذه الزيادة في تأويلها، وإذا كان التأويل يقتضي مثل هذه الزيادة، فهو تأويل مرجوح، غير مقبول.

ما مناسبة ذكر الموت هنا؟

ثم ما مناسبة ذكر الموت - موت سيدنا عيسى في هذا السياق؟ ولو كان القرآن يقصد إيمان أهل الكتاب به بعد نزوله، لكانت الآية على نحو مما يلي: (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به بعد نزوله)

تساؤلات وإشكالات أخرى:

ثم هناك تساؤلات أخرى، تحوم حول هذا التأويل، وهي كما يلي:

• لم يذكر في الآية نزول سيدنا عيسى بعد رفعه، ولا موته بعد نزوله، أوحياته بعد رفعه. لم يذكر ذلك كله في الآية، ولا في السورة، ولا في أيّ مكان في القرآن، فكيف نبني تأويل الآية على شيء لا نجد له أصلاً في القرآن؟ ولو كان القرآن يقصد ما ذهب إليه الشيخان، لكانت الآية على غير ما هي عليه الآن.

ولا يفوتنا هنا أن نذكّر بما سجّله صاحب الظلال، وهو يشرح تلك الآيات، قال رحمه الله:

"ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين؟ وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه.

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة؛ إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله تعالى: ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ .. وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي وموعده . . ونحن - على طريقتنا في ظلال القرآن - لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال؛ ولا أن نضرب في أقاويل وأساطير؛ ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل . .»[1]

والحق أن الروايات التي يسميها الإمام ابن كثير وغيره «أحاديث متواترة»، هي ليست من التواتر في شيء، ولا بد من استئناف دراستها دراسة موضوعية جادّة. فالروايات فيها اضطراب شديد!

• وإذا لم يؤمن اليهود بسيدنا عيسى قبل رفعه إلى السماء، وكانوا له أعداء، فكيف يؤمن به كلهم بعد نزوله من السماء؟ فيهود اليوم ليسوا خيراً من يهود الأمس، ويهود الغد أحرى ألا يكونوا خيراً من يهود اليوم.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن: سورةالنساء: ٢/ ٨٠٢

• هل ينزل عيسى مع جنود من الملائكة، ويُكرِه أهل الكتاب على الإيمان به؟ إن كان الأمر هكذا، فهو خلاف سنة الله، وخلاف طبيعة الابتلاء.

أم يؤمن به أهل الكتاب برغبتهم، وإرادتهم، بدون عنف، أو إكراه؟ فهذا لا يتمّ، ولا يحدث حتى يلج الجمل في سمّ الخياط.

• ليس هناك أيّ فرق بين الأنبياء والرسل في أمر الإيمان، ويجب الإيمان بهم جميعاً، بدون أيّ تفريق، حيث قال تعالى في نفس السياق:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (سورة النساء: ١٥٠-١٥١).

فما خصوصيّة عيسى، من بين الرسل والأنبياء، حتى يتفرّد بالنزول مرة ثانية، ليؤمن به جميع أهل الكتاب؟ ولماذا أهل الكتاب فقط؟ ولماذا لا يؤمن به الهندوس والمجوس وغيرهم؟

أهداف نزول المسيح:

ثم الأهداف التي ذكرت لنزول السيد المسيح أيضاً لا تخلو من إشكال، وهي كما يلي:

«فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف».

فهل قتل مسيح الضلالة شيء ينزل له عيسى ابن مريم من السماء؟ وهل تصبح الأمة المسلمة عقيمة، لا يكون فيها من يتصدى له، ويداوي رأسه، ويكفي الناس شرّه؟ ولماذا عيسى بن مريم بالذات، وهو ليس من رجال الحرب والضرب؟ وهل كسر الصليب، واجبار الناس على الإسلام بالعنف والقوة شيء مشروع

في دين الله؟ ألا يتعارض ذلك مع قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾؟

ثم ما ذنب الخنزير حتى يقتل؟

تلك تساؤلات، وإشكالات تتوجه إلى هذا التأويل، فلننصرف عنه، ولننظر، إذا كان هناك تأويل سليم من تلك الإشكالات.

ولن نتوصل إلى تأويل أسلم وأقوم من الذي تمليه علينا الآية نفسها بنصّها وسياقها؟ فما هو ذلك التأويل يا ترى؟ نقول وبالله التوفيق:

تأويل الآية في ضوء نص الآية وسياقها:

ورد قبل هذه الآية بخمس آيات قوله تعالى:

﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ (سورة النساء: ١٥٣).

فموقف أهل الكتاب من هذا القرآن كان موقف عناد، وجحود، وسخرية، واستكبار، وكانوا يملون على رسول الله شروطاً صِبيانيّة، غير عاقلة حتى ينجزها، وإذا أنجزها فهم ينظرون في الأمر، ويتخذون القرار: هل يؤمنوا، أو لا يؤمنوا!

فعدّد ربهم جرائمهم السوداء عبر تاريخهم الطويل، وذكّرهم مواقفهم البغيضة المقوتة مع رسلهم موسى، وعيسى، ومع أمّ عيسى، ثم أنذرهم أن يراجعوا أنفسهم، ويراجعوا موقفهم من هذا القرآن، فقال:

﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴾ (النساء: ١٥٩)

أي: ليس من حق أهل الكتاب أن يُمْلُوا على رسول الله شروطاً للإيمان بالقرآن، بل واجبٌ حتمٌ عليهم جميعاً أن يؤمنوا به، لا بد أن يؤمنوا به قبل أن

يموتوا، إن كانوا يودّون أن يُغفرلهم ما قد سلف منهم من الفظائع والفضائح، وسيكون هذا القرآن شهيداً عليهم يوم القيامة. و شهادته هي التي تُرديهم، أو تنجيهم من عذاب الله!

ويشهد لذلك ما رواه مسلم، قال:

حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب قال وأخبرني عمرو أن أبا يونس حدثه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».[1]

ولا يبعد أن يكون نبينا عليه الصلاة والسلام، أرسل هذا التحذير صادراً عن هذه الآية.

وقال عليه السلام: القرآن حجة لك أو عليك.[2]

فالقرآن يكون يوم القيامة شهيداً على كل من آمن به، أو لم يؤمن، ويكون حجة للمؤمنين، كما يكون حجة على الكافرين.

«ليؤمنن به» يفيد معنى الإلزام:

وقوله تعالى: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) لا يفيد معنى الإخبار بالغيب، وإنما يفيد معنى الأمر، والإيجاب، والإلزام، أي: واجب ومحتّم عليه أن يؤمن به، وإلاّ فلا بد أن يلقى جزاء كفره وعناده، جزاء غير منقوص، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ

---

(١) صحيح مسلم، باب وجوب الإيمان برسالة: ١/ ٩٣/ ٤٠٣

(٢) صحيح مسلم، باب فضل الوضوء: ١/ ١٤٠/ ٥٥٦

ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ سورة آل عمران: ٨١

أي: إن جاءكم رسول تصدق عليه تلك العلامات التي ذكرت لكم، وفصّلت في كتابكم، فلا بد أن تؤمنوا به، وتنصروه.

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة النمل: ٢٠-٢١).

أي: لا بد له أن يأتيني بعذر واضح وحجة ظاهرة، تبرّر له غيابه بدون إذن، وإلا فلا مناص له من أحد الأمرين: إمّا العذاب الشديد، وإمّا الذبح.

ومنه قوله تعالى:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (سورة العنكبوت: ١١)

أي: لا بد أن يكشف الله المؤمنين، ويعرف إيمانهم، ولا بد أن يكشف المنافقين، ويعرف نفاقهم.

ومنه قوله تعالى:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ (سورة القلم: ١٧)

أي: أقسموا، لا بد أن يصرموها في الصباح الباكر! فهو ليس من الإخبار، وإنما هو اتخاذ قرار حاسم.

ومنه قوله تعالى في نفس السورة:

﴿ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴾ (سورة القلم: ٢٣-٢٤).

أي: لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يدخلها عليكم أيّ مسكين!

ومنه ما ورد عن النَّبيّ ﷺ قَالَ:

((وَالَّذِي نَفْسي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلا يُسْتَجَابُ لَكُمْ)).

قال أبو عيسى هذا حديث حسن.[1]

أي: لا بد لكم أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وإلا فلا بد أن يبعث الله عليكم عقاباً منه.

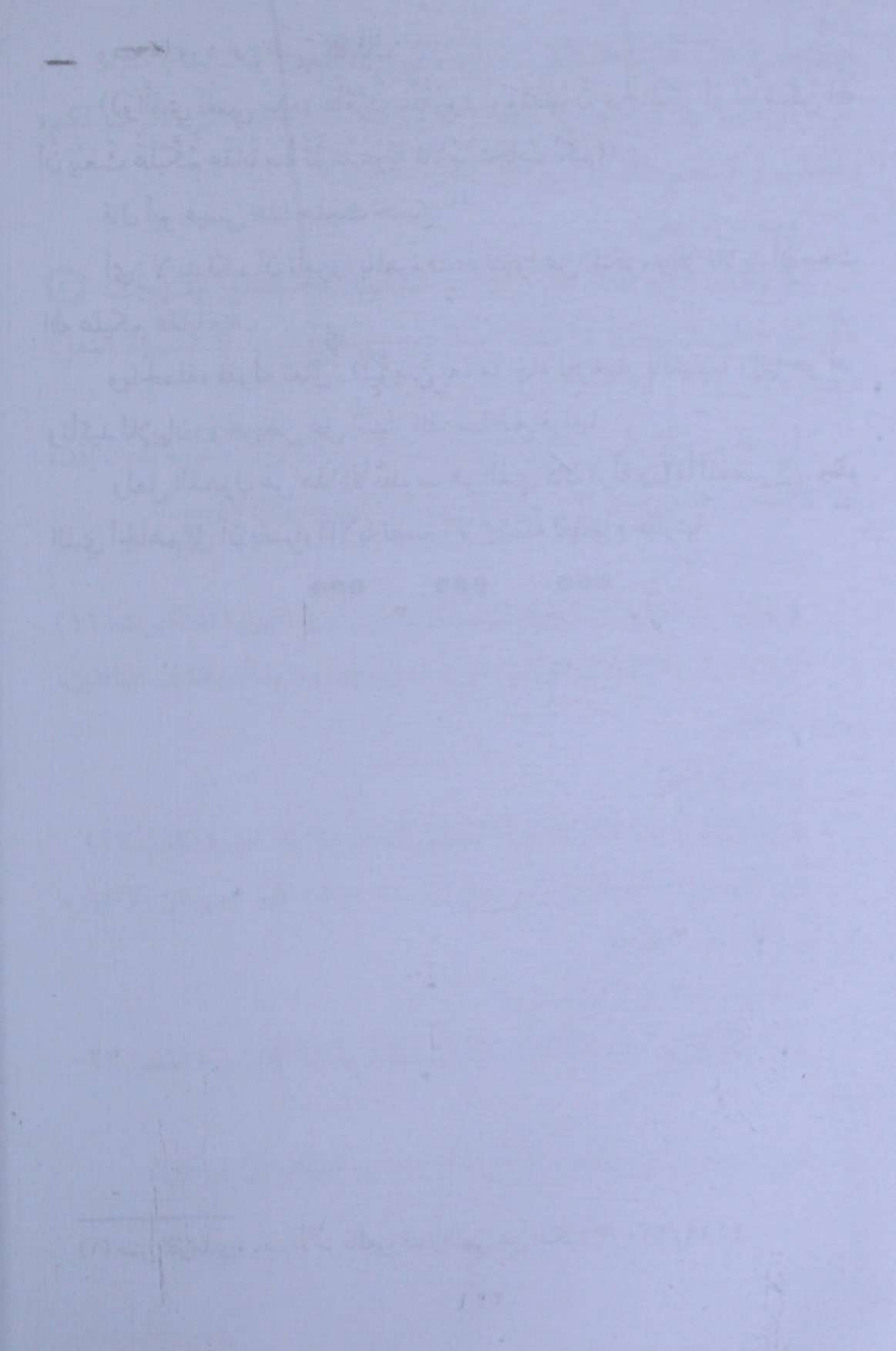
وبالجملة، فقوله تعالى: (لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) ما جاء للإخبار بالغيب، وإنما هو أمر وتأكيد للإيمان، وتحريض على انتهاز الفرصة قبل فواتها.

ولعل الذهول عن هذا الأسلوب هو الذي كان مزلّة وزلَقاً للمفسرين. وهو الذي ألجأهم إلى أن يفسروا الآية تفسيراً لا يحتمله لفظها وعبارتها.

***   ***   ***

---

(١) سنن الترمذي، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ٣/ ٢١٠/ ٢١٦٩



الخاتمة

تلك ضوابط أساسية ورئيسية لتدبر القرآن. وليس تدبر القرآن - كما قدمنا - مجرد اطلاع على ما كتبه أهل التفسير في تأويل الآيات، وشرح معاني الآيات؟

بل هو الإقامة الذاتية على الآيات إقامة طويلة واعية، إقامة عاقلة مباشرة، من غير أن يكون هناك أيّ حاجز بين القارئ والقرآن.

وهو المنهج الأفضل، والطريقة المثلى لفهم القرآن وتفسيره، دون أي منهج آخر. وليس هناك من شطط حين نقول:

إنه هو منهج رسول الله عليه الصلاة والسلام، ومنهج كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

وهو منهج مختلف من منهج التفسير بالمأثور، ومنهج مضادّ للتفسير بالهوى، فالتفسير بالهوى لا يعتمد على تدبر القرآن، وإنما يعتمد على الروايات، ويعتمد على الحكايات، ولولم تكن لها خطم ولا أزمّة! ويعتمد على الإسرائيليات، ويعتمد على أقاويل الناس، وأهواء الناس.

ومنهج التفسير بالمأثور أيضاً يعتمد على ما يعتمد عليه التفسير بالهوى من الروايات الضعيفة والآثار الموضوعة؛ فإن الصحيح في التفسير نزر يسير، وغير الصحيح هو الغالب في مرويات التفسير، ولقد صدق الإمام أحمد رحمه الله حينما قال: ثلاثة أمور ليس لها أصل، وليس لها إسناد: التفسير والمغازي والملاحم !

ويؤيده ابن تيمية، فيقول:

«ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم ؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي، ويروى ليس لها أصل، أي: إسناد ؛ لأن الغالب عليها المراسيل»

(مجموع الفتاوى - فصل في أن الاختلاف في التفسير على نوعين: ١٣/ ٣٤٦ - دار الوفاء - الطبعة الثالثة)

فلا يوجد فرق بين التفسير بالمأثور والتفسير بالهوى سوى أن أحدهما يتبع الهوى، أو يعتمد على الهوى، والآخر يعتمد على الإخلاص وصدق النية، ولكن النتيجة تكون في أغلب الأحوال واحدة! لأن الوسيلة تكون واحدة!

فتدبر القرآن هو العلاج الوحيد لآفات التفسير بالهوى وغوائله، و هو السدّ المنيع في وجهه، وفي طريقه، ولو أن الناس تمسكوا بهذا المنهج لأمنوا الوقوع في التفسير بالهوى، وأمنوا غوائل الإسرائيليات، وأمنوا كل ما حيك من مؤامرات ضد القرآن، وأمنوا كل الانحرافات في تفسير كتاب الله.

والآن، بعد ما انتهينا من تفصيل تلك الضوابط الأساسية لتدبر القرآن، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لتدبر آياته، ويوفقنا للغوص في بحر معانيه، إنه سميع قريب مجيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

*** *** ***

ثبت المراجع

١. القرآن الكريم
٢. أحكام القرآن لأحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤٠٥هـ
٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة.
٤. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. لبنان. ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
٥. بحر العلوم لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٣ه-١٩٩٣م
٦. تاج العروس من جواهر القاموس لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الزَّبيدي، دار الفكر، شارع عبد النور.
٧. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
٨. تفسير البغوي (معالم التنزيل) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة: ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م
٩. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) لمحمد بن جرير أبي جعفر الطبري تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

١٠. تفسير الرازي (مفاتيح الغيب للإمام محمد بن عمر المعروف بفخر الدين الرازي) الناشر: دار إحياء التراث العربى، بيروت.

١١. تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٠م

١٢. تفسير الماوردي (النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

١٣. تفسير ابن عاشور (التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م

١٤. تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، الناشر: دار الفكر.

١٥. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطية الأندلسي)، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في قطر، الطبعة الثانية: ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م

١٦. تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) للعلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي. بيروت. ١٤٠٧هـ

١٧. تفسير ابن أبي حاتم للإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا. بيروت.

١٨. تهذيب التهذيب للامام الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

١٩. تهذيب الكمال مع حواشيه ليوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م

٢٠. الثقات لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م

٢١. الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، الناشر: دار الجيل بيروت - دار الأفاق الجديدة بيروت

٢٢. الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٣. الحماسة البصرية لصدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسين البصري، تحقيق: عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

٢٤. ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب، الناشر: الدار العالمية.

٢٥. ديوان الخنساء لتماضر بنت عمرو والمعروفة بالخنساء، الناشر: دار صادر، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م

٢٦. ديوان مهيار الديلمي لمهيار بن مرزويه، أبو الحسن الديلمي، نقلاً من المكتبة الشاملة.

٢٧. ديوان المفضليات مع شرح وافر لأبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت. ١٩٢٠م

٢٨. ديوان الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، مع شرح التبريزي، الناشر: مطبعة التوفيق بشارع كلوت بك، بمصر. ١٣٢٢هـ

٢٩. ديوان النابغة الذبياني، الناشر: مطبعة الهلال بالفجالة، مصر. ١٩١١م

٣٠. ديوان الأعشى لميمون بن قيس بن جندل المعروف بأعشى، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
٣١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الآلوسي، تحقيق: على عبد البارى عطية، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت. ١٤١٥هـ
٣٢. الروض الأنف في شرح غريب السير لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢١ه-٢٠٠٠م
٣٣. زاد المسير في علم التفسير لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثالثة: ١٤٠٤ه
٣٤. سمط اللآلي شرح أمالي القالي ومعه ذيل أمالي القالي لعبد العزيز الميمني لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكرى. نقلا من المكتبة الشاملة.
٣٥. سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢١ه-٢٠٠٠م
٣٦. سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، تعليق: ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الكتاب العربي بيروت.
٣٧. السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٥ه- ١٩٩٤م
٣٨. السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون لعلي بن برهان الدين الحلبي، نقلا من المكتبة الشاملة.
٣٩. شعب الإيمان لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

٤٠. شرح المعلقات السبع للزوزني للحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني، تحقيق: عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. ١٤٢٤ه-٢٠٠٤م

٤١. صحيح البخاري (الجامع الصحيح) لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.

٤٢. صحيح ابن خزيمة لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت. ١٣٩٠ه - ١٩٧٠م

٤٣. الصحاح في اللغة لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت. لبنان. الطبعة الثانية: ١٣٩٩ه- ١٩٧٩م

٤٤. العباب الزاخر واللباب الفاخر للحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، نقلاً من المكتبة الشاملة.

٤٥. العقد الفريد للفقيه أحمد بن محمد ابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: الدكتور عبد المجيد الترحيني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٠٤ه-١٩٨٣م

٤٦. فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت. لبنان. الطبعة الثالثة: ١٤١٧ه-١٩٩٧م

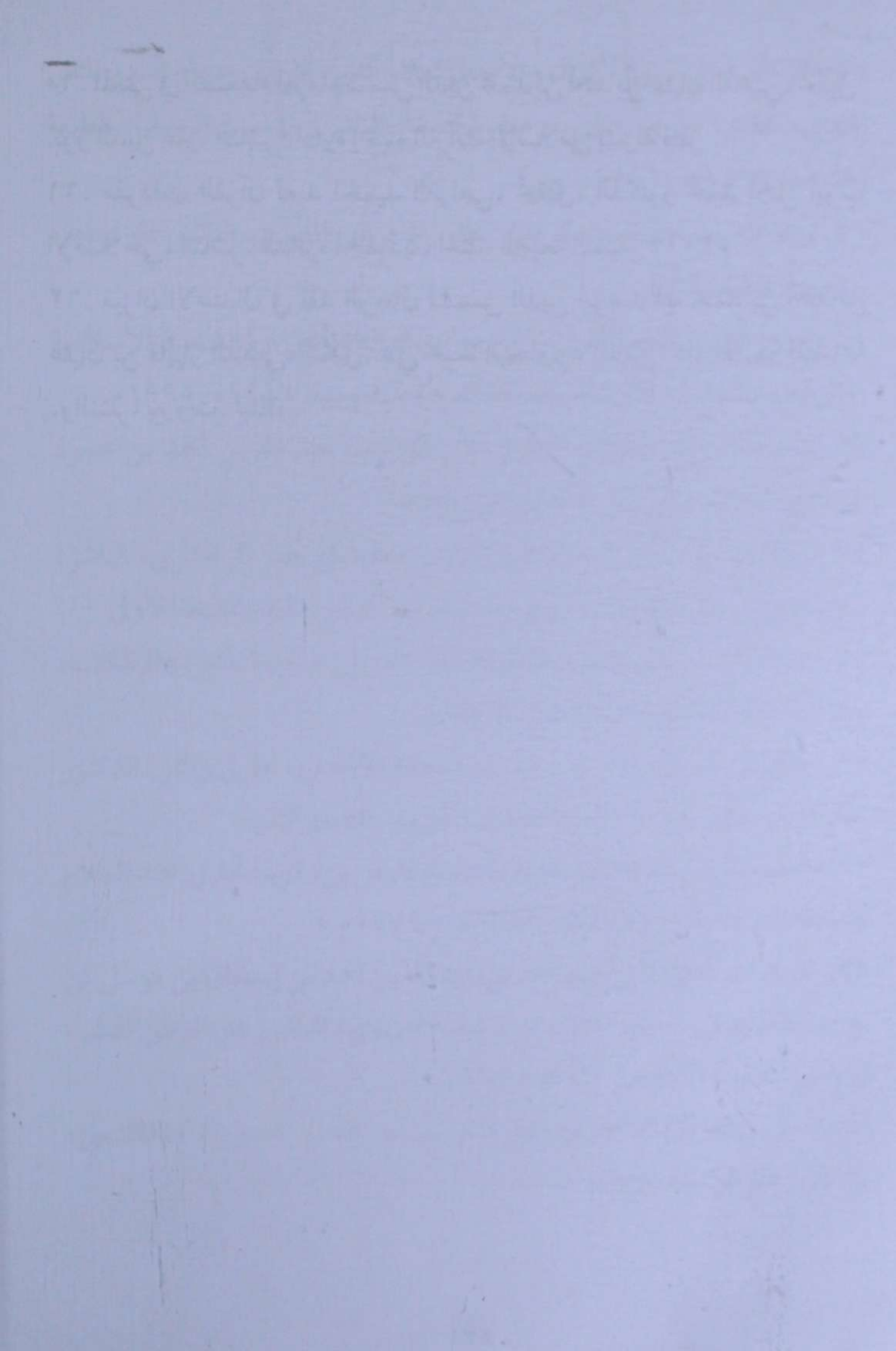
٤٧. فى ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم ، الناشر: دار الشروق، القاهرة.

٤٨. كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، الناشر: دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٤٩. كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: منشورات محمد علي بيضوت، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٩ه-١٩٩٨م

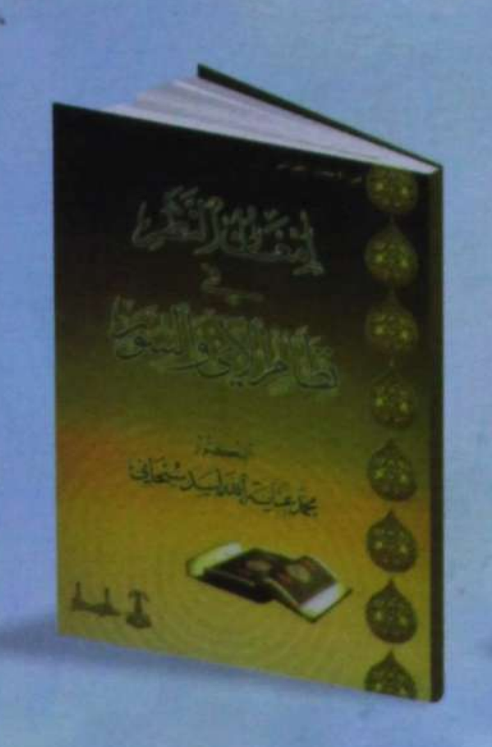
٥٠. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني - صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة: ١٤٠١هـ-١٩٨١م
٥١. لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الناشر: دار صادر، بيروت. الطبعة الأولى.
٥٢. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية. ١٤١٦ه-١٩٩٥م
٥٣. مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، الناشر: ناشر تجار الكتب، ممبئ، الهند.
٥٤. المستقصى في أمثال العرب لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، الناشر: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدرآباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى.
٥٥. مسند أحمد بن حنبل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، الناشر: عالم الكتب، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
٥٦. معاني القرآن لأبي الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، تحقيق ونشر: الدكتور فائز فارس، ص. ب. ٢٠٠٢، الصفاة، الكويت. الطبعة الثانية.
٥٧. معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
٥٨. معرفة الصحابة لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
٥٩. المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، الناشر: عالم الكتب، بيروت.

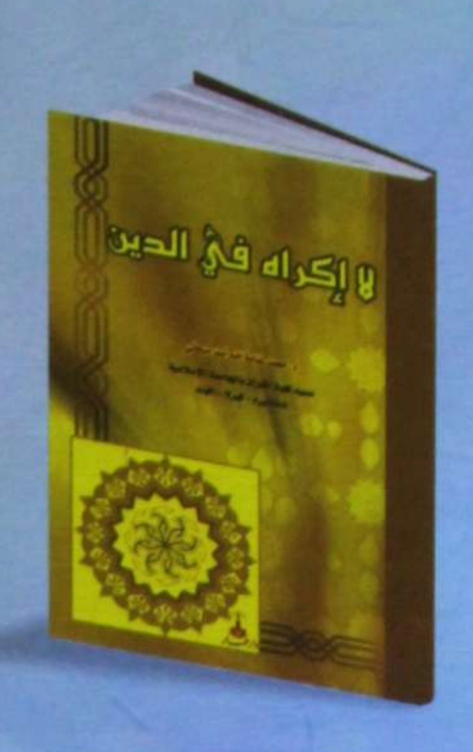
٦٠. المغني في الضعفاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: نور الدين عتر، الناشر: ادارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.
٦١. مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي، تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الناشر: الدائرة الحميدية، الهند. الطبعة الثانية: ٢٠٠٤م
٦٢. ميزان الاعتدال في نقد الرجال لشمس الدين أبوعبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت. لبنان.

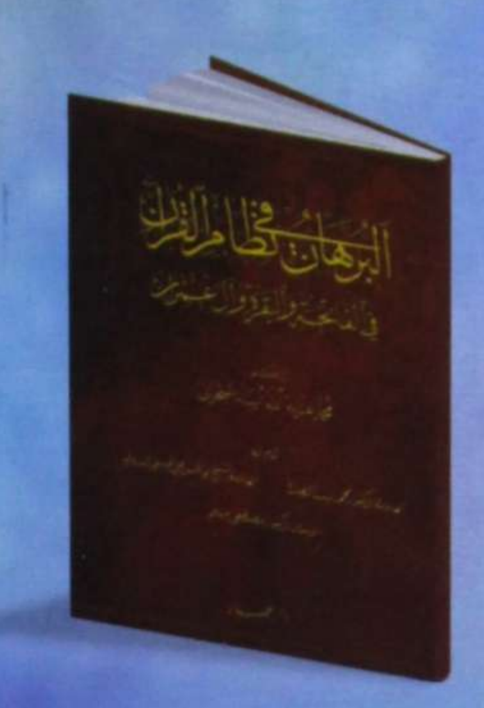


الفهرس











دار عمار للنشر والتوزيع

عمّان. ساحة الجامع الحسيني. سوق البتراء. عمارة الحجيري

تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ ص.ب ٩٢١٦٩١ عمّان ١١١٩٢ الأردن

E-mail: dar_ammar@hotmail.com